عَبدالمنعِم الصَاوِى

شِرَاعٌ أبيَض

شـــراع أبيض

عبدالمنعم الصاوى

(يومية ٧٤١ إيداع ١٩٦٦)

الطبعة الثانية

شراع أبيض

عبدالمنعم الصاوى



الإهــــــداء

جمالها الهادئ الرزين، ألهم رمسيس الثانى أعظم ما خلده للتاريخ.
ونظرتها النفاذه الطيبة، ألهبت أخلية الفنانين، فأبدعوا تصويرها للأجيال:
وبهذا شقت بجمالها وسحرها حجب الزمن، فشممنا أريجها يعطر جوانب حياتنا، فى الطريق إلى أجيال أخرى عديدة، بعدنا.

إنها نفرتارى، المصرية الصميمة، وقد شعرنا أنه دين علينا أن يهدى إليها هذه القصة.

□■

تقديم

كلما ذهبت إلى بلاد النوبة شعرت أن هذه المنطقة من الدنيا، تعيد إلى نفسى الثقة بإمتداد القيم الجمالية العريقة إلى حياتنا الراهنة.

فالطبيعة هناك متميزة بطابع قديم أصيل، لم يتأثر فى تطوره بأية عناصر مستوردة، ولم يختل توازنه نتيجة التطعيم الصناعى الذى اضطربت به جوانب مختلفة من حياتنا.

هناك، فى هذه البقعة النائية، تشعر أنك والحضارة المصرية القديمة وجهاً لوجه، لاتعزلك عنها عقبات الزمن.

حتى الإنسان تجده هناك نقياً صافياً، يواجه حياة جافة قاسية، فينتصر عليها بالقناعة والرضا، وشعور خفى كامن فى أعماقه، هو إرادة الحياة.

وهناك تشعر بوحدة الوجود شعوراً جارفاً، يجعلك ترى الماء والجبل، والشجر الأخضر الذى ينبت فى الصخر،

وزراعـات منثـورة هنـا وهناك تكاد لاتبـين، والبـيـوت والناس والحيوان، قطعة واحدة بينها تفاهم وتفاعل وإنسجام.

ولن تجد كل ما خلفته الحضارة المصرية من آثار غريباً عن هذه الطبيعة.

إن الطبـيـعـة هـناك تكون أشكالاً رائعـة من الأهـرامـات والمعابد والعمارة الفريدة.

والمصرى كان دائماً ابناً وفياً لهذه الطبيعة فحاكاها بما خلف من تراث. ولقد تناول الوجود على أنه كل لا تتفرق أجزاؤه، فكانت عمارته، وكانت أعماله فى نطاق هذا الكل الذى لا يتجزأ ولا يتفرق.

لقد نحت عمارته فى الصخر، هياكل أو معابد.

كما أنه اتخذ من حضن الجبل مأمناً لما يخلفه من مبان تخلد على مر الأجيال.

وبعد ذلك زين جدران المبانى بآيات فنه، ولم تتعزل عبقريته عن الحياة فى عصره، فإذا بريشة الفنان تصبح هى التعبير الباقى على الزمن، يروى أسرار هذه الحياة بما فيها من خير وحق وفضيلة وإنتصار.

إنه لم يخلف لوحات منفصلة عن الحياة، يضعونها فى إطارات فى المتاحف أو يحملون بها الحياة، حيثما تحلو لهم

الحياة. لا، وإنما كان الفن جزءا لا يتجزأ من عمارتهم ومن حياتهم، يلازمهم وهم يأكلون، وهم يمرحون، وهم يمارسون حياتهم اليومية فى كل جزئياتها وتفصيلاتها. والفن الأصيل القوى لا يمكن أن يكونه ثمرة حياة تافهة أو فارغة.

إذن، فأنا لا أعدو الواقع، عندما أشعر أن الرحلة إلى النوبة تعمق فى الوجدان، حتى لتهز المقاييس المألوفة والحدود المعتادة فى الحكم على الثقافة والفنون، أعنى أنها تصححها، وضتعها حيث ينبغى أن تكون.

هناك غير هذا الأثر، أثر آخر اعتدت أن أعود به من كل رحلة إلى هذه البلاد.

ذلك هو التقدير العميق لهذا الجيش الباسل، الذى تحدى قسوة الطبيعة وخشونة الحياة، لينقذ هذا التراث.

علماء الآثار من كل أنحاء الدنيا.

وعمال الآثار المستغرقون فى أعمال الحفريات ونقل المعابد، وعلى شفاهم الأغانى والأناشيد.

والمهندسون والرسامون والفنيون.

والمثقفون والفنانون، ورجال التاريخ والاجتماع.

كل هؤلاء، وقد تفرقوا فى بلاد النوبة يسابقون الزمن، ليسبقوا مياه النيل، قبل أن ترتفع المياه، بعد إقامة السد العالى.

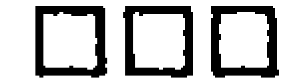
وعلى أفواههم دائماً ابتسامات، وعلى جباهم دائماً حبات عرق، وفى قلوبهم دائماً أمل، أن ينقذوا هذا التراث للأجيال المتعاقبة.

وتراهم هناك من كل جنس ولون ودين، تجاوزوا حدود التباهى والتعصب، ولم يعد بينهم حديث إلا ما خلفته هذه الحضارة للإنسانية من قيم.

يعملون بالليل وبالنهار، فى ظروف قاسية، كالجنود فى الميدان.

هؤلاء وأولئك جميعاً، يستحقون، قبل أن تبدأ القصة، تحية تقدير وإكبار.

عبد المنعم الصاوى



(1)

الزرقة صافية رقيقة كالحلم، تخدر العقل، فتملك الوجدان والحس جميعاً.

وأروع ما فى هذه الزرقة، أنها تلف الطبيعة من فوق ومن أسفل فى رقة وحنان.

السماء من فوق، لا تجرؤ سحابة ـ مهما تكن كبيرة أو صغيرة أو عابرة ـ على أن تنتهك قداستها.

والنيل محيط، تجده فى أسفل، وعن يمين وعن يسار، يلتف حول الحياة فى ود وإخاء، حارساً وفياً لا يغفو ولا ينام.

والسواد صريح كالمنطق، لا يلتوى ولا يدور، إنما يمضى كالسراط.

وأجمل ما فى هذا السواد، أنه يتوهج طول النهار، فتملأ أشداقة الضحكات، وفى الليالى تحت ضوء القمر، يتموج كالرداء. وعندما تشتد الحلكة فى الليالى المعتمة، يلمع كعلامات الطريق.

إنه يتفرق فى الصخور السود من حجر الجرانيت، حول مياه النيل المنسابة، وبين مرتفعات الجبل، يطل على الكائنات، فى أشكال أكثر جمالا، مما تبدعه يد الإنسان.

والبياض ناصع كالحقيقة، تعلن عن وجودها بلا تستر أو غموض وأبدع ما فى هذا البياض أنه لا يخطف البصر كاللصوص، وإنما يأسر اللب كالربيع.

تراه هنا وهناك، فوق جدران المساكن، يتدرج معها فوق الارتفاعات، كملاك يصعد درجات الخلد إلى السماء.

والخضرة عزيزة المثال كالعروس، إذا ظهرت ففى أبهى زينة وأرشق قوام، تتمايل فى عذوبة، فتثير فضول الرجال.

وأشهى ما فى الخضرة هنا أنها خضرة موغلة فى الإخضرار، عجزت أشعة الشمس المحرقة عن أن تسلب لبها، أو أن تخطف لونها، فأقامت من نفسها طلاء وبهاء ورداء، يجعل لهذه الخضرة العزيزة طعماً يمكن أن يذاق.

وهى تندس كالسر فى الأخوار والوديان، فلا تطالعك إلا وأنت فى أحضانها كالمفاجأة. أو ترتفع فوق الربا فى شجرة من أشجار السنط أو الدوم، أو تتمايل ذات يمين وذات يسار فى سعف نخلة تحركه الرياح. أو تمتد متراخية على سطح الأرض، فى نبات الحنظل بكراته المبعثرة الخضراء.

والصفرة ناعمة ملساء كالحرير، يسرك أن تلمسها، فإذ بينك وبينها تعاطف وحنان، تود لو طالت هذه اللمسات، ليتأكد ماتربطك بها من صلات.

وأعمق ما فى هذه الصفرة ما تتميز به من صفاء وكتمان. إنها رائعة فى صمتها لولا ما تحمله الريح فى بعض الأحيان، من صرير يخبو كأنه السر، ويشتد كأنه النذير.

وهى هنا وهناك، على إمتداد البصر، فيما يحيط بالكائنات من رمال لا تنتهى: صحراء عارية، تدرك أن هذا العرى يظهر مفاتنها، فلا يختلف عليها اثنان.

وألوان أخرى مختلفة، مركبة ومتداخلة، لكنها من فرط ما أبدعت قدرة الله فى تركيبها وتداخلها، تراها لوناً قائماً بذاته، له وحدته وعناصره التى لا تتكرر فى سواه.

وعندما يأتى المساء، ترى مع الغروب لوناً لو نقله عن هذه الطبيعة فنان لما صدق أحد أنه لون من ألوان هذا الوجود البارع السخى. وعندما يكون شروق صحبه لون آخر، له فتنته وروعته.

فإذا طلع القمر، فإن له طلعة ينفرد بها، حتى ليصعب أن نصدق أنه القمر الذى ألفناه، فإذا غاب، أحسست أنه يغلق وراءه ألوانه هذه، ليفتح الباب لألوان أخرى رائعة وفاتنة.

●●●

وعندما ولد "مدثر"، كانت هذه الألوان فى تكوينه، فخرج إلى الدنيا من بطن أمه، ومن طبيعة هذه النجوع، التى تلتف حول نفسها فى منطقة كلابشة من بلاد النوبة.

وكان مولده ذات ليلة من ليالى عام ١٩٣٤ وهو العام الذى تمت فيه تعلية الخزان عند أسوان، وارتفع الماء، فأغرق البيت الذى كانت تسكنه أسرته، فى نجع نصر الدين.

وكان عاماً لا ينسى، فقد هبت على البلاد موجة عاتية من الظلام، أحالت الحياة كلها إلى ذكريات. وشعر أبناء كلابشة، كما شعر أبناء النوبة بشئ يشبه الغشاوة، يعمى أبصارهم فلا تعود ترى.

أين البيوت التى بنوها بالجهد والعرق، لتقيهم قسوة هذه الطبيعة؟

وأين الزراعات التى أعدوها لطعامهم وطعام مواشيهم؟

أين القمح وأين الشعير وأين أعواد الذرة؟

وأين أشجار الدوم والنخيل والسنط؟

لقد ابتلعها جميعاً تيار الماء، فغاصت كلها، ولم يعد يظهر منها إلا أطراف خضر من سعف النخيل، أو فروع تترنح من أشجار الدوم، تسبح على سطح واسع من الماء.

وخرج الناس يطوون قلوبهم على اليأس، يبحثون فى قمم الجبال عن ملجأ جديد.

لقد كانوا بين مصدق ومكذب.

"مدثر" نفسه يذكر أنه عندما اشتد عوده، وبدأ يعى ما يقال، كان أول ما وصل سمعه ما كان جده يرويه للناس من ذكريات هذه السنوات المنحوسة، فى حياة بلاد النوبة.

"إننالم نصدق الحكومة. بل إننا لا نزال لا نستطيع أن نصدقها. إن الحكومة نفسها ترغب فى هذا !! أين التعويضات؟ أين ما لنا فى عنقها من ديون؟ لكنها برّت فقط بالدمار، ولم تبرّ بما عليها من واجبات ! إنهم يذلوننا .إنهم يأكلون حقوقنا. لم يكفيهم أن أغرقوا بيوتنا. أتذكرون بيتنا القديم بفنائه الواسع، وكيف كان يصافح ماء النيل؟ أتذكرون هواءه العليل فى ليالى الصيف الممتعة، وكيف كنا نسهر فيه نشرب الحلبة فى لذة واطمئنان؟ إننى لن أنسى النخيلات الصغيرة التى كنت قد فرغت من غرسها، بعد أن جلبتها من أبريم. راحت هى الأخرى تحت الماء. كان عاماً من أعوام النحس يا أولاد "

ويتهدج صوت الجد، وهو يتابع الرواية:

"لكن الحكومة قد فعلتها، ونفذت ما لم نكن نصدقه من كلام.

"ارتفع علينا الماء، فأتى على كل ما كان لنا من آمال.

"الحمد لله أننا كنا قد دبرنا أمورنا، فأقمنا بعض المبانى البسيطة على قمم الجبال، وإلا كنا قد هلكنا".

وبينما كان الجد يحيا فى رواياته المكررة، كان "مدثر" يحاول بخياله أن يتصور بعض ما كان يسمع من روايات.

لكن جده، سرعان ما كان يقف عن الرواية، ليتلفت إلى الحفيد الصغير.

لم يعد لكل منهما من السلوى والعزاء والسند، إلا الآخر. الجدّ يرى فى الحفيد الأثر الوحيد الذى بقى من ذريته إلى جواره.

والحفيد يرى فى الجد الجذع الوحيد الذى بقى من أصله ليستند إليه فى الحياة.

وكلاهما عندما يتعاطفان، يمثلان أروع صورة، لالتقاء أمل المستقبل وتجربة الماضى، فى وحدة بلا انفصال.

"لولا أنك من بلاد النوبة ما تحملت قسوة الظروف التى واجهت فيها الحياة من أول عهدك بالحياة.

"أنت قنوع كطبيعة النوبة، وأنت جميل كجمال ما يحيط بك من أشكال".

ولقد كان "مدثر" يرضى عن نفسه كثيراً عندما يسمع من جده هذه الكلمات وكثيراً ما كان يتلفت حوله ليتأمل ما كان يشير إليه جده من هذه الأشكال.

●●●

الأشكال كذلك لا تقل روعة عن الألوان.

أهرامات تتفاوت حجماً وإرتفاعاً، وقد تبدو متتابعة فى خط مستقيم، وقد يتخفى بعضها وراء بعض، لكنها فى كل الأحوال أهرامات، كوّنتها طبيعة غنية بالأشكال.

بل إنك تجد بين هذه الأهرامات، ما هو مسرف فى السموق إلى عنان السماء، وما هو ملتصق بالأرض حتى لايبين، وما هو مستقيم الخطوط، وما هو مدرج القسمات، بل منها ما هو كامل التكوين، ومنها ما اختصرت منه عوامل الزمن أجزاء.

والمربعات والدوائر والمستطيلات تشكل الصخور أشكالاً تثير الخيال.

والمسطحات المستلقية، كمن استراح إلى الدفء فمدّد فوق الرمال ساقية.

وبين هذه الأشكال نجد المساكن تتدرج فوق هذه الأشكال من شرق ومن غرب، وبينها مسكن كبير يتميز عنها جميعاً، استقر فى الغرب ليواجه الشروق.

وبرغم ضخامة البناء، فإنه ـ كعمارة النوبة ـ يتشكل بالطبيعة من حوله، فيستقر فى بطن النيل، يرقب الطبيعة دون أن يعلن عن وجوده أو يفرض بضخامته هذا الوجود.

على أن ككل شئ هنا، لا يستطيع إلا أن يرتبط بالنيل من طريق مرسى قديم يقود إلى مدخله الفاخر، المحاط بالأبراج.

ثم تأتى بقية أجزاء المعبد: معبد كلابشة.

أو معبد تاليس، كما كانت هذه المنطقة من النوبة تعرف فى الزمان القديم.

"حتى المعبد ناله يا"مدثر" من الكارثة.

" لقد درجنا على أن نراه أعلى من ماء النيل، لكن الحكومة رأت أن تغرقة كما أغرقت بيوتنا، ليتعرض للتلف عاما بعد عام، فتتساقط أجزاؤه، وتبهت ألوانه، وتختفى نقوشه، فلا يعرف أحد بعد ذلك عنه شيئاً.

" إن المعبد بعد أن كان يقف وسط بيوتنا كالحارس الأمين، أخذ يختفى عن العيون تسعة أشهر كل عام ".

ويرتفع صوت الجد العجوز وهو يروى ذكرياته، كما ترتفع فقاعات الماء عندما يغلى:

" لكن هذه الحكومة ستذهب، وسيبقى هذا المعبد يروى هذه القصة للتاريخ، كما روى قصصاً أخرى غيرها " .

●●●

على أن هناك بناء آخر كهذا البناء وإن تميزت طبيعته ببعض الميزات التى تفرقه عن هذا البناء.

إنه كذلك معبد فناؤه فى الخلاء، مكشوف السقف، لكنه يقود إلى عمارة قدّت فى الصخر، تتخفى بدورها عن العيون تواضعاً أو حياء.

" إنه معبد بيت الوالى، من معابد رمسيس الثانى.

" لم ترتفع إليه المياه يا مدثر.

" لقد نجا من الغرق.

" إن فى قلوب الوحوش بعض الشفقة.. أحياناً ! "

ويبتسم "مدثر" لهذه الملاحظة الساخرة.

●●●

شكل آخر، لعله هو الذى أعطى لهذه الناحية من هذه البلاد اسمها، وحولها من الاسم القديم: تاليس، إلى الاسم الجديد: كلابشة.

هذه القمم من جبال الجرانيت الأسود عند مدخل كلابشة من شرق ومن غرب، وكيف تلتف حول مجرى النهر فتكاد تخنقه خنقاً، فلا يجد من المجرى ما يتنفس فيه إلا بشق النفس.

وما أغرب أن تجد هذه الصخور السود، تضيق حول رقبة النهر لبضعة أمتار ثم تتفرج قليلاً أمتار أخرى، ثم تعود فتضيق ضيقاً خانقاً بعد ذلك، لتبدو من الجانبين كأنما كفان تصلبت أصابعهما فى عصبية، ثم انفرجت راحتاهما فى توتر، ثم عاد الرسغان يتقاربان تقارباً شديداً، كأن حولهما كلبش السجان.

هل لهذا صار اسمها كلابشة؟

لو لم يكن هذ هو اسمها، لنطق بهذا الاسم من تلقاء نفسه كل من يرى هذه الجبال التى تشكلت فى هذا الشكل الغريب.

ولعل الطبيعة أرادت أن تجعل من باب كلابشة، أجمل كلبش يعرفه الإنسان.

فإلى جوار ما فيه من رهبة، وإلى جوار ما يثيره فى النفس من فزع، فإن أحجاره السود، تستدير حول نفسها فى

حبات تبدو صغيرة من بعيد، ثم تكبر كلما اقترب منها النظر، لكنها تستمر متآلفة متقاربة كعقد الحبل، أو كعقد الكلابش، الذى يطبق على الأيدى فى غير إشفاق.

لكن نعومة الحجر هنا، تجعل له ملمساً كأنه حرير.

والبريق الخاطف الذى يشع من قطعه اللامعة، يعكس نوعاً من الصفاء لا يتوافر فى كلابش السجان.

والمكان الموحش من حول هذا المنظر الفريد، يتيح الفرصة، حتى لا يرى شئ سواه. ومن خلال ممراته الضيقة حيناً، الفسيحة حيناً آخر، يمر ماء النيل، فى شدة، فيدور حول نفسه فى دوّامات رهيبة، ويكون له تيار عنيف.

فما أن يتخلص النهر من كلابش السجان، عند باب كلابشة، حتى يتنفس فى راحة واسترخاء، يشد أنفاسه فى ارتياح.

●●●

أما الحكاية التى لا يمل "مدثر" سماعها، ولايمل الجد ترديدها، فهى حكاية "حسين" والد "مدثر" أو حكاية كل شباب النوبة، منذ زحف عليهم الماء فى سنة ١٩٣٤.

" لقد كان أبوك يا "مدثر" زينة شباب كلابشة، كان جميلاً، وكان قوياً، وكان أحب أبناء البلدة إليها. كان قبل أن

يتزوج حلم كل عذراء. هل ترى أعيش حتى أراك مثلما رأيت أباك؟ لقد خرج يا ابنى فى جنح الظلام لا يحمل معه إلا بضع بلحات من التمر الجاف، وبضع دومات كقطع الحجارة، وأجرة السفر إلى القاهرة. ورفض أن يأخذ معه شيئاً آخر. قال لى أنتم محتاجون إلى كل ما لديكم، وأنا شاب قوى، ومعى بركة الله ودعواتكم. كان قد تزوج، ولم يكن قد مضى عليه مع أمك إلا عام. وكنت أنت رضيعاً صغيراً لا تعى من دنياك شيئاً. وعندما دخل إليك ليودعك ويتزود منك بنظرة أخيرة وصل إلى مسمعه عواء ذئب ضال. وقال أبوك: ما أجملها طبيعة هذه البلاد. إنها طبيعة رقيقة صريحة كل شئ فيها واضح ومكشوف. إنها لا تخفى شيئاً، كأنها غلالة شفافة تفصح عن كل ما وراءها من أشياء، ومن أصوات. هل يا ترى سأجد هناك هذه الرقة، وهذه الشفافية، وهذه الصراحة؟ أبداً إنها شئ من مميزات الحياة هنا، ولا يمكن أن تنافسها فيها حياة أخرى، فى القاهرة أو المدن الأخرى".

وتصور "مدثر" ما كان يقوله أبوه، وأحس أن أصوات هذه البلاد تتردد فى أذنيه حتى لتملأ مع أذنيه، عينيه ووجدانه كله.

●●●

إن الأصوات هنا، لا تقل جمالاً عن الألوان والأشكال.

● هدير الماء، وهو يختنق عند باب كلابشة، كأنه الاستغاثة.

وانسيابه رقراقاً صافيا عندما يستريح، بين الشطآن الحانية، كأنه همس العشاق، ولمساته الرقيقة لأحجار الشاطئ، كأنها محاورات عتاب.

وصمته عندما تنحسر المياه، فلا يبقى منها فى بعض الأحيان، إلا شريط صغير محصور بين رواسب الطمى، كأنه استسلام المغلوب.

● وأصوات السواقى فى شهور الصيف وهى تدور فى انتظام، تسابق الزمن، قبل أن يفاجئها ارتفاع منسوب الماء، فيغرق الزراعات، وقد لا يعفيها هى، من قضاء يتكرر كل عام، أغلب شهور العام.

● وأصوات متقطعة كالأنين تصدر عن الشواديف، وهى تعمل متقطعة الأنفاس فى رفع الماء إلى الأرض المشوقة إلى الاخضرار.

● ونقيق الضفادع فى ظلمات الليل البهيم، وهى تنفصل تارة وتتصل تارة أخرى، لكنها فى كل الأحوال، توحى بمعنى الليل وما فى الليل من أسرار.

• ومع إشـراقـة كل صـبـاح، ترتفع زقـزقـة العـصـافـيـر فى مرح وفرح بالشروق.

• بل وقبل الشروق تتردد أصوات الكروان كالدعوات.

• وصـرير الريح فى الربا، ومناجاته للرمال فى الوديان، وانفعالاته عندما يتلاقى بأشجار السنط والدوم والنخيل.

• وفـحـيح الأفـاعى كـالهـجـيـر. وصـوت كنقـر رءوس الدبابيس، عنـدمـا تتـسلل العـقـارب تحت الأرجل وبين الصخور، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب فى جناح ليل بهم.

●●●

واختلطت هذه الأصوات فى سمع "مدثر"، بصوت جده المخنوق، وهو يكمل له قصة أبيه:

"وذهب أبوك يا "مـدثر" كـمـا ذهب كل شـبـاب القـرية، يبحثون عن الرزق، بعد أن جفَّ معين هذه البلاد، وصعدنا بالبقية الباقية من الصبر والقناعة، إلى أعلى قمم الجبال.

" ولم يكن لدىَّ من الأولاد الذكور إلا أبوك. تزوجت ثلاث مـرات، فكان هـو النصـيب الوحـيـد فى حـيـاتى منهـا. لهـذا شعرت وهو يفارقنى أن قلبى يقفز وراءه، يتمنى لو استطاع أن يستبقيه. وحاولت أن أحافظ على هدوئى أمام أهل

الناحية، وقد تجمعوا حولى يودعون معى الراحل العزيز. لكنى أخفقت فى المحافظة على هدوئى، وهو يستقل المركب فى طريقه إلى أسوان، فأمسكت به، وضممته إلى صدرى، وسالت منى الدموع غزيزة، بلا وعى ولا إدراك.

"وبكى أبوك يا "مدثر" لكنه تمالك نفسه وقال فى صوت تخنقة العبرات:

" لا تبك يا والدى. إنى سأكون على صلة دائمة بكم، والله يعيننى على أن أعوضكم عن هذا الجفاف الذى تكابدون. الله يسامح من كانوا السبب فى هذا الفراق. الله يسامحهم ".

" وأوصانى بك وبأمك، ومضى مع بعض شباب القرية إلى طريق طويل.

" ولم أستطع أن أعود إلى البيت فى تلك الليلة.

" لاأدرى ماذا أصابنى، لكنى شعرت بانقباض خفى يقتحم حياتى.

" شئ فى ضميرى حدثنى بأننى لن أراه بعد ذلك أبداً.

" ولم يكن أمامى إلا شاطئ النيل، أجلس إليه أناجيه، وأسأله أن يترفق بقلبى المحطم المغلوب. كنت كالثكلى أمام قبر وحيدها.

" وعـجـز الناس عن حـملى على أن أعـود إلى الدار، فقضوا معى تلك الليلة على الشاطئ الغادر، الذى خطف منا "حسين" أباك، ونحن فى أشد الحاجة إليه.

" وظل الخـاطر الحـزين يراودنى حـتى وصلتنا من أبيك أول رسالة:

" وصلت القـاهرة بعـد رحلة طويلة. زرت جـامع سـيدنا الحسين، كـمـا زرت السـيدة زينب، وسـائر أولياء الله. لقـد قرأت لكم فى كل زيارة الفواتح، وسألت الله أن يجمعنا عـما قـريب، فـى سـعـادة ورضـاً. صـحـتى على مـا يرام، ولا أزال أبحث عـن عـمل، لأتمكن من إرسـال حـقكم علىَّ فى أول كل شهـر. إن القاهـرة مـدينة كبيـرة مزدحمـة بالسيارت والعربات الحنطور والعـربات الكارو والباعـة الجـائلين. إن مـبـانيـهـا شـاهقـة، وشـوارعـهـا مُرصـوفـة، ونسـاءها سـافـرات. لكن "كلابشة" أجمل من كل هذه المدينـة الزاخرة بالنهار، الساهـرة بالليل. إن نجـوع كـلابشـة، وصـخـورهـا، ومبـانيهـا البسـيطة، أبدع من كل شئ أراه فـى القـاهرة، ولولا أننـى هـنـا بـأبنـاء النوبة فـى مقـر الرابطة فى مـيدان عـابدين، لما استطعت الحياة فى هذه المدينة ".

" وقال أبوك فى رسالته:

" كيف يا ترى حال ابنى الجميل " مدثر "؟ هل يا ترى يعرفنى؟ على كل حال فإن الذى يطمئنى عليه أنه معك يا أبى. إنى أحبه وصورته الجميلة لا تفارق عينىَّ. قبله يا أبى مرات، وعندما يكبر قل له إن أباك يحبك ولو لم تدفعه الضرورة إلى فراقك، ما تركك يوماً واحداً.

" وكيف حال أمى؟ وكيف حال زوجتى؟ والجيران؟ والأصحاب، وجلسات السمر فى ليالى القمر؟

" هل لا تزالون تجتمعون كل مساء تتحدثون وتسمرون وتشربون الحلبة والشاى؟ "

وختم أبوك رسالته الأولى، بأنه سيرسل إلينا الرسالة القادمة، بعد أن يكون قد عثر على عمل يحميه ويحمينا معه.

●●●

" لقد كانت هذه الرسالة الأولى هى دوائى، بعد أن استبدت بى آلام الفراق، وعندما قرأوها لى حفظتها كما ترى، ثم ذكرت أباك، وهو طفل صغير، مثلما كنت أنت يوم تركك، وذكرته وهو يشب إلى جوارى وفى أحضانى حتى

أصبح غلاماً جميلا تتلهف إليه البنات، ثم ذكرته وهو شاب وسيم تتطلع إليه قلوب العذارى، ثم وهو زجل تتمناه كل عرائس النجوع".

ويشرد "الريس غلاب" وتتوه نظراته فى مياه النيل، ثم يستأنف الحديث:

" ويظهر أن أيام أبيك الأولى فى القاهرة لم تكن سهلة. إنه لم يذكر شيئاً عن هذا فى رسائله، أبداً. لقد كان يتعمد أن يبدو ضاحكاً وسعيداً حتى لا ننزعج عليه. لكن للوالد يا "مدثر" إحساساً خاصاً يجعله يشعر بما تنطوى عليه نفس ابنه من خلجات، مهما حاول إخفاءها. وكنت أشعر أنه متعب وحائر. وكم كانت قاسية علىَّ تلك الليالى الطوال التى كنت أراه فيها ممزق الثياب، أو أشعث الشعر، أو حافيا فى الطريق وعلى خديه دموع. فى بعض الليالى يا "مدثر" كنت أصحو من نومى، ودموعى على خدى، لما كنت أراه عنه فى منامى. لقد عمل بائعاً للصحف، وعمل حمالا فى محطة السكة الحديد وعمل صبياً فى متجر، ثم وفق أخيراً إلى أن يعمل فراشاً فى قصر العينى. وعندما استقرت به الحال فى عمله الجديد، أرسل إلينا يخبرنا. كانت سعادته فوق ما كنت أتصور. لقد كتب أول رسالة، مع أول دفعة من النقود، أخذ

نفسه بإرسالها إلينا مع الأيام الأولى من كل شهر. إنى لازلت أذكر سطورها كما أذكر رسائله الأخرى.

●●●

" لقد فرجها الله يا أبى. ابنك "حسين" أصبح الآن فراشاً فى قصر العينى. هذا يا أبى هو أكبر مستشفى بالقاهرة. فيه أطباء وممرضات إنجليزيات وممرضات مصريات ويدخله كل يوم مئات المرضى، وعملى فيه مريح، والحالة أصبحت والحمد لله مستورة. ماهيتى ثلاثة جنيهات فى الشهر يا أبى، غير الطعام والملبس. سأرسل لكم مع أول كل شهر جنيهين ونصف جنيه، وأحتفظ لنفسى بنصف جنيه فإنه يكفينى ويزيد. ولولا أنى قررت أن أدخر أجرة الحضور إليكم مرة كل عام، ما أبقيت لنفسى شيئاً. أنا لا أريد إلا مساعدتكم ورضاءكم. سأزور سيدنا الحسين وأقرأ لكم جميعاً الفاتحة".

"وأرسلت إليه يا "مدثر" أسأله أن يحجز لنفسه جنيهاً كل شهر، فإن جنيهين هنا كافيان لنا، ولكنه أصر على ألا يحتفظ لنفسه إلا بنصف جنيه.

"وعشنا يا "مدثر" نعد الأيام والليالى، مشتاقين إلى اليوم الذى يعود فيه أبوك إلى كلابشة. ويراك ويرى أمك وأراه

أنا وتراه جدتك، فتكتحل بمرآه عيوننا التى جفت من دموع الفراق.

"كتب إلينا يقول إنه لم يستطع أن يحصل على إجازته إلا فى شهر نوفمبر من عام ١٩٣٥.

"وأخذنا نعد أنفاسنا وهى تتردد فى انتظار هذا الشهر العظيم.

"وكنا نجلس ونتحدث عنه، وعن أوبته بعد أكثر من عام، وكيف ستفاجئنا باخرة البوستة السودانية ذات يوم بصفيرها عند المرسى، ويثب منها رجل جميل، فنتطلع لنجده هو: "حسين".

"وكادت اللهفة على شهر نوفمبر تقتلنا يا "مدثر".

"وجاء شهر نوفمبر، فأخذنا نترقب اليوم الذى يصبح فيه الحلم حقيقة.

"مضى يوم وعيوننا متعلقة بالشاطئ.

"ومضى يوم آخر وقلوبنا ملهوفة لعودة الغائب العزيز.

"ومضى يوم ثالث وآذاننا معلّقة بصفير البوستة السودانية.

"ومضى يوم رابع ودموعنا محبوسة فى مآقينا.

"ومضى يوم خامس، وسادس، فكدنا لولا رحمة الله ننفجر من اللوعة والفزع.

"ومر شهر نوفمبر كله، ولم يعد أبوك.

"وأقبل أول ديسمبر من عام ١٩٣٥، فلم تحمل إلينا أيامه الأولى رسالته المعتادة.

"وكان العزاء الوحيد الذى نستطيعه، هو أن نوهم أنفسنا أنه قد يكون فى الطريق إلينا بنفسه، وبلا حاجة إلى رسالة تسبقه.

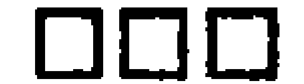
"لكنه لم يعد يا "مدثر". أبداً لم يعد، ولن يعود.

"عاد رفاقه من أبناء كلابشة إلى ذويهم أما هو فكان قد ... مات.

"ولم يكن وهماً أنا كنا نشعر بانقباض الموت يخيم على قلوبنا.

"على أنهم أرادوا أن يخففوا عنا الفجيعة، فأضافوا إلى خبر موته، أنه مات شهيداً !! كأنما الشهيد يعود !!

"وأحسسنا أنه لم يبق لنا منه ... سواك.. "



(2)

كانت قصة "حسين" جديدة على حياة كلابشة، وعلى النجوع المتفرقة فى بطن الجبل، حول شاطئ النيل.

وصعب على البلدة المسالمة أن تفهم هذه القصة أول الأمر، لكنها استوعبتها أخيراً، وعاشت فى كل حرف من حروفها.

"طاهرة" الأرملة المصابة، كانت ترددها لكل الزوجات، كما كانت ترددها لنفسها، إذا لم تجد من يسمعها منها.

"رحمة" الأم الثكلى، كانت تحكيها لكل الأمهات، كما كانت تحكيها لنفسها إذا لم تجد من ينصت إليها.

"والريس غلاب" كان يرويها لكل الرجال، كما كان يرويها لنفسه، إذا لم يجد من يرهف سمعه إليها.

وانتشرت القصة فى كل النجوع، وخرجت من كلابشة لتصبح رواية تتداولها الألسنة فى بلاد النوبة كلها.

●●●

لقد كان "حسين" المسكين على موعد مع القدر، عندما التحق بالعمل فى قصر العينى.

وساعدته قوة أخلاقه، وجمال وجهه، واستقامته، والبسمة الراضية دائماً على شفتيه، على أن يكسب قلوب الناس، فأحبوه جميعاً ووثقوا به.

واختاره أطباء الامتياز ليعمل فى المسكن المخصص لهم بهذا المستشفى الكبير.

كانوا يحبون أن يسمعوا لهجته المحببة على نفوسهم، وكثيراً ما كانوا يداعبونه، فلم يكن يقابل هذا المزاح، بغير ابتسامة شفافة، تكشف عن نفسه الطيبة.

وكان نشطاً فى عمله، مخلصاً وأميناً.

وعندما كان يحكى لهم عن حياته وحياة أسرته فى النوبة، وعن أبيه وعن ابنه الرضيع، كانوا يستزيدونه علماً بهذه الدنيا الغامضة، ويسألونه أن يصف لهم بلده فى تفصيل، فكان يجد فى الرواية لذة تعوضه ما يقابله من لهفة إلى العودة، ليرى أجمل بلاد الدنيا، وأجمل أطفال الدنيا أيضاً.

ويقولون له: لكن متى تعود لتراهم؟

فكان يقول: فى نوفمبر يا سيدى.

وكثيراً ما كانون يداعبونه، فيوهمونه بأنهم سيطلبون تأخير إجازته، فكان يقطب حاجبيه فى أسى وهو يهز رأسه منكراً أن يكون هذا تقديرهم لخدماته.

لكنهم سريعاً ما كَانوا يعودون فيؤكدون له أن أحدهم لن يجرؤ على أن يطلب هذا الطلب.

وجاء شهر نوفمبر من عام ١٩٣٥.

وكانت إجازته تبدأ مع منتصف الشهر.

لكن الشهر بدأ فى لون الدم، أحمر قانياً.

إن الدنيا كلها تتحدث عن خطورة ما يواجه البلد من أحداث.

وسمع "حسين" أطباء الامتياز يدبرون خطة احتفال كبير "بعيد الجهاد" يوم ١٣ نوفمبر.

لكنه كان مشغولاً بما هو أهم، فإن عيده هو، يوم ١٥ نوفمبر عندما يركب القطار فى طريقه إلى أسوان ليستقل منها باخرة البوستة السودانية، فى طريقه إلى أحب مكان له فى دنياه: كلابشة.

وفى يوم ١٣ نوفمبر بكر الأطباء الشبان بالخروج، وقد عقدوا العزم على احتفال لم تعرف له البلاد مثيلاً وعرف منهم أنهم ذاهبون إلى الجامعة، ليلتقوا بزملائهم من الخريجين والطلاب، وليعقدوا مؤتمراً وطنياً كبيراً.

لكنهم لم يعودوا فى الموعد الذى اعتادوا أن يعودوا فيه.

وانتظرهم، فلما طالت غيبتهم، بدأ يشعر بالقلق عليهم.

وفى منتصف الليل لم يعد إلا أقلهم، وهم يزفرون بالغضب والتعب معاً.

كانت وجوههم ممتقعة، وعيونهم حمراء، وملابسهم ممزقة، وأصواتهم مبحوحة.

فلما سألهم عن زملائهم قالوا له: فى السجون يا "حسين" أخذوهم إلى السجون. اعتقلوهم.

ولم يفهم لذلك سبباً، لكنه أدرك، وقد سمعهم يتحدثون عن قوات البوليس وعن الضباط الإنجليز، وعن طلقات الرصاص، وعن الشهيد الذى سقط، وعن الجرحى وعن المعتقلين، أنهم وضعوا فى السجون، لتتفادى الحكومة نشاطهم الوطنى.

لكن عقله الساذج لم يتصور مع هذا سبباً لكل ما يتحدثون عنه. لماذا تفعل الحكومة بهم هذا؟

كل ما شعر به أن هؤلاء الشبان فى خطر، وأن الحكومة تتعقبهم، وأنهم لن يسكتوا أبداً عن الجهاد، ثأراً للشهداء، وانتقاماً للوطن.

وأحس عطفاً عليهم، وتمنى لو يستطيع أن يساعدهم.

إن الحكومة التى تضطهدهم، هى نفسها الحكومة التى أغرقت بيت ذويه وزراعتهم، فاضطر تحت ضغط الحاجة على أن يفارق الأهل والزوج والصديق والولد، جرياً وراء القوت.

لكنه عاد ينطوى على نفسه، وهو يهز رأسه إشفاقاً عليهم، راجياً من الله ألا يصيبهم سوء، أو يلحق بهم أذى.

لكن ما حدث يوم ١٣ نوفمبر، تكرر يوم ١٤ نوفمبر.

وعندما عاد الأطباء فى ساعة متأخرة من الليل، كان عددهم قد تناقص عن اليوم الذى سبقه.

وجاء يوم ١٥ نوفمبر، وكان "حسين" قد أعد كل شئ. لكنه تردد فى أن يترك أصدقاءه الأطباء هكذا يتناقصون يوماً بعد يوم.

وقرر أن يؤجل إجازته، حتى يطمئن عليهم.

وعندما أبلغهم هذا القرار، دمعت عيونهم من التأثر، وأدركوا أنهم يستطيعون أن يعتمدوا عليه.

وكان "حسين" يتمنى ألا يطول هذا التأجيل أكثر من أسبوع، ولم يكن يظن أنه سيطول إلى الأبد، فقد كان يوم ١٩ نوفمبر من ذلك العام يوماً مشهوداً فى حياته.

لقد عاد الأطباء الصغار، بجريح تنزف منه الدماء، وما أن قضى فى المستشفى يومين حتى مات فأخفوا جثته فى بيت أطباء الامتياز.

وفزع "حسين" للمنظر الذى رآه، لكنهم قالوا له إنه شهيد، وقد قتله المجرمون الخونة، وهو يقود مظاهرة على كوبرى عباس.

وانتقل إليه شعورهم الجاف، بكل ما فيه من حرارة.

وشعر معهم أن عليه أن يخاصم الحكومة والإنجليز ورجال البوليس.

ألم يكفيهم أن أهله هناك فى كلابشة ساكتون، مستسلمون؟

هل تصل الجرأة بهم إلى درجة القتل؟

●●●

وكانت مهمتة أن يعاونهم فى إخفاء جثة الشهيد، حتى يدبروا أمرهم مع الزعماء المتخاصمين، ومع الأحزاب المتنازعة، لتتكون منهم جبهة واحدة تواجه المحتلين.

وأخفى "حسين" الجثة، وأخذ يعمل معهم طول النهار وطول الليل على ألا يتسرب أمرها لأحد.

وكان رجال البوليس دائمى التفتيش هنا وهناك.

وفكر الأطباء فى تخفيف حدة هذا التفتيش فدبروا حيلة يصرفون بها البوليس عن هذا المكان.

وأعدوا قارباً فى النيل خلف قصر العينى، كما أعدوا غطاء فى شكل جثة، وعمدوا إلى يتحينوا فرصة رقابة البوليس لينزل أحدهم بالجثة الموهومة إلى القارب، ويمضى بها فى فرع النيل الصغير إلى أقرب مكان على الشاطئ، ثم يحملها إلى أحد البيوت ويختفى هناك.

حينئذ يظن البوليس أن الجثة نقلت إلى ذلك البيت، فيتعقبها، فى حين ينقلون هم الجثة الحقيقية إلى مكان آمن، لا تثور حوله الشكوك.

ووقع اختيارهم على "حسين" ليتولى هو مهمة تضليل البوليس بالجثة الموهومة.

لكنه فوجئ بقوة كبيرة تطارده، فأراد الإمعان فى تضليلها بأن حمل الجثة ووثب بها إلى الشاطئ فى قوة. وكاد يختفى بها عن عيون المطاردين، لولا أن لحقته رصاصة أودت به قتيلا.

وذهب شهيداً هو الآخر.

وأجل أوبته وإجازته، إلى أجل لا ينتهى.

وغاب عن أرض النوبة إلى الأبد.

●●●

ويروى "الريس غلاب" القصة كل يوم مرات.

وفى كل مرة يرويها، تسقط من عينيه الدموع، ويضعف صوته حتى لينحبس فلا يسمع.

وعندما يعود إليه صوته، متهدجاً ضعيفاً، نسمعه يقول: اللهم لا اعتراض. إنه قضاؤك وقدرك، ألهمنا فيه الصبر والسلوى.

كذلك كانت الأرملة الصغيرة "طاهرة" ترفل فى ثياب الحداد البيضاء، وحولها جاراتها وقريباتها فى ثيابهن البيض، وهى تروى الحكاية كل يوم مرة بعد مرة بعد مرة، فلا تحس أنها معادة أو مكررة، وفى صوتها زفرات.

وتختم الرواية كل مرة، وهى تقول: حتى قبرك يا زوجى الحبيب، أصبح مستحيل المنال ! أين أسفح دموعى إن لم أسفحها عند قبرك؟ ! أين أمرغ خدى، إن لم يكن فى التراب الذى دفنت فيه؟! لكن حتى هذا حرمونى منه !!

وتجلس "رحمة" الأم الثكلى فى ركن قصى، لا تفتح فاها بكلام، بعد أن تكون من فرط ما قالت، قد فقدت القدرة على الكلام، إنها تنظر، وتسمع، وتبكى، وتنتحب، وتدفن رأسها فى هذا البياض الذى يجللها، وهذا حسبها !

على أن "لرحمة" مهمة أخرى، هى الصغير الباقى "مدثر".

إنها تضعه فى حجرها وتطيل النظر إليه، تستعيد فى ملامحة العذبة، طفولة أبيه.

لقد كان هكذا تماماً. عيناه كانتا تبرقان بالأمل. أنفه كان ينتفض بالانفعالات. يداه الصغيرتان كانتا تداعبان خديها فى نزق. سمرته الحبيبة كطمى النيل كانت تروى قصة هذه البلاد، وألوانها وأشكالها. صوته عندما يضحك، أو عندما يبكى كان النداء العذب بالصبر والرضا والقناعة.

وتهز الجدة رأسها، ودموعها تترقرق بين مآقيها، خائفة على الولد، أن يكون مصيره مثل مصير أبيه. إنها تضمه إلى صدرها لتفديه إن استطاعت هذا الفداء.

●●●

وتمضى بالأسرة المنكوبة، وبنجوع كلابشة الأيام، ولكنها لا تستطيع أن تغطى الجرح الكبير الذى لا يندمل، بفقد زينة شباب كلابشة: "حسين" المسكين.

ويحاول "الريس غلاب" أن يعمل فى قطعة أرض إلى جوار نجع نصر الدين، حيث ولد وعاش عمره ليوفر لأسرته القوت.

إن المدد الذى اعتاد أن يصله من ابنه الوحيد قد انقطع، وأصبح عليه أن يعمل ليعيش.

لكن الأرض قد أصبحت محدودة، وهى فضلا عن ذلك تغرق أغلب شهور العام.

وحتى أسرته لم تعد تكفى لسباق مياه النيل، فإن زوجته قد ضعفت، وأصبحت عاجزة عن العمل، والأرملة الشابة، لم تعد وحدها قادرة على هذا السباق، والحفيد الباقى له لا يزال محتاجاً إلى الرعاية والعناية، فلا يمكن أن يعتمد عليه.

ولقد وجد " الريس غلاب" أول الأمر معاونة صادقة من كل نساء البلدة ورجالها.

لكنه أحس أنه سيصبح عبئاً دائماً عليهم، يعطلهم عن السباق الذى فرضته عليهم طبيعة بلادهم بعد التعلية الثانية

للخزان، واقتصار موسم الزراعة على شهرين أوثلاثة، فقرر أن يبحث لنفسه عن مورد آخر للرزق.

واستخار الله، فباع كل ما بقى لديه من متاع ومن ماشية، ثم قرر أن يبنى لنفسه مركباً شراعياً يستخدمه فى الصيد، فقد يكون الرزق فى بطن الماء، أوسع منه على ظهر الأرض، ولن تستطيع الحكومة أن تختصر من الماء، كما استطاعت أن تختصر من الأرض.

وذهب "الريس غلاب" بما تجمع لديه من نقود، إلى بعض من ذوى قرباه، فى نجع الشيخ عمر، ليطلب إليهم أن يبنوا له مركباً شراعياً، يبحث به عن رزقه ورزق أسرته.

وكان أقرباؤه هؤلاء، قد اختصوا بصناعة المراكب، على اختلاف أحجامها.

وأخذ "الريس غلاب" يذهب إليهم كل صباح، ليستحثهم على العمل فى بناء المركب، وكان "مدثر" قد بدأ يخطو فى مرح، وكثيراً ما كان يمسك بجده، ليصحبه إلى حيث يذهب كل يوم، فلم يكن الجد يرضى له بالسير الطويل بين الجبال، فى طريق ملتوية، تنخفض فى الوديان وترتفع فى الروابى، حتى إذا ما وصلت إلى باب كلابشة فى الجنوب، كان لابد

من أن تدور حول الجبال المرتفعة والسوداء، لتعود فتنحنى بالقرب من الشاطئ، حتى تصل إلى نجع الشيخ عمر.

لم يكن الجد يرضى لحفيده، هذه الرحلة الشاقة فى هذه السن الصغيرة، لكنه لم يكن يرضى له كذلك أن يبتئس، فكان يحمله بين ذراعيه، ليقبله وليعده بأنه سيصحبه بعد ذلك دائماً فى رحلة الحياة.

وعندما كان الطفل يصر على أن يصحب جده، كان يحمله على كتفيه إلى هناك، ليرى معه المركب الجديد وهو يبنى قطعة قطعة، وكيف يركب له بعد ذلك الشراع، وتثبت له المجاديف، وتعد له الدفة، لتحركه ذات اليمين وذات اليسار.

وكان الطفل الصغير يسأل جده أسئلة ساذجة:

– ويعود كالسمكة؟!

– نعم يعوم كالسمكة يا "مدثر".

– وهلا يأكله السمك؟

– لا يا ابنى، بل هو الذى يجمع لنا السمك.

– لنأكله يا جدى؟

– لنأكله ونبيع منه أيضاً.

- لكن كيف نمسك بالسمك يا جدى؟

- سيكون لنا شباك يا "مدثر" فيها طعم، فلما يدخلها السمك نمسك به.

- فإذا نقص السمك ؟! إذا لم نجد سمكاً، ماذا نأكل؟

- فى النهر سمك دائماً يا "مدثر". إن رحمة الله واسعة.

- وهل ستأخذنى معك يا جدى فى المركب؟

- وهل ستساعد فى صيد السمك؟

- طبعاً يا جدى، طبعاً. سأصيد لك سمكاً كثيراً جداً.

- لكنك صغير يا "مدثر".

- أنا أكبر من السمك يا جدى. انظر. هل هناك سمكة مثلى؟

- إذن سأصحبك معى دائماً. سأعلمك صيد السمك حتى إذا ما كبرت مضيت أنت تعمل من أجل الأسرة بدلاً عنى.

ويصمت الشيخ العجوز وهو يستعيد أيام ابنه "حسين" ويترحم عليه، فقد كان يمكن أن يعفيه ويعفى هذا الصغير من هذا العناء.

●●●

وعندما تتم إقامة المركب، يشعر "الريس غلاب" أن كابوساً ثقيلاً قد انزاح عن قلبه فقد كان دائم التفكير فى قسوة الحياة التى بدأت الأسرة تتعرض لها، والخوف من أن يفاجأوا ذات يوم لايجدون اللقمة الجافة يملئون بها بطونهم.

وعندما تمت تجربة المركب، واطمأن إليه أقرباؤه، كان معه "مدثر" فكادت فرحة الطفل الصغير، تبدد مخاوفة من المستقبل. لقد فرح "مدثر" بالمركب فرحاً شديداً وجرى نحو الشاطئ يريد أن يركب هذا الشئ الذى يعوم كالسمكة.

وكانت الرحلة الأولى "للريس غلاب" و"مدثر" أن استقلا المركب إلى الشمال، فى طريقهما إلى نجع نصر الدين، حيث البيت الذى تعيش فيه الأسرة الصغيرة الفقيرة.

لكن أقرباء "الريس غلاب" أبوا أن يتركوه والطفل وحدهما فى الرحلة الأولى لهما.

قالوا له إن العبور من باب كلابشة، ليس سهلا، فإن أمهر الملاحين يحذرونه.

وصح ما قاله الأقرباء، فلو أنه وحده لما استطاع أن يعبر بالمركب الجديد هذه التيارات المندفعة السريعة ويصل إلى بيته فى أمان.

وكـان "مـدثر" طول الرحلة ـ على قـصـرها ـ سـعـيـداً بالمركب، والشـراع الأبيض الجـميل، وهو يمـتلئ بالريح يشـد قامته فى كبرياء.

ومع خيوط الفجر، من اليوم التـالى، بدأت أولى رحلات " الريس غـلاب" والطفل الصـغير، ليصـيد السمك حول نجع نصر الدين.

وكـان المنظر بديعـاً وصـافـيـاً، والطبـيـعـة هـادئة ووادعـة، وبقايا جدران المعبد وأعمدته وأسقفه، كأنها تعوم فوق سطح الماء.

وأخـذ "مدثر" يوزع نفسـه بين هـذا الجـمـال الفـريد، ينظـر إليـه فـيـرى فـيـه الأمن والطمـأنينة والسـلام، وتوحى إليـه أصـوات الطيـور ذات الألون، وهـى تثب فوق أغـصـان الشجـر، وتلهو فـوق صـخـور الشـاطئ باليـوم المشـرق الجـديد ومـا فـيـه من صـفـاء وأمل.

ويتطلع "مدثر" على المـركب الجديد معجباً فخوراً، يتأمل كل جزء من أجزائه فى فـرحـة تغـمـر نفسـه، وتمـلأ جـوانحـه، وتكاد تفيض عن قلبه السـاذج الصـغير.

وينظـر إلى جـده وقـد انهـمك فى إلقـاء الشبـاك، وأخـذ ينتظر فى صبـر وهو يرقب هذه المرحلة من مـراحل الصـيـد،

وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، وفى قلبه أمل يكاد يشع من عينيه.

ومرت ساعة وساعة وبعض ساعة، والرجل العجوز منهمك فى عمله، يشد أطراف الشباك بين الحين والحين، ليدرك مدى نجاحها فى اجتذاب الصيد الذى عاش ينتظره هذه الشهور.

ويبدو الرجل مشغولاً بشباكة تارة، وبالمحافظة على توازن المركب الصغير تارة أخرى "وبمدثر" تارة ثالثة، وهو بين الفينة والفينة يسأل نفسه أسئلة مكررة تعبر عن لهفته على ما تسفر عنه هذه الرحلة الأولى.

وفجأة، والنهار يطرق باب الكون إلى الظهور، والشمس تخطو خطواتها الأولى فى رحلة يوم جديد، يبدأ "الريس غلاب" يشد الشباك إليه داخل المركب الصغير.

وتبدو أول ما تبدو ألوان السمك، بأحجامه المختلفة، وهى تسطع فى هذا الجو الساحر، وقد أخذت تتواثب فى قفزات تحددها الشباك، فلا تمكنها من العودة إلى الماء.

وصاح "مدثر" معجباً بجده، وبهذه البراعة التى أسفرت عن هذا السمك الجميل.

وكلما كان "الريس غلاب" يشد الشباك، كانت كمية السمك تزداد، وألوانه المختلفة تخطف بصر الصغير الفرح بما يرى.

ولما انتهى "الريس غلاب" من شد الشباك، كانت كمية السمك التى صادها ليومه هذا، قد ملأت أرض المركب، فجلس إلى جوارها يحمد الله، وقد ملأت وجهه الفرحة الغامرة، ونادى "مدثر"، ليقبله قبلة طويلة وهو يصيح:

- هذا رزقك يا "مدثر". ربنا يوسع رزقك دائماً يا ابنى.

وصاح "مدثر" فى جده:

- هذا كله لى يا جدى.

وقال الجد:

- نعم لك يا ابنى. هل لى سواك يا "مدثر"؟

وأخذ "مدثر" يصيح صيحات بلا معنى، إلا أنها كانت دلالة الرضا والفرح والبهجة جميعاً. وعندما غادر "الريس غلاب" المركب، كان يحمل تحت إبطه كمية كبيرة من السمك، و"مدثر" يجرى خلفه والبسمة السعيدة تملأ وجهه كله.

واستقبل الناس "الريس غلاب" مهنئين مباركين. لقد كانوا يحبونه حباً شديداً، وزادت مكانته فى قلوبهم بعد أن

فقد ابنه الوحيد "حسين"، وبعد أن أخذ يكافح وحده دون جدوى، فاتجه إلى الماء يبحث فى باطنه عن رزق يكفيه ويكفى الأسرة البائسة.

ولقد منَّ الله على "الريس غلاب" بعدد من البواخر المسافرة، فاستطاع فى يومه هذا أن يبيع ما صاده كله، فلم يبق منه إلا بضع سمكات، شواها "مدثر" وأكلها وهو هانئ سعيد.

●●●

وهكذا أصبحت حياة "الريس غلاب" منذ ذلك التاريخ.

صيد فى النصف الأخير من الليل، وبحث عن مشتر فى النصف الأول من النهار، وبعدها يهجع فى داره، بين أهله أو بين أصدقائه، فى سمر عذب جميل.

كذلك أصبحت حياة "مدثر" الصغير، مع جده حيث ذهب، يساعده فى الصيد، فإذا ما فرغ الصيد، أخذ يتطلع معه إلى صفحة النيل، يبحث عن مشتر للسمك الذى صاده جده.

وعندما كانا لا يجدان مشترياً، فإنهما كانا يعودان إلى الدار وهما يتبادلان نظرات مليئة بالرضا والقناعة والصبر والأمل.

وأخذ "مدثر" ينمو مع الأيام، فيزداد شبهاً بوالده، وتزداد بذلك مكانته فى وجدان الأسرة.

فلما أصبح فتى فارع العود، صافى البشرة، جميل الوجه، مفتول العضل، بدأ جده يمهد إليه بأمر المركب والصيد والبيع، ليعتاد أن يتحمل مسئولية الأسرة.

جده ينظر إليه فى أثناء رحلات الصيد، وهو يستعيد أيام ابنه "حسين".

وجدته تتطلع إليه كلما عاد، وتربع فى فناء البيت، وقد خيل إليها أنه..أبوه.. قد عاد!!

وأمه تملأ عينيها من قسماته، وتتذكر أيامها الحلوة مع أبيه، وكيف مرت سريعة كما تمر الأحلام.

ولقد كان "مدثر" بطبعه، طيباً شهماً يثير حب الذين يعرفونه، كما يكسب ثقتهم أيضاً.

ففضلاً عن وجهه السمح الصبوح البشوش، كان كعادة أبناء النوبة، قانعاً راضياً سهلاً كريماً.

وعندما شعر بأن المسئولية قد آلت إليه عن جده، تحول إلى طاقة كبيرة من العمل الدءوب المتصل، ليرضى جده، ويحمله على مزيد من الاطمئنان إليه.

لم يكن يكتفى بساعات النهار الأولى، لكنه أخذ يعمل طوال الليل، إلى جوار الساعات الأولى من كل نهار، ولا بأس إذا نام فى المركب الصغير فى بعض الأحيان. وشباكه منصوبة، ينتظر أن تمتلئ بالرزق الوفير، من المصدر الذى لا ينضب: رحمة الله.

ولم يعد نجع نصر الدين يراه، بعد أن يصلى العشاء. بعدها كان يذهب إلى البيت، لتضع له أمه بعض الزاد، فى مرجونة صنعتها له من سعف النخيل، ثم يمضى إلى الشاطئ، حيث يستقل قاربه ويمضى فى النيل، مرة إلى الجنوب، ومرة إلى الشمال، لينصب شباكه، وينتظر الرزق من عند الله. فإذا كان اليل قمراً، أخذ يستمتع بالطبيعة الفضية، تحيط به من يمين وشمال، وهو يحدث نفسه بأحلام سعيدة، ويغنى بعض الأغانى النوبية، لمحبوبة لا يدرى من تكون. وإن غاب القمر، غاصت نظراته فى الظلام به كرداء أسود، ثم أغمض عينيه فى نعاس، وقد تغطى برداء خفيف.

وعند منتصف الليل يبدأ يتحسس شباكه، فإن وجدها ثقيلة بالخير حمد الله وبدأ يجمع حصيلة الصيد الأولى، وإلا فإنه يمضى بالقارب هنا وهناك يتحسس مكاناً آخر يكثر فيه الرزق وتتكاثف فيه خيرات الله.

وعندما يطلع عليه الصباح يكون "مدثر" قد جمع محصوله من الصيد مرتين على الأقل.

لقد أصبح السمك الذى يصيده أضعاف ما كان يتوافر له مع جده.

وهو فى أثناء النهار لا يجلس على الشاطئ منتظراً أن تمر به البواخر. إنه يستقل القارب ليذهب به إلى حيث يجد الشارى لما صاد. إن وجد باخرة فبها ونعمت، وإلا فهو يذهب إلى بيت ضابط النقطة فى البر الشرقى يعرض خدماته أو بيوت العساكر أو بيوت الموظفين الذين أحضرتهم الحكومة فى بعض المهمات الثابتة أو الطارئة.

بل لقد عرف "مدثر" مواعيد مرور السفن المنتظمة فكان ينتظرها ،يبيع لبحارتها السمك فى الذهاب والعودة.

وقد كانوا يرتاحون إلى التعامل معه. لم يكن متشدداً ولا متعنتاً. كان يؤمن بأنه رزق أتى إليه من عند الله، والثمن الذى يقبضه منه، من عند الله كذلك، فكان يرضى به سعيداً مغتبطاً. لم يكن يجادل كثيراً فى الوزن أو فى الثمن، فكان لذلك موضع الارتياح، حتى لقد أصبح له زبائن ينادونه بالاسم كلما مروا به، يسألونه عما عنده من السمك.

وعندما كان يتأخر على بيت الضابط أو بيوت الموظفين كانوا يرسلون إليه يطلبون منه حاجتهم من السمك.

ورتب هذا "لمدثر" أن يكسب أضعاف ما كان يربحه جده.

وكان جده يضحك وهو يداعبه قائلا له:

- طبعاً يا "مدثر" هذه همة الشباب تغلب كسل الشيوخ. لقد كبرت يا "مدثر" وكان "مدثر" يجيب جده قائلا:

- بل هى بركتك يا جدى، وليس لى فى هذا كله فضل. أنت ربيتنى وعلمتنى، فإن كسبت شيئاً فهو منك يا جدى.

وكان جده يدعو له أن يحفظه الله من السوء ومن أولاد الحرام.

●●●

وذات مساء التقى "مدثر" بمركب شراعى قادم من الشمال وفيه اثنان من الصيادين، قدما من أسوان، يصيدان السمك ليبيعاه فى أسوان.

وأعجب الصيادان بالصياد الفتى، الذى لم يشبَّ عن الطوق إلا أمس، وساعدت طبيعة "مدثر" السمحة ورجولته المبكرة أن تزداد الروابط بينه وبينهما.

ولم يضايقه أبداً أن يقدم اثنان من الصيادين يشاطرانه الرزق فى مياه كلابشة.

إنه يؤمن أن الرزق من عند الله، وأن الله يوزع الأرزاق على خلقه، ولن ينال واحد إلا ما قسمة الله. وسواء جاءه صيادون من أسوان أو من غير أسوان، فإن رزقه لن ينقص ولن يزيد.

ومن خلال أحاديثهما معه، عرفا أن "مدثر" يبيع السمك، بربع سعره فى السوق فى أسوان.

وحاولا أن ينصحاه بألا يبيع السمك بهذا السعر المنخفض، فاستمع إليهما فى سذاجة، وعندما مرت بواخر الصباح لم يحاول الصياد الصغير أن يرفع السعر الذى يبيع به، فصاح فيه الرجلان:

– لكنهم يسرقونك.

قال "مدثر" وهو يضحك:

– لن يستطيع واحد أن يسرق ما قدره الله لك. إنهم من أجل هذا يشترون منى، وإلا فماذا يفيدهم لو انتظروا حتى يصلوا أسوان؟

وهز الرجلان رأسيهما وهما يشفقان على "مدثر" من نتيجة هذا التهاون.

قال أحدهما:

– إن الله لا يرضى أن تبخس قيمة ما منحك.

قال "مدثر":

– حاشا الله بل إننى أتيح للناس أن يأكلوا ما طاب لهم من لحم الماء. أأكون بهذا أبخس نعمته على؟ إنى لا أطمع فى الناس، ولو طمع فىَّ الآخرون. إن ما أحصل عليه من الناس يكفينى ويزيد. لماذا أرفع أسعارى إذن؟

على أن "مدثر" ارتبط بالصيادين وقامت بينه وبينهما على صفحة النيل فى كلابشة الصداقة، فكانا يجيئان إليه بين الحين والحين من أسوان، ليصيدا السمك من مياه كلابشة، وليريا "مدثر" الصياد الفتى، الذى يبيع السمك بربع قيمته، ليتيح للناس أن يا طاب لهم من لحم الماء!

على أن هذين الصيادين لم يكونا هم يدين اللذين يصيدان السمك فى مياه كلابشة. كان يحضر بين حين وآخر صياد من بلاد الصعيد، يقضى بضعة أيام يجوب الشواطئ بحثاً عن الرزق فى بطن الماء. غير أن علاقات "مدثر" بهؤلاء الصيادين كانت كلها عابرة أما علاقته بالصيادين الذين يقبلان عليه من أسوان، فقد كانت تقوى إلى درجة الصداقة والود والتعاون فى كثير من الأحيان.

وكان طبيعياً أن تمتد هذه الصداقة إلى "الريس غلاب" أيضاً، فزادت بهذا عمقاً وأثراً فى حياة "مدثر"، وحياة الرجلين كذلك.

●●●

وعرف "مدثر" من صديقيه، أنهما أولاد عمومة، تعيش أسرتهما فى جزيرة الفيلة فى أسوان، وأن لهما عدداً من الأقارب يعملون فى التجارة.

وتحدثا إليه عن ألوان التجارة التى يعمل فيها بعض أقربائهما.

البقالة بمختلف أصنافها، من الملح إلى اللحم المحفوظ.

والعطارة بكل دقائقها، من الشطة إلى نبات الحنظل.

والحبوب والأقمشة، والأوانى، وسائر البضائع الأخرى.

وبرغم أن ذلك كله، كان جديداً على "مدثر"، إلا أنه لم يعن بأن يعرف عنه شيئاً، إلا من باب الأدب والمجاملة لصديقيه.

نوع واحد من أنواع التجارة، استوقف "مدثر" طويلا، فأخذ يسأل عنه يريد أن يعرف عنه كل شئ.

التموين !! السكر والزيت والجاز !!

– الناس هنا يموتون بلا سكر أو زيت.

– وهذا كله فى التـمـوين. إنه يبـاع بـالبطـاقـة، ويسـمـر التموين.

– لكن نحن مثلا. ليس لنا بطاقة. كل نجع سيدى نصر الدين ليس لهم بطاقات. ونجوع كلابشة كذلك بلا بطاقات.

– هذا غريب. إن مصر كلها لها بطاقات.

– إلا هذه البـلاد ! ربما عدُّوها قـد غـرقت. نعم غـرقت. والغارقون كالموتى لا حاجة بهم إلى السكر والزيت أو الجاز.

– وهل هنا دكاكين لتوزيع التموين؟

– آه. هذا فـاتنى. ليس هنا دكاكين. ونحن نحصل على حاجتنا من البواخر.

– والبواخر تبيع لكم بسعر السوق السوداء.

– لكن أين يذهـب التموين المخصص لنا، تقولون إن لكل واحد تموينه. إذن لنا تموين خاص بنا، أين يصرف؟ ولمن؟

– لابد أنه يوزع فى السوق السوداء !

– إيه؟. سـوق سـوداء. يعنى صـرف لنا، وهنو يسـتـغل باسمنا، كأنما تسلمناه نحن، بالسعر الرسمى، فى حين ...

– يباع لآخرين بأضعاف أضعاف سعره.

- لكن هذه جناية.

- لكنها ليست الجناية الوحيدة يا "مدثر".

- وأهل النوبة يموتون من الجوع، وطرح البحر قد نقص إلى العدم، ولم يعودوا يزرعون إلا أسابيع كل عام.

- هكذا السوق السوداء يا صديقنا الصغير، بلا قلب ولا ذمة ولا ضمير. إن فمها مفتوح دائماً لمزيد، لا يهمها من جاع أو عطش أو مات.

- حتى لو أطلقوا على الميت اسم الشهيد.

وصمت الرجلان عندما وصلا إلى هذا الحد من الحديث، فقد كانا يعرفان من يقصد "مدثر" بالشهيد.

لكن "مدثر" مضى يقول:

- إننا فى نظر الحكومة منفيون، يغرقون أرضنا بلا تعويض، فتضطر إلى الهجرة. وأية هجرة؟ إن الهجرة ابتلعت أبى. والتموين يوزعونه على أهل النوبة على الورق، وما من واحد يهتم بأن يأتى إلينا يسألنا إن كنا حقيقة نحصل على هذا التموين، وكيف.

ويسكت "مدثر" قليلاً ثم يقول فى مرارة.

- على كل حال لقد أعفوا بهذا أهل النوبة من دفع ثمن التموين. فإنهم لا يملكونه !

قال صديقاه:

– ولماذا لا تفكر أنت فى توزيع هذا التموين؟

وسمع مدثر هذا الكلام، فلم يصدقه أول الأمر ثم أخذ ينكره ويستنكره، فإنها لمهمة صعبة، بل إنها مستحيلة.

على أن الصديقين قالا له:

– إن لديك قارباً شراعياً، وضابط النقطة هنا يحبك، ويستطيع أن يساعدك، وأنت تعرف نجوع كلابشة نجعاً نجعاً، وتعرف أهل البلد واحداً واحداً، فلماذا لا يعهد إليك بأن توزع أنت التموين على كلابشة، على أهل كلابشة، إنها خدمة تؤديها لأهل بلدك.

وأخذ الكلام يتسرب إلى اقتناع "مدثر" قليلا قليلا.

نعم لم لا؟ لماذا لا يخدم أهله وقومه؟ فإذا لم يفعل هو هذا، وهو شاب قوى وقادر على هذه الخدمة، وقد أنعم عليه الله بهذا القارب، فمن الذى يؤدى هذه الخدمة؟

وظهرت له الفكرة براقة ومغرية.

●●●

وفى الليلة التالية، وكان القمر بدراً، جلس "مدثر" متكئاً على حافة المركب الصغير وقد شرد فى أحلام بديعة.

هل يتحول هذا المركب إلى وسيلة من وسائل نقل التموين، إلى كل نجع من النجوع فى كلابشة؟

إنه سيبيع التموين بثمنه، ولن يضيف عليه شيئاً إلا مصروفات النقل ولا شئ سواه.

كل ما يهمه أن يحصل أهل كلابشة على حقهم فى التموين، بإنتظام إنهم الآن يشترون حاجتهم من السكر ومن الزيت، من البواخر المارة فى نهر النيل لكن من يدرى أى سعر تتقاضاه هذه المراكب، وهل هى أسعار التموين بالفعل، أم أنها أسعار السوق السوداء. وهم مضطرون إلى هذه الوسيلة، طالما أنهم لا يجدون وسيلة أخرى سواها.

وابتسم "مدثر"، وقد نوى أن يذهب فى غد، إلى حضرة الضابط يسأله أن يساعده فى الحصول على تموين أهل كلابشة، وتوزيعه عليهم.

وسيقسم له بالقرآن الكريم، أنه سيوزع التموين على كل العائلات فى كلابشة، فلا ينسى أحداً أبداً.

وأنه سيستعمل قاربه هذا الصغير فى التوزيع، خدمة لأهله وأبناء بلده، ولن يسألهم عن ذلك أجراً، إلا المودة فى القربى.

لن يتاجر عليهم. إنه يفكر فقط فى خدمتهم.

وتصور "مدثر" أن حضرة الضابط سيرحب بفكرته.

بل امتد به الخيال فتصور التموين يصل إليه بالفعل، وأنه يتولى توزيعه على نجوع كلابشة مرة كل شهر.

السكر والزيت.

هذا يكفى، فلا حاجة بنا إلى الجاز، إذا تعذر الحصول على الجاز.

السكر والزيت، فى كل بيت من بيوت كلابشة.

السكر والزيت، يصل بانتظام أول كل شهر، وبلا مشقة أو عناء.

السكر والزيت، يملأ كل مكان هنا فى هذه البقاع النائية.

السكر ... هذه الجبال ستصبح كلها من السكر.

الزيت.. وهذه المياه ستصبح كلها من الزيت.



(3)

هذا هو خور رحمة يا "مدثر".

أترى؟ إنه هناك فى النجع القبلى من الخور، الأمل الذى عشت عليه ومن أجله، أيامك الأخيرة.

هذه نقطة البوليس، وإلى جوارها المنزل الذى يقيم به حضرة الضابط.

إنه أكثر بيوت النجع زجاجاً.

بل إنه أكثر بيوت كل نجوع كلابشة زجاجاً.

بل إنه كذلك أحد المبانى النادرة هنا، التى يحلى الزجاج أبوابها ونوافذها.

وخلف الزجاج فى هذه المبانى الأميرية يضعون أحياناً، سلكاً رفيعاً جداً، لا يخفى شيئاً عمن داخل المبنى، فى حين يخفى كل شئ عمن فى الخارج،

يروننا من داخل مبانيهم، ولا نراهم نحن من خارج هذه المبانى!

وبدت على صفحة الوجه الصبوح علامات تشير إلى بعض الضيق، والريح تدفع الشارب الصغير داخل خور رحمة.

هل هذا المقصود؟

هل صحيح أنهم يريدون أن يروننا ولا تراهم؟!

أو يتجسسون؟

لكن لماذا؟ ماذا فعلنا ! ماذا نملك من قوة، حتى يضعوا هذا السلك ليرونا من خلاله ولا نراهم؟

مم يخافون هنا؟

لا شئ هنا، إلا النيل، وبضع نخلات صغيرات، وعدد من أشجار الدوم، وماشية جائعة، ورضاً، وصبر، ودموع.

أما هم: حضرة الضابط والعساكر فإن عندهم البنادق والعصى، ونفوذ الحكومة التى تستطيع أن تغرق البلاد، فلا يجرؤ أحد على أن يسألها ماذا فعلت، ولا كيف ولا أى مصير انتهى إليه الغرقى من أصحاب هذه البلاد.

هل تخاف البنادق دموع الغرقى؟

وهل يخشى الرصاص أنين المظلومين؟

وتظن أنك تستطيع أن تقنع هؤلاء الخبثاء بحق أبناء كلابشة فى التموين؟

أنت واهم وموهوم يا "مدثر". لقد كان وهماً، ذلك الذى عشت عليه أيامك الأخيرة، تتصور أن كل شئ سينتهى إلى ما تريد.

على أنه كان وهماً لذيذاً على كل حال، وليتك تستطيع أن تحيا على هذا الوهم بقية عمرك.

إذن كنت تستطيع عن طريق أوهامك أن تجعل هذه النجوع تتمتع بما تريده لها من مواد التموين، مرة كل شهر، بانتظام، وبالأسعار الرسمية التى حددتها الحكومة؟

ماذا يضيرك لو أنك توهمت، أن أحداً من هؤلاء الناس لا يدفع عن قرطاس السكر ثمن أقة كاملة؟!

وماذا يضيرك لو أنك توهمت أن أحداً من أهلك أبناء هذه النجوع، لا يحصل على قطرات من الزيت، بسعر زجاجة كاملة؟!

بل وماذا يضيرك لو أنك توهمت أن كل هذه الجبال حولك هى من السكر، وكل هذه المياه التى تنتشر حولها هذه النجوع، هى من الزيت؟!

أليس هذا وهماً لذيذاً، يعفيك من كل هذا العناء؟ بل ويغنيك عن هؤلاء الذين يضعون وراء نوافذهم سلكاً رفيعاً يرونك من خلاله ولا نراهم وفى جيوبهم مسدسات، وعلى أكتافهم بنادق، وحول بطونهم طلقات.

سنقول إن الوهم لا ينفى وجود الحقيقة، وهى أنه وهم ! وأن أهل هذه النجوع سيستمرون جائعين محتاجين إلى يد حانية تشفق عليهم، وترد عنهم بعض الفاقة.

لكن ما دخل الحقيقة هنا، طالما أن الوهم سيصور لك العكس؟.

ألا تستطيع أن تتخيل؟ ألا تستطيع أن تتصور؟

ألم تسمع عن ناس يتصورون أنفسهم ملوكاً أو قياصرة، ويستبد بهم التصور، حتى تصبح تصرفاتهم كلها انعكاساً لما يتصورون؟

بل إنهم يصدرون الأحكام والمراسيم ويعينون الوزارات، ويقيلون الوزراء.

... لكن هؤلاء مجانين !

وتستطيع كذلك أن تسميهم واهمين أو موهوبين !

... أو بتعبير آخر تستطيع أن تصفهم بالخياليين، كالشعراء والفنانين !

لكن خيال الفنون شئ، وهذا السلوك شئ آخر.

وأليس الفرق بينهما بسيطاً، إلى حد أنه من الممكن أن يتقاربا.

قلت لك إن هذا شئ، وذلك شئ مختلف تماماً. لا تكن جاهلا يا ولد.

لكن لماذا كل هذا العناء؟ أمن أجل هذا السلك الذى يغطون به نوافذهم فى بعض الأحيان؟ ألم تسمع مرة أنهم يبعدون به الذباب وبعض الهوام عن بيوتهم؟

ليس فى الأمر إذن خطر ولا خطأ ولا تجسس.

يظهر أنك فى حالة توتر يا "مدثر" هل لابد لك من الذهاب الآن وأنت على هذه الحال؟

وبينما كان "مدثر" فى حديثه هذا مع نفسه.

وبينما هو فى قاربه الصغير، فى خور رحمة، أسفل منزل ضابط النقطة، كأنما يخطو على عتباته، إذا صوت شديد الانفعال يصيح فى ثورة.

إنها حكومة لصوص. حكومة جزارين، حكومة مستغلين خونة.

وأرهف "مدثر" السمع.

صوت من يكون؟

إنه يقسم بالله أنه لا يمكن أن يكون صوت أحد أبناء كلابشة، فإنهم لا يعرفون هذا الانفعال، لكثرة ما عودتهم ظروف الحياة على الهدوء وطول البال. ثم لماذا ينفعل أهل كلابشة وليس فى حياتهم شئ ممكن أن يكون موضع خلاف.

ثم إن الصوت صوت من المدينة، تدل على ذلك لهجة المدينة، وجرأتها كذلك.

ويعود الصوت يصل إلى أسماع "مدثر":

-عم والله حكومة مستبدين مستهترين.

ويعود "مدثر" يحاول أن يتبين من يكون صاحب هذا الصوت.

يظهر أن الانفعال قد غير من معالم الصوت قليلاً، فلم يعد سهلا أن يصل إلى معرفة صاحبه، بالسهولة التى اعتاد بها أن يعرف الأصوات، فلا يخطئها أبداً. حتى أصوات الطيور. حتى أصوات الحشرات. حتى أصوات الطبيعة فى النهار أو فى الليل.

ويعود الصوت فى انفعاله الشديد يصيح صيحات مجنونة، بأنها حكومة لا هم لها إلا اضطهاد خصومها، والتنكيل بهم والعبث بحرياتهم.

وفجأة يصيح "مدثر" لنفسه:

الله !.. الحكومة !.. إنها هى الحكومة، تشتم الحكومة.

●●●

وتمضى عليه لحظات ذهول.

لكنه يجد نفسه بعد أن تمر هذه اللحظات يضحك من قلبه، وهو يحدث نفسه بأن الحكومة.. حتى الحكومة ضاقت بالحكومة !!

يا نهاراً أسود. من إذن بقى لها، إذا كانت هى نفسها، تثور على نفسها !!

إن حضرة الضابط يسب الحكومة !

وإذا كان الضابط يلعن الحكومة هكذا، فمن يردع الضابط؟ من يؤدبه؟

الأهالى؟ لم يبقى إلا الأهالى !

على الأهالى أن يصبحوا حكومة، وعلى الحكومة أن تصبح "أهالى"؟!

أهالى هذه النجوع البائسة.. أيضاً؟! يصبحون الحكومة؟! يعاقبون، ويؤدبون، ويهددون، ومن يدرى، قد يغرقون الناس والماشية والبيوت؟!

وعاد "مدثر" يضحك ملء شدقية وهو يصيح:

الله !! لابد أنه يوم القيامة !! إنها الساعة !! وماذا يكون من علامات الساعة، إذا لم يكن أن تنقلب الموازين على هذه الصورة الغريبة.

يا مدثر ! هكذا ستكون من الجبل الذى قدر عليه أن يشهد علامات الساعة. ومن يدرى، ربما نلحق قيام الساعة نفسها، يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئاً. فأما من ثقلت موازينة، ففى عيشة راضية، وأما من خفت موازينه، فأمه هاوية.. يوم تؤخذ كل نفس بما فعلت، لا يغنى ولد عن أبيه، ولا والد هو مغن عن بنيه. وإنما بيد كل منهم حساب، فى كتاب لاشك فيه..

وتشهد يا "مدثر"، يوم تدك السماء، وتزلزل الأرض، وتعصف الريح، ويختلط اليابس بالماء.

يا ويلنا يومئذ، مما سيكون !

لكن لماذا "يا ويلنا"؟. وماذا سيكون؟

يا ويلهم هم، نتيجة ما عملوا ويعملون.

أما نحن.. أما كل الذين يحيون ليتقاسموا ظلم الآخرين. كل الذين يمتحنون بالحاجة والحرمان والنكبة، فلا يئنون، ولا

يركعون. كل الجياع والعطشى والعرايا، يعيشون على الضنى والذل والمر، لا يصرخون، ولا يكفرون. كل الشرفاء البسطاء الضاربون فى الكون، يعمرون الأرض ويثرون الحياة، ولا يجدون لعملهم من ثمرة إلا النكران، فلا ييأسون، ولا يقفون. كل من فى قلبه إيمان. كل من فى عقله بصيرة. كل من فى وجدانه نور.. يحيون بين قلوب قُدّت من صخر، وعقول عليها غشاوة، ووجدانٍ نخرته علة.. لكنهم يمضون لا يعبأون، ولا يترددون. هؤلاء جميعاً.. مم يخافون؟

إن يوم الساعة لهم، هو يوم الفرج، فإنهم لن يخسروا شيئاً، بل سيكسبون ويربحون. ستزول كل الأوهام، وسيزول معها الذين يصنعون الأوهام لتنمو مطامعهم فى الأوهام. وستنهار كل الأسوار، وسينهار معها الذين يقيمون الأسوار ليستروا عريهم خلف الأسوار.

وستضطرب كل القوى، وسيضطرب معها الذين يشيدون هذه القوى ليعوضوا بها ضعفهم.

وستختل كل الموازين، وسيختل معها الذين صنعوها ليملأوا بها فراغ عقولهم.

ولن تكون هناك أوهام، ولا أسوار، ولا قوى، ولا موازين.

سيكون مرد كل شئ إلى الله صاحب كل شئ.. إلى العدل المطلق بين الناس.. إلى الحكام الذين لا تخدعهم مظاهر التفوق المصنوع.

وسينال أصحاب الحق حقهم، بلا واسطة، ولا رجاء.

أهل كلابشة لن يحتاجوا إلى ضابط النقطة وسيطاً ليحصلوا على حقهم فى الزيت والسكر.

بل ولن تكون بهم حاجة على الإطلاق للزيت أو السكر.

... لتقم الساعة إذن. ولماذا لا تقوم؟ لماذا تتأخر، فيتأخر معها هذا العدل المطلق الذى لا تخدعه المظاهر؟! لماذا تتأخر، فيتأخر معها أن يرتاح أمثالنا من الذين يتردد النفس فى صدورهم داخل قصبة دامية مجروحة، أضنتها الحاجة؟

يومئذ لن يحتاج أهل كلابشة إلى القيام بهذا الدور الصعب، الذى يواجهونه الآن، وهو أن يكونوا هم الحكومة، بعد أن أصبحت الحكومة هى الأهالى، تسب الحكومة وتشتمها وتشهر بها، على هذه الصورة الجارحة.

ويقول "مدثر" لنفسه، إنه قد أسرف فى خياله، يومه ذاك، فما هو إلا خصام عابر بين حضرة الضابط والحكومة، لن يلبث أن يزول.

ولن يحتاج الأمر إلى تدخل أهل كلابشة فى الموضوع، ولا هو كذلك دليل على أن الساعة قريب.

إن الحكومة لن تستغنى عن حضرة الضابط، كما أن حضرة الضابط لن يستغنى عن الحكومة.

قد يتخاصمان، وقد يحتد أحدهما على الآخر. لكنهما إذا تعرضا لمحنة، فلن يكون أحدهما إلا للآخر؟

طبائع الأشياء ! أليس كذلك؟

اخرج أنت يا صعلوك من بين الملوك. هكذا قالوا لنا جيلا من بعد جيل.

●●●

- وبينما كان "مدثر" يمضى فى رحلة الأوهام أو الأحلام هذه، وقاربه يتهادى به فى خور رحمة نحو الجانب القبلى، أسفل بيت حضرة الضابط، كأنما كان يخطو عند عتباته.

بينما هو شارد فى هذه الرؤى، والصور تتلاحق عليه سريعة، فلا يكاد يلحق بها، أو يدركها.

بينما هو ماض فى خيالات لا تنتهى، مرة عن التموين، ومرة عن الحكومة والأهالى، ومرة عن قيام الساعة، ومرة عن يوم البعث، وفى كل مرة. تحتل صورة ضابط كلابشة خياله.

بينما هو كذلك، إذا الخيال يصبح حقيقة.

حضرة الضابط يطل عليه من بيته ويحدثه.

- معك سمك يا "مدثر"؟

سمك !! إنه يريد سمكاً !! من لحظة، بل ربما أقل، كان يسب الحكومة ويلعنها، ويتهمها بأقذع الاتهامات. كان صوته يغلى كالمرجل.كانت كلماته تتوهج كالشواظ. لقد خيل إلى "مدثر" أن الأمر قد بات من الخطورة، بحيث أصبح يحتاج إلى الحكومة، تحافظ على هيبة الحكومة ـ فكرة الحكومة !

وما هى إلا لحظة حتى أصبح حضرة الضابط لا يفكر إلا فى أكله سمك شهية، مما اعتاد "مدثر" أن يصطاده، ويبيعه بأرخص الأثمان.

وبلع "مدثر" ريقه، وهو يبلغ مع ريقه عجبه ودهشته.

وكأنما كان يقول لنفسه، فيما بينه وبين نفسه:

- ما هذا؟ أهكذا تؤخذ المسائل عندهم؟ السخط الشديد الذى سمع لهيبة يتناثر منذ لحظة، يصبح هكذا ولما تمض لحظة، رماداً !! ما أعقل أهل كلابشة. إنهم لا يسخطون على شئ ! أليس هذا أكرم من السخط الأجوف الذى لا ينتهى إلى شئ؟! لقد خيل إليه منذ لحظة أن الرجل

سيقلب الدنيا كلها على رأس الحكومة، وإذا هو، وقبل أن يختفى رجع الصدى من بين قمم الروابى، يسأل فى لهفة الجائع، عن أكلة سمك طرية؟! وهذا ضابط هذا؟

فى وقت واحد، ومع حديث "مدثر" مع نفسه، كان له مع الأمل الذى جاء من أجله حديث آخر:

هذه فرصتك يا "مدثر". بهذا لا يبدو حديثك معه، ورجاؤك إياه، مصطنعاً ومفتعلاً. تستطيع أن تعطيه ما يحتاج إليه من السمك. تحمله إليه فى بيته، وتعرضه عليه كما تفعل كثير من الأحيان، ثم تجرى معه حديثك عن التموين، كأنما هو حديث غير مرتب أو معد، إنما من وحى الظروف. نعم وقد يكون حصوله على حاجته من السمك، فى غير أوقات صيد السمك، فرصة مواتيه لينال الرجاء القبول.

وقال مدثر على الفور:

- أمرك يا حضرة الضابط. أجى لك بما تريد.

قال الضابط، وهو يطل عليه من النافذة:

- معك الآن؟

- لايا سيدى. فى البر الآخر.

- إذن تطير إلى هناك. سامع؟ تطير ... تطير.

وضحك "مدثر"، وهو يستدير بقاربه متجهاً نحو الغرب.

وكان منظره، وهو يسابق الريح، وشراعه الأبيض قد امتلأ هواء، كالرجل البدين يسبقه دائماً كرشه؟

كان منظره، وهو يسرع نحو الغرب، كمن يحاول أن يلحق بقرص الشمس قبل أن يختفى. قرص الشمس يعدو، وهو بشراعة الأبيض يعدو وراءه.. وقرص الشمس يعدو، وهو بشراعه الأبيض لا يمل من أن يعدو وراءه... لا القرص يقف على أن يوغل مخترقاً طيات السحاب، ولا "مدثر" يقف عن أن يوغل مخترقاً طيات الموج، فى الطريق إلى البر الغربى.

ويصل "مدثر" مع الغروب، فيثب وثباً إلى الشاطئ، ويعدو نحو الدار.

وإنه ليخترق صحن الدار كالسهم. يكتفى بأن يلقى السلام، فيرده الرجال بأحسن منه.

ويدهش "الريس غلاب" لحفيده الذى لا يلتفت لا إلى يمين ولا إلى شمال، ولا يقبل عليه، يجلس معه ومع زواره من أهل النجع، وإنما ينطلق إلى داخل الدار فى غير إبطاء.

وما هى إلا لحظات، لا تسمح حتى للعجب بأن يجد

تفسيراً أو جواباً، إلا ويظهر "مدثر" مرة أخرى حاملا تحت إبطه كيساً ملفوفاً، وكما جاء يعود لا يلتفت لا إلى يمين ولا إلى شمال يكتفى بأن يلقى السلام، وهو ينطلق إلى خارج الدار فى غير إبطاء.

ويتبادل "الريس غلاب" والرجال نظرات العجب، وتسود جمعهم لحظات صمت، ثم يهز "الريس غلاب" رأسه وهو يقول: لعله خير والرجال جميعاً يؤكدون أنه خير إن شاء الله.

أما "طاهرة" الأم الثكلى، فإنها تتابع ابنها بنظراتها، حتى تراه يثب مرة أخرى إلى قاربه، وتعود إلى جدته "رحمة" تروى لها أنه عاد إلى قاربه، ومضى به نحو الشرق.

وتقول الجدة:

- إذن يا بنتى تعدين للعشاء شيئاً آخر.

- عندنا والحمد لله أشياء أخرى للعشاء. خير الله كثير يا خالة رحمة.

- الحمد لله يا بنتى.

- كان "مدثر" متعجلا. لماذا أراد السمك يا ترى؟ ولمن؟

- ربما تصادف أن مرَّ الآن مركب وبه واحد، ولا يريد "مدثر" أن يرفض له رغبة.

- لكن يا خالة. هل هذا وقت صيد أوبيع سمك؟

- يا بنتى الناس لبعضها. طالما أن السمك موجود، فلماذا لا يعطيه؟ ثم هل سيعطيه بلا مقابل؟ والله لو أنه حتى بلا مقابل، فلا يجوز أن يرفض رغبة واحد قصده.

- هبى أن ليس فى الدار شئ آخر للعشاء، ماذا كنا نفعل؟

- فرج الله قريب يا "طاهر" وما من دابة فى الأرض، إلا على الله رزقها.

- أنا أريد أن أعلم "مدثر" بعض الحرص يا خالة.

- اتركيه يا بنتى كما هو. الحرص لن يزيده شيئاً، إلا إن أراد الله الكرم كذلك لن ينقصه شيئاً. والناس يؤخذون يا بنتى بالسمعة والصيت، فاتركى "مدثر" يسير فى طريق أبيه، وطريق جده. إن بيتنا مفتوح دائماً مهما تكن ظروف حياتنا وربنا دائماً يرزق. ربنا يرسل رزق الضيف. إذا أغلقت بيتك، شح الرزق يا بنتى هذه عقيدتنا وهى كذلك تجارتنا يا "طاهرة"

- أمرك يا خالة. ربنا يحميك يا "مدثر". ربنا يصونك.

- يا رب يا بنتى يا رب.

●●●

وهناك فى البر الشرقى، بعد غروب الشمس كان قارب "مدثر" مضطجعاً على الشاطئ فى خور رحمة.

وكان الشراع الأبيض مسترخياً، كمن يحلم.

إن طبيعة هذه البلاد صريحة مكشوفة، لكنها كذلك طبيعة صامتة كتوم.

فهى مكشوفة، لا تخفى وجهها، لأنه ليس عندها ما تخفيه. وهى صريحة لا تدارى شكلها، لأنه ليس لديها ما تداريه. لكنها كذلك صامته، لا ترغى ولا تزيد، فى الفارغ وفى الملآن. كتوم لا تبوح بأسرارها، فإن أسرارها كضميرها، مستكنة فى طيات الزمن الطويل.

وفى ذلك الوقت من الأصيل، كان الشراع الأبيض يتمدد على عتبات نجع خور رحمة القبلى، والدنيا كلها من حوله صامتة ساكنة، إلا من همس نسمات الأصيل، والوقت البديع ما بين الغروب والمساء، يلون الكائنات هنا بلون رائع، يحمل على الأمن والسكينة والهدوء.

لكن هل كان هذا هو كل شئ؟

لقد كانت نفس "مدثر" داخل المبنى ذى النوافذ الزجاجية التى يغطيها السلك، تضطرم بانفعالات شتى.

كانت هذه هى تجربته الأولى، فإنه لم يفكر فى شئ من هذا من قبل.

إن الاتصال بسلطة من السلطات. بحضرة ضابط نقطة كلابشة، فى موضوع كهذا شئ جديد عليه، ولم يسبق له أن مارسه أو فكر فيه.

لم يكن همه من قبل، إلا أن يصيد السمك، ويبيع ما يستطيع بيعه منه، ويعود بالباقى إلى الدار لتتصرف فيه الأسرة كما تشاء.

ولم يفكر من قبل فى أن يتاجر فى شئ، أو يسعى إلى شئ أو يتحدث إلى أحد فى شئ. لكن هذا الأحد ضابط، على كتفه ثلاث نجوم، تبرق كقطع من ذهب، فتخطف الأبصار وتخلع القلوب كذلك.

والويل منه إذا غضب، ألم تسمعه منذ لحظات وهو يسب الحكومة هذا السباب الخطير. وإذا كان قد فعل هذا مع الحكومة، أو مع نفسه، فماذا سيفعل مع واحد ـ أياً كان هذا الواحد ـ إذا لم تعجبه آراؤه، أو تصرفاته، أو طلباته؟!

وكاد "مدثر" ينسى الموضوع الذى جاء من أجله ! ما هذا التموين الذى يشغل فكره وقلبه إلى هذا الحد؟ وما شأنه هو به؟ ألا يستطيع أن ينساه، ليريح نفسه من هذا العناء؟

ثم إنه لا يزال فتى صغيراً، ولا يزال فى العمر متسع لمحاولات كثيرة من هذا النوع، إذا لم يكن هناك يد من القيام بهذه المحاولات.

يا "مدثر" اسكت. اسكت، والله يتولانا بستره. لقد عاش أجدادنا من غير تموين ! آباؤنا كذلك لم يعرفوا هذا التموين، فلماذا تهب أنت، تريد توفير شئ لم يألفوه؟ إن عدم حصولهم عليه لن ينقص من أعمارهم، وحصولهم عليه، لن يطيل فى أعمارهم. يا أخى انس هذا واسكت. أسمعت؟ اسكت.

ويحاول "مدثر" أن ينسى، وأن يسكت، لولا أن لسانه يسبقه، عندما تواتيه الفرصة.

لقد انتهى حضرة الضابط من مشاهدة ما جاء به "مدثر" من السمك. وأعجبه السمك كثيراً. وقال وهو يمزح مع الفتى الصياد:

- أين كنت تخفيه يا شقى؟

- أبداً والله يا حضرة الضابط.

- اسكت. والله لو لم أطل عليك بالصدفة، ما كنت سأعرف عن هذا السمك الجميل شيئاً.

– هل أمرت بشئ وقصرنا؟

– يا ولد يا شقى.

قالها وهو يدس فى يده بعض النقود.

وكما اعتاد "مدثر" فى كثير من الأحيان، لم يتطلع إلى مادسه حضرة الضابط فى يده.

ثم إنه فى هذه المرة بالذات مشغول عن كل شئ إلا ذلك الطلب فى الحصول على تموين لأهل كلابشة.

لكن الضابط لم يمهله، ولم ينتظر حتى يسأله.

لقد التفت إلى فتى صغير فى عمر مدثر أو أقل، وقال:

– أترى يا "مدثر"؟ هذا أخى الصغير. لم تره أنت من قبل، فإنه جاء يزورنى للمرة الأولى منذ يومين. لكنه لا يريد أن يبقى يوما واحدا بعد ذلك. لقد ملَّ هذه الحياة بعد يومين. لم يعد يطيق البقاء إلى جوارى يوماً واحداً بعد ذلك. ثم يعاتبوننى عندما ألح عليهم بأن يسعوا إلى نقلى. ما ذنبى أنا؟ ها هو ذا لا يطيق البقاء أكثر من يومين، وأنا هنا منذ شهور، إذا كان هذا سجناً، فلماذا لا يتحملونه معى؟ إنى أدفع ضريبة ظالمة.

وبدأ حضرة الضابط يفقد أعصابه مرة أخرى.

بدأ صوته يعلو. وبدأت الانفعالات تبدو على شفتيه وهو يتحدث.

لم ينتظر من أخيه أن يجيب.

لقد أخذ يصيح فى أخيه.

-ألم أقل لك إنها حكومة لصوص، مستبدين؟ أنا اليوزباشى عادل برهان أنقل من حرس الوزارات إلى نقطة كلابشة !! أنا الذى كانت القامات تنحنى أمامى أنقل إلى هذه البلاد !!

طبعاً لا بد من نفى ! ابن من أكون؟! ومع هذا فإن السيد الوالد المحترم يطلب منى أن أصبر، وأن أعتبر هذا كفاحاً فى سبيل المبدأ ! أى مبدأ؟ ألكى يصبح هو نائباً أو شيخاً أو وزيراً، أدفع أنا هذا الثمن، وأقف أنا فى وجه هذه الحكومة. حكومة اللصوص المستبدين هذه؟! يا نهار أسود.

ما ذنبى يا ناس؟ ما ذنبى أنا؟ لماذا لم تخلقنى يا رب، كآلاف الضابط الذين يعملون بلا خصومات ولا أحزاب، ولا نوايا إنتقام؟

ويصل الانفعال بالضباط إلى أشده، وهو ينظر إلى أخيه الفتى، ويصيح:

- لماذا لا ترد؟ طبعاً لا ترد. وماذا يهمك أنت، وأنت تجرى وراء الفتيات فى شوارع القاهرة، وتسهر هنا وهناك، وتتعالى على إخواتك بعد هذا، بتنظيم المظاهرات وطبع المنشورات، لا لأنك تؤمن بما تفعل، ولكن لتنال ما تظنه أهمية واحتراماً. يا عالم يا ناس. لقد تعلمت من عزلتى هنا أن كل هذا خداع. كل هذا كذب. الوطنية كهذا السمك، تجارة. بل إن السمك أشرف. إن "مدثر" يصحو مع الفجر ليصيد السمك. إنه يدور به هنا وهناك ليجد من يشتريه. أما تجارة الوطنية فشئ سهل. أن من مؤهلاته الكسل. النوم حتى ظهر كل يوم. كل المطلوب هو الكذب والنفاق وتدبير المؤامرات لكسب النفوذ، بأية وسيلة، لا يهم أن تكون نظيفة، أو شريفة. المهم أنها توفر هذا النفوذ. لقد فتحت عينى هنا على حقائق لم تكن لتظهر لى هناك. إن العذاب يصهر النفوس، فيسيل ما بها من الشحم وتتخلص بذلك من أدرانها. لقد خدعتنى مظاهر العمل فى حرس الوزارت. خدعتنى مظاهر النفاق. خدعنى هؤلاء المنافقون المتملقون. كنت سعيداً بالقامات تتحنى أمامى، وكان علىَّ أنا الآخر أن أنحنى أمام أصحاب السلطان أضعاف ما أتلقى من انحناءات، كل منا ينحنى للآخر. هم ينحنون لى، وأنا أنحنى

لمن هو أعلى، وتمضى الانحناءة من واحد إلى واحد، حتى تصبح هى وسيلة التعامل فى المجتمع. لا. انظر حواليك هنا فى هذه البلاد الفقيرة التعسة. أترى أحداً ينحنى لأحد؟ أبداً. إنهم جياع، لكن قاماتهم عالية، لا تنحنى إلا عندما يركعون للصلاة.

ويعجب "مدثر" بما يسمع إعجاباً شديداً.

ويسرى فى وهمه فى لحظة أن حضرة الضابط قد أعجب ببلاد النوبة، وأنه سيبقى بها لا يغادرها أبداً.

لكنه ما أن تنتهى هذه اللحظة حتى يعود صياح الضابط يملأ المكان وهو يخاطب أخاه:

- قل لهم عندما تعود لابد من حل. لابد من حل. لابد لى من أن أعود. أريد أن أعيش فى القاهرة. أريد أن أعيش فى النور. ما ذنبى أنا، أدفع عن والدك، وعن حزيه الكبير، وعنكم جميعاً هذا العبء. أنا وحدى الذى أدفع؟! إذا لزم الأمر فإنى سأستقيل...

●●●

إذن، لم يكن صحيحاً أن حضرة الضابط معجب ببلاد النوبة.

ويحار مدثر وهو يرى هذا التناقض، مرة مع أهل النوبة، وبلاد النوبة، ومرة ثائر على هذا الظلم وهذا الظلام.

على أن العاصفة تهدأ عندما يدخل الطباخ، ليتلقى تعليمات حضرة الضابط ليقلى السمك.

ويقول الطباخ: ليس عندنا جاز يا سيدى.

وبعد أن يعجب الضابط من هذا، يعود يقول: إذن اشوة على الحطب.

●●●

ويجد "مُدثر" الفرصة قد فتحت أبوابها للحديث عن التموين.

ويقول "مدثر":

- تصور يا سيدى الضابط أنت لا تجد الجاز وأنت أعلى سلطة فى هذه البلاد وأكبر القوم فيها !! تصور أهل كلابشة. ماذا يفعلون؟ بل الأدهى يا سيدى الضابط أن أهل كلابشة ليس لهم تموين على الإطلاق.

- غير معقول هذا. ليس لهم تموين؟

- نعم إننا لا نعرف عنه شيئاً.

- هذا شئ آخر. لكن لابد أن لكم نصيباً فى التموين.

- أين هو يا سيدى؟

- لا نعـرف أين هـو؟ فى البطـون الواسـعـة التى تبلـع كل شئ.

- ونحن يا سيدى الضابط؟

- أنتم؟! إذا كـانـوا يبلعـون نصف تموين أهـل القـاهـرة، فكيف لا يبلعون تموينكم، وأنتم على يسار الدنيا؟! يا شيخ !

- لكن.. لكن الناس هنا محتاجة.

- يا سيدى ... وماذا لو احتاجت؟!

- يا حضرة الضابط، إن أملنا فيك كبير.

- لا .. لا .. لا تعتمد علىَّ. أنا رجل مضطهد. ألم تسمع؟

- وتضيع حقوقنا فى التموين، ليبلعها التجار الكبار ! إننا لو أخذنا التموين، فسنوفر هذه الحاجات للناس ولن نكسب منهم شيئاً.

- وتترك صيد السمك يا "مدثر"؟

- ومم أعيش يا حضرة الضابط؟ إنى وأسرتى نبحث عن رزقنا فى الماء، أما التموين، فسأقوم به خدمة لأهل كلابشة.

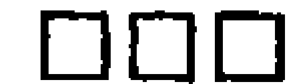
ونظر الضابط لأخيه، ثم عاد ينظر إلى "مدثر"، ثم تاهت نظراته فى أشياء غامضة، بينما كان يتمتم: تقوم به خدمة لأهل كلابشة !.. خدمة لأهل كلابشة !! خدمة !!

وظهرت أمامه فيما يشبه الحلم صور غريبة.

قامات تنحنى. رءوس تطأطئ. أفواه تنفرج. لعاب يسيل. أيد تمتد لتسرق، لا لتخدم !!

لكن هذه الصورة تشحب وتذبل، وتزول، لتحل محلها صور أخرى:

قارب يشق طريقه فى توكل. سمك طرى يتدافع من الماء. زيت وسكر وجاز فى قاع المركب خدمة لأهل كلابشة ... وشراع أبيض يخفق فوق.ذلك كله ... كالنبضات.



(4)

أو تذكر يا عادل قصة ذلك الشيخ الوقور، الذى لا يسكت أبداً عن الحديث عن كفاحه القديم، ووقفاته الخالدات، ضد الاحتلال والمحتلين، وكيف كانت له فى كل جولة معهم وقفة يشيب لها الولدان؟ ولكم هددوه، ولكم تعقبوه، فما لان.

أو تذكره يوم جاء على رأس مظاهرة صاخبة تهتف فى عصبية وانفعال بحياة العدل، وتطالب فى ثورة وإصرار، بضرورة إنصاف أصحاب الحقوق من الموظفين المنسيين؟

وكان الشيخ الوقور، فى مقدمه صفوفهم.

جاء فى سيارته إلى لاظوغلى، وكان معهم على ميعاد، فما أن رأوه حتى ثارت فيهم الحماسة، واندفعوا يحيطون به من كل جانب، يهتفون ويهللون ويريدون أن يقتحموا باب وزارة المالية لمقابلة الوزير، ومناقشته فى قضيتهم العادلة.

وكنت يا عادل لا تزال حديث العهد بعملك الجديد فى حرس الوزارات. بل وكنت لا تزال حديث العهد بالتخرج فى كلية البوليس.

أو تذكـر ذلك اليـوم حـينمـا فـاجـأوك بتلك المظاهـرة الصاخبة؟

لقد ذعرت يومها، وارتبكت، ولم تدر ماذا أنت فاعل.

إنهم يهجمون على باب وزارة المالية، يتقدمهم ذلك الشيخ الوقـور، ذو التـاريخ الوطنى الطويل، كمـا يقـول، فـلا تدرى كيف تتصـرف مـعهم؟ إنهم لم يتـركوا لك الفـرصـة لتـتصل بقـائد حرس الوزارات تسـأله الرأى والمشورة، ولم يتركوا لك فـرصة لتسـتـأذن لفـريق منهم، فى مـقابلـة مسئول من مكتب الوزير. أبداً، لكنهم هـجموا يريدون اقتحام البـاب. ولديك يا حضرة الضـابط تعليمات صريحة بمنع هذا. أو تمنع الشيخ الوقور كذلك؟ وحصانته البرلمانية التى تحميه من أى تصرف قد تراه ضـرورياً لحمـاية الأمن والنظام. لكن القـانـون قانون. وحتى حضـرة الشيخ المحترم لا تعفيه حصانته من أى إجراء لحماية النظام العام.

كان عليك أن تتصرف على الفور.

وكان عليك أن تقف هذا العبث بالنظام عند حده.

أو كان عليك أن تنفذ ما لديك من تعليمات.

فلما فعلت، إذا الشيخ الوقـور، ذو التاريخ الطويل، يرفع عصاه فى وجهك، وهو يصيح فيك كالبركان:

- هل تعتدى على أبناء الشعب يا هذا؟ إن ضابطاً صغيراً مثلك موضوع هنا فى خدمة الشعب، لا من أجل الاعتداء عليه !

وكانت هذه الكلمات كقطرات من البنزين، تساقطت على ألسنة اللهب، فزادت النار اشتعالا .

وارتفع الصياح، وأخذت الهتافات تطالب بتأديبى ! وردعى؟! .

"يسقط الظلم.

"يسقط الاستبداد .

"تسقط القوة الغاشمة.

" الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة" .

..هكذا ترددت الهتافات فى سمعى !!

وكنت فى حيرة من أمرى. أو فى حيرة من الأمر كله.

أنا الظلم؟ أنا الاستبداد؟ أنا؟ هذه القوة الغاشمة؟ أنا؟!

ولم أصدق أذنى ! لكن المتظاهرين حاولوامع هذا الشيخ الوقور، أن يهاجمونى أنا؟ ألست مستبداً؟ ألست غاشماً؟ أليست الأمة فوق الحكومة؟

وشعـرت أننى لو تهاونت لحظة واحـدة، فـإنى هالك لا محالة ! وتطورت الأمور تطوراً ملحوظاً. كنت من قبل أحمى هيبة الحكومة. أحمى باب وزارة المالية من أن يقتحمه جماعة ثائرة من الناس، بلا نظام، ولا إذن، فإذا الأمور تتطور، فيصبح علىَّ أن أحمى نفسى من هجوم هؤلاء المندفعين نحوى فى غير وعى، المتدافعين على كالموج !

ولم أتردد لحظة واحدة.

أصدرت أوامرى إلى القوة التى تحت إمرتى، بضرب المتظاهرين، وطردهم خارج الأسوار. طردهم جميعاً، وبلا استثناء.

والواقع أنى أخذت أعانى حالة من الكراهية لهذا الشيخ لا حدود لها.

لقد بدا وجهه أمامى فى لحظة مشوهاً كالعفريت.

وكنت أراه مهرجاً كذّاباً، يخدع هؤلاء السذج الأبرياء متظاهراً أمامهم بالبطولة والدفاع عن حقوق أبناء الأمة. كان هذا هو إحساسى نحوه، فزادت كراهيتى له، وتمنيت لو أن العساكر ضربوه ضرباً مبرحاً يتوب على أثره من هذا الادعاء الأجوف، ولا يعود إليه بعد ذلك أبداً.

لكن الرجل المحنك، ما أن أحس أنى جاد فيما أصدرت من أوامر، حتى وثب إلى سيارته فنجا من هراوات العساكر، وهى تلهب أجسام المتظاهرين.

لكنه عاد فظهر بعد طرد المتظاهرين خارج الأسوار، وكانوا لا يزالون فى ميدان لاظوغلى يتطلعون، ولعلهم كانوا ينتظرون أن يجدوا فرصة أخرى، لاقتحام وزارة المالية حيث يعرضون قضيتهم على الوزير.

فما أن رأوه، يسير داخل الحصار، وعصاه فى يده، وقامته تطاول السماء، حتى عادت إليهم حماستهم، وارتفعت حناجرهم بالهتاف بعدالة قضيتهم وسقوط الظلم والاستبداد والقوة الغاشمة.

وجاءنى الشيخ المحترم فى وقاره ذاك، فقد كنت الضابط الوحيد الواقف فى هذه الساحة.

وصاح فىَّ، وعصاه فى وجهى.

– هل أنت الضابط المسئول هنا؟

– نعم أنا الضابط المسئول هنا.

– وأنت الذى أعطيت التعليمات للعساكر بضرب المتظاهرين؟

- نعم يا سيدى.

وأخذ يحرك عصاه فى الهواء، كأنما يهددنى بها فتجاهلت كل اعتبار، ورقصت شياطين الدنيا كلها أمام عينى، وقلت له فى حدة:

- وما شأنك أنت بالتعليمات التى أصدرتها؟ أنا هنا مسئول عن الأمن والنظام. ولست مسئولا عنه أمامك أنت على كل حال، وقد أديت واجبى، فماذا تريد أنت؟ بل ومن تكون؟

وهاج الشيخ الوقور هياجاً شديداً، وأخذ يصيح صيحات مجنونة، وفقد كل إتزان يمكن أن يكون قد أفاده من شيخوخته، أو شيبه.

بينما كانت عصاه تضرب الأرض ضربات منتظمة، كأنها موسيقى لحنت خصيصاً لتصاحب كلماته:

- هذا الضابط يسألنى من أكون !! يسألنى من أكون ! يسألنى من أكون ! إنه لا يعرف من أكون ! إلى هذا الحد هانت أقدار الناس !! أهكذا تاهت القيم بين ضابط البوليس! اسمعى يا حكومة. اسمعوا يا حكام ماذا يقوله ضابط البوليس عن أعضاء البرلمان !!

والحقيقة أنى كنت قد وصلت إلى درجة من الغليان، لم أعد أهتم بعدها بشئ. ماذا سيكون؟ إن هذا الرجل الكذاب يحاول أن يستغل موهبته فى الكذب علىّ أنا أيضاً. لم يكفه أن يضلل المتظاهرين، بل إنه يحـاول أن يضلل السلطات كذلك بشأنى. لكنى لن أتركه هكذا يعبث بلا رادع يشكف ضلاله الفاجر الكذاب.

وصحت فيه:

- اسمع يا حضرة. لا ترفع صوتك هكذا. إذا كانت لك شكوى فقدمها لمن تشاء. لكنى أنذرك أن تخرج حالا وإلا فإنى سأصدر أمراً إلى العساكر لإخراجك من هنا بالقوة.

وصحت فى أقرب عسكرى منى:

- يا عسكرى. إذا لم يخرج هذا الرجل حالا، فأخرجه بالقوة.

ثم أدرت ظهرى إلى المكان، ودخلت وزارة المالية.

وأحس الرجل أن الأمر سينقلب ضده، وأن العسكرى قد يعتدى عليه فعلا، فانصرف وهو يتوعد بأن يؤدبنى أدباً ما أدبنى مثله أحد قبله.

●●●

لكن الأمر لم ينته !

لقد طلبنى فى اليوم التالى قائد حرس الوزارات، فلما ذهبت إليه سألنى وهو منزعج ماذا فعلت أمس؟ هل أمرت العساكر بضرب أحد أعضاء مجلس الشيوخ؟

قلت: نعم فعلت. ولكن كان لابد لى أن أفعل.

وحكيت له كل شئ فى تفصيل، وقلت له إن هؤلاء المضللين يجب أن يقفوا عند حدهم من تضليل الناس.

قال وهو يهز رأسه:

- لا تزال صغيراً يا ابنى. على كل حال سأحاول أن أنقذك. إن والدك عزيز علىّ وأفضاله تطوق عنقى. اكتب طلباً بأجازة.

- أية إجازة؟

- اكتب ... اطلب إجازة لمدة أسبوع، وليكن تاريخها منذ يومين.

- لكن ...

- اسمع الأمر ونفذه يا حضرة الضابط. لا تناقش.

وكتبت الطلب وقدمته له، فأشر عليه بالموافقة، ثم التفت نحوى وقال:

- الآن أنت فى إجازة منذ يومين. عليك أن تذهب الآن إلى بيتك ويستحسن أن تسافر إلى الأسكندرية مثلا، أو إلى العزبة، وسأدبر أنا بقية الأمر.

- أنت تهربنى يا سعادة البك؟

- إياك أن تتحدث بهذا إلى أحد. اذهب ... أرنى عرض أكتافك، ولا تعد قبل انتهاء إجازتك.

وخرجت وأنا أهز رأسى، وأضرب كفاً بكف.

كلنا حضرة الشيخ المحترم. هو يضلل، وقائد حرس الوزارات يضلل، وأنا كذلك أضلل، والجميع يتعاملون بالتضليل، حتى أصبح التضليل هو السلاح الذى نتعامل به والعملة الرائجة بيننا جميعاً !

●●●

ولقد علمت بعدها، عندما عدت من الإجازة المزيفة أن الموضوع كان سباقاً فى المهارة بين عملاقين لكل منهما باعه فى التحايل على الظروف والتضليل.

لقد شكا الشيخ المحترم مما حدث إلى رئيس الوزراء !!.

وهاج رئيس الوزراء، فكلف أحد وزارئه أن يتحقق بنفسه مما حدث.

ونادى الوزير قائد حرس الوزارات، وطلب منه أن يعرف الحقيقة، فتظاهر بأن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق.

وعجب الوزير مما سمع، فطلب الشيخ المحترم ليسمع بنفسه هذا الكلام. فجاء غاضباً صاخباً، وصاح فى قائد الحرس:

- لقد هددنى ضابطك بأن يأمر العساكر بضربى !!
تصور بضربى !

وقال قائد الحرس:

- أستغفر الله العظيم. والله إن هذا لو حدث لجلدته بنفسى يا سعادة البك.

- قلت لك حدث.

- متى يا سيدى؟ أتذكر اليوم؟

- نعم. ومعى شهود من المتظاهرين أنفسهم.

وكان لابد من معرفة الضابط الذى كان فى الوردية يومها. وقد دلت الأوراق الرسمية على أن الذى كان يتولى الأمر فى ذلك اليوم، كان ضابطاً آخر ... ضابط آخر سواى!! ضابط فى نفس سنى ورتبتى، ولولا أنه أقصر منى

قامة، وأغمق لوناً، وأشعث شعراً، لأخذنا على أننا أخوان توءمان.

وعندما حضر الضابط، قال قائد الحرس للشيخ الوقور، فى حضرة معالى الوزير:

- سعادتك تعرف وجه الضابط الذى تقول عنه.

- طبعاً أعرفه ولن أنسى وجهه الكالح أبداً.

- هل تصفه لهذا الضابط، ليذهب ويحضره الآن؟

وأخذ الشيخ المحترم يصفنى وصفاً دقيقاً وهو لا يرفع عينيه عن الضابط فلما فرغ من الوصف، قال قائد الحرس:

- يا معالى الوزير اسمح لى أن أقرر لك أن الضابط الذى كانت عليه ورديه ذلك اليوم هو هذا الضابط الذى يتحدث إليه حضرة الشيخ المحترم.

والتفت قائد الحرس إلى الشيخ الوقور وهو يقول:

- لا تؤاخذنى يا سيدى. إنى طوع أمر دولة رئيس الوزراء ومعالى الوزير وسعادتك، لكنى كذلك أشعر أن من واجبى أن أقرر الحقيقة، وإلا كنت غير جدير بثقة دولة الرئيس وأصحاب المعالى الوزراء.

ولقد انفرجت أسارير الوزير، لكنه أخفى مشاعره وهو يسأل:

- لكن لماذا لم تقل هذا منذ بدأنا الحديث؟

وابتسم قائد الحرس وهو يقول فى تخابث:

- لا تحرجنى يا معالى الوزير. لقد أردت أن تكون الحقيقة أمام معاليك واضحة لا تقبل الجدل أبداً.

وضحك الوزير طويلا، بينما كان الشيخ الوقور يقسم أن الحادثة صحيحة، وأنه أهين، وأن ما قاله لدولة رئيس الوزراء صحيح.

بينما كان قائد حرس الوزارات ينسحب وقد اختفت بسمته الخبيثة فى ظل انحناءته الخفيفة البارعة.

●●●

ومرت الحادثة بسلام. لكنها تركت فى نفسى أثراً عميقاً جداً. كان هذا الأثر أول الأمر سخطاً حتى على نفسى، فقد كنت السبب فى أن يظهر هذا الشيخ الكبير الوقور بهذا المظهر أمام المسئولين الكبار. وأياً كانت كراهيتى له فى لحظة من اللحظات، إلا أنه على كل حال شيخ كبير ذو ماض سياسى معروف. إنه فى سن والدى على الأقل. إن له أولاداً

أكبر منى سناً وتجربة. وشعرت أننى ارتكبت عملا دنيئاً وصغيراً.

لكن المناقشات التى شهدتها بعد ذلك عنه، جعلتنى أحرص على أن أقف على كل شئ يتعلق به. وأشد ما أصابنى فيه، أنه رجل يتاجر فى قضايا الطوائف المختلفة ! أن كل قضية لها ثمن، وبقدر ما يكون الثمن باهظاً، بقدر ما تكون الحماسة شديدة ! ولن يعجز الشيخ الوقور عن أن يفسر هذا الثمن لنفسه وللناس. إنها ليست ثمناً ! إنها ليست رشوة: إنها ليست تجارة ! إنها ليست كذلك استغلالا ! أبداً إنها طبيعة كل قضية، والمصاريف التى تتكلفها، فى التنقلات والاتصالات، وإكراميات لبعض المسئولين من الموظفين! أو تظنون أن الوزراء هم الذين يقررون؟ أو تظنون أنهم وكلاء الوزارات؟ ولا المديرون كذلك هم الذين يقررون. إن وراء هؤلاء جميعاً قوة غامضة تتمثل فى موظفين صغار لا تعرفونهم، ولا ينبغى لكم أن تعرفوهم. هؤلاء هم الذين يمهدون كل شئ. هؤلاء هم القوة الحقيقية وراء كل توقيع يوقعه وزير أو وكيل أو مدير، فإذا لم نعرف الطريق إلى قلوب هؤلاء، فإن الأوراق قد تختفى، ولا تقدم لمسئول. وهؤلاء يا إخوانى مساكين، إنهم موظفون بسطاء، لهم أسر

وأولاد وعليهم مسئوليات فإذا لم يلجأوا إلى هذا الطريق، فإنهم يعجزون عن الظهور بما ينبغى أن يظهروا به أمام الناس.

هكذا يبررون هذا الثمن الذين يتقاضون !

ولقد عجبت لما سمعت، وحرصت على أن أقف على تفسير للأمر فيما أسمع من مناقشات وزادت إصابتى فيه أن كفاحه كله لم يكن إلا بضاعة يروجها لتكون له بين الناس شعبية، يدخل بها مجلس الشيوخ.

- لكن هل معنى هذا أنه يخترع هذه القصص كلها؟ هل كل قصص الكفاح التى يرويها لا أساس لها من الواقع على الإطلاق؟

- لا لا. إن لها أساساً طبعاً، لكن براعة العرض، والتهويل، والإضافات التى يضيفها، والتفسيرات التى يحيط بها كل حادثة منها. هذه هى المسائل التى برع فيها وهى من كثرتها، تغطى على الأساس الذى تستند إليه.

- على أن له ماضياً حسناً على كل حال.

- نعم عندما كان شاباً صغيراً، وهو بعد طالب فى الدراسة العالية ككل الطلاب.

- وماذا حوّله هذا التحول؟

- هو ما حول كل الطوائف والأحزاب.

●●●

وانتقلت أفكار الضابط الشاب إلى الفتى "مدثر" واستعاد ما قاله له منذ قليل.

إنه يريد أن يحصل على التموين ليوزعه على أهل كلابشة، بلا ربح.

"ومدثر" مع هذا بلا ماض. يمكن أن يحكيه، كما يفعل رجال الأحزاب وأعضاء البرلمان سواء أكانوا فى مجلس الشيوخ أم مجلس النواب.

و "مدثر" إلى جوار هذا صياد سمك فقير، يبحث عن رزقه بين طيات النيل، ومن واجبه نحو نفسه ونحو أهل بيته، أن يربح جزاء ما يبذل، ليعيش.

"ومدثر" قبل هذا وبعد هذا لن يستغل أحداً، لكنه سيحقق الربح الحلال الذى كان يحققه حتى الرسل، من تجارة شريفة يقومون بها.

وهز عادل برهان رأسه، وعاد إلى ذكريات من عمره لا تنسى.

●●●

وهذا الأديب الأريب اللامع.

ولد وملعقة من ذهب تلمع بين أسنانه.

وخلفه بيت عريق كبير، تخر له الجباه احتراماً وتقديراً.

وأمامه بلا جدال مستقبل يفتح له ذراعيه، مبتسماً مبتهجاً مرحباً.

ولقد درس فى خارج البلاد، فى أعلى جامعاتها، وعاد ليحتل مكانة مرموقة فى المجتمع، يتحدث عن أشياء تبدو غريبة للناس، لكنه يتحدث عنها بلغة أولاد البلد. إنه لم يغير من طبيعته. لم يتغير على الإطلاق، شأنه شأن أبناء البيوتات، لا تجرفهم تيارات مدنية زائفة، فينسون أصولهم وبلادهم وأسلوب حديثهم. إن الشجرة التى فرعتهم شجرة قوية صلبة أصيلة، تخرج عنها هذه الفروع صلبة أصيلة.

وسحر به الناس. أحبوه وأعجبوا به. وقالوا عنه كلاماً كثيراً. إنه صريح واضح لا يعرف اللف ولا الدوران. إنه تعلم لغة قوم، لا ليصبح منهم، ولكن ليعرف أسرارهم وليأمن مكرهم، وليحاربهم بعد ذلك حرباً لا هوادة فيها ولا لين.

ولقد بدا للناس ذات يوم، أنه على خلاف مع حزبه ومع أهله ومع أقاربه جميعاً. ولم يكن حزبه ولا أهله ولا أقاربه

ممن عـرفـوا بالاندفـاع فى التـيـار الوطنـى، فـفـسـر الناس الخـلاف على أن الرجل يريد أن يندفع فى التـيـار الوطنى اندفاعاً لا يعرف الاتزان أو التمهل أو قبول أنصاف الحلول.

وكانت الصدمة فيه يا عادل يوم علمت أن الخلاف الذى حدث ذات يوم بينه وبين أسـرته وما شاع من تفسيره على أنه خلاف من أجل الوطن، لم يكن أكثر من خيال !!

لقـد قال لك من لا يخطئ، فـقـد كـان طرفـاً من أطراف هذا الخلاف:

إن المسألة لم تعد أن رئيس الوزراء وقتها رفض تعيين أحد العمد، ممن كان يتوسط لهم السياسى الكبير، والأديب الأريب اللامع.

- عـمـدة ! هذا الخلاف الذى اشتهر على هذه الصورة وسمعنا عنه ونحن تلاميذ، كان من أجل تعيين عمدة؟!!

- أى والله من أجل تعيين عمدة.

- لكن هذه مـسـألة هينة جـداً. ولماذا رفـضـهـا رئيس الوزراء؟

- آه.. هذا هـو بيت القـصـيـد. لقـد علم أن السـيـاسـى الكبير تقاضى فى سبيل تعيين هذا العمدة مبلغاً كبيراً، قيل

إنه خمسة آلاف من الجنيهات.

- يا نهار أسود. يتقاضى ... ماذا يتقاضى؟ رشوة !! هذا السياسى الكبير؟ ! ومن هذا العمدة المجنون الذى يدفع خمسة آلاف من الجنيهات فى سبيل منصب تافه لا قيمة له؟!.

- نعم لقد تحقق رئيس الوزراء أن السياسى الكبير تقاضى هذه الرشوة أما أن منصب العمدة يساوى هذا المبلغ أو لا يساوى، فثق أن العمدة ليس مغفلا حتى يدفع هذا المبلغ إلا إذا كان قد حسب الحسبة، وأيقن أن المنصب يضمن له أضعاف هذا المبلغ. أنت لا تعرف ماذا يستطيع العمدة، فى ظروف معينة، وفى بلدة معينة، خاصة إذا كان مؤيداً بنفوذ الحكومة.. لا تعرف ماذا يستطيع العمدة أن يفعل، وماذا يستطيع أن يربح. إن بعضهم يحتكر مباشرة أو من طريق غير مباشر ـ تجارة الآثار، أو تهريب الآثار إلى متاحف الدنيا، وهذه ليست تجارة بقدرما هى كنز مفتوح، بغير حدود. وبعضهم يحتكر ـ مباشرة أو من طريق غير مباشر ـ تجارة العملة، أو تهريب العملة إلى خارج البلاد، وهذه ليست تجارة، بقدر ما هى كنز مفتوح بغير حدود. وبعضهم يحتكر ـ مباشرة أو من طريق غير مباشر ـ تجارة

المخدرات أو تهريب المخدرات لكل المدمنين المرضى، وهذه ليست تجارة، بقدر ما هى كنز مفتوح، بغير حدود. وبعضهم يحتكر - مباشرة أو من طريق غير مباشر - تجارة التموين، أو تهريب مواد التموين إلى كل المتعاملين فى غذاء الناس، فى السوق السوداء !!

●●●

وانتفض الضابط الشاب، وهو ينتقل بأفكاره إلى الفتى "مدثر" ويستعيد ما كان يقوله له منذ قليل.

لقد كان يطالب متوسلا، بحق أهل كلابشة فى مواد التموين، ويتكفل بتوزيعه عليهم بلا ربح.

وبلا احتكار، أو اتجار، مباشرة أو من طريق غير مباشر.

وبلا تهريب خلسة وفى الظلام.

وبلا استغلال لحاجات الناس إلى الغذاء.

وبلا سوق سوداء.

بل إنه سيوزع ما تصل إليه يداه، بلا ربح.

وليعوضه الله عما يبذل من جهد، وما يضيع من وقت، وما قد يدفع من مال.إنه حسبة له عند الله يجزيه عنها خير الجزاء، فيما يطرحه من بركة على السمك الذى

يصطاده كل يوم، وعلى الرزق الذى يسعى إليه بين طيات النيل، فإن بقى له بعد ذلك شئ فليكن رصيداً له يشفع له يوم الحساب.

ويشد الضابط الشاب أنفاسه، وهو يتأمل هذا التناقض الغريب.

السياسى الغنى الثرى ابن البيوتات يرتشى !

والفتى الصياد الفقير يتبرع بما يملكه للناس !

ويقول الضابط الشاب لنفسه:

ذلك لأن الغنى الثرى، فقير النفس والذمة والضمير.

ولأن الفتى الصياد الفقير، غنى النفس والذمة والضمير.

وهز عادل برهان رأسه، وعاد إلى ذكريات من عمره لا تنسى.

●●●

هذه الهيبة، وهذا الوقار الجليل..

وهذه السماحة، وهذا الجمال الرزين..

.. والرائحة الطيبة التى تسبق قدومها، وتبقى بعد رحيلها.

وكنت يا عادل، ترى بسمتها كالبلسم الشافى من العلة. ونظرتها كتعويذة العابد تجلب البركة. وخطوتها كبطاقة توصية على مسكين محتاج.

إنها سيدة البر والتقوى.

كانت تقبل بين الحين والحين، فيسبقها إلينا أمر من صاحب الأمر بانتظارها عند الباب، وصحبتها حتى تدخل مباشرة على معالى الوزير. فإذا غادرت مبنى الوزارة فمعاليه فى وداعها حتى المصعد، ثم مدير مكتبه فى ركابها حتى تستقل السيارة.

وعندما اشتد وباء الكوليرا جاءت هى ممتقعه الوجه، محتقنة الجفنين، كمن قضت أيامها تبكى النكبة، وتندب الضحايا الأبرياء من الفقراء والمساكين.

وقيل إنها قلبت الدنيا، وطالبت بأن تتحرك ضمائر المسئولين، ليقف هذا الغول عند حد، فلا يمضى بلا رادع، يخطف حياة الناس مخلفاً وراءه جيشاً من الأرمل والثكالى واليتامى.

وأذاعت بعد ذلك نداء إلى سيدات الأسر وفتياتها، ليتطوعن على الفور لمكافحة الوباء. وكانت أول من ارتدى ملابس التمريض.

ما كان أبدعها، وهى فى ملابسها البيضاء، كملاك هبط من السماء.

والشعرات البيض تطل من بين طيات الطرحة البيضاء، لتزيد الوجه بياضاً.

كل شئ أبيض: الوجه أبيض، والطرحة بيضاء، والشعرات المطلة حول الطرحة بيضاء، والقلب أبيض، ... والمصير إن شاء الله معها وبين يديها أبيض.

وكما كانت أول من ارتدى ملابس التمريض، فقد كانت أول من ذهب إلى ميدان الوباء فى قرية القرين، وخلفها جيش المكافحة، يتقدمه معالى وزير الصحة، هكذا كانت دائماً سبّاقة، فى مقدمة أى ركاب، يتبعها الجميع، حتى الوزراء.

وسمعت يا عادل أن السيدة الرزينة الوقور، كانت كذلك سبّاقة لنجدة المنكوبين عندما هاجم البلاد من قبل، وباء الملاريا.

هبت هبتها، وقامت قومتها، وارتفعت صيحتها، وتردد نداؤها، فأسرعت السيدات والفتيات خلفها يكافحن الوباء.

كذلك سمعت أنها هكذا دائماً، تعمل للخير، وتبذل جهدها ونفوذها فى سبيل الناس مضحية فى هذا السبيل براحتها وبيتها وأولادها، وحياتها الخاصة.

وذات صباح ـ ليته ما كان ـ كنت وحدك يا عادل، تنتظر أن تدب الحـركـة فـى الديوان، لـكن الحـركـة تراخت، حـتى أصبح النهار ضحى وراجت شائعات مختلفة عن هذا الركود الذى سيطر على الجو، فمن قائل إن هناك أزمة تهدد كيان الوزارة، ومن قائل إنه أمر عادى لا يصح أن يثير التعليقات.

وفجأة جاءت سيارتها: سيارة سيدة البر والتقوى.

ونزل السائق مسرعاً يبحث عن واحد ـ أى واحد ـ من مكتب معالى الوزير.

ولما لم يجد أحداً، ترك معى رسالة مغلقة، قائلا:

إنها منها ـ سيدة البر والتقوى ـ وإنها عاجلة جداً وهامة جداً.

وكانت الرسالة موجهة إلى معالى الوزير شخصياً.

وكان علىَّ أن أبحث عن سكرتيره الخاص لأستشيره فى الأمر. ولم أجد السكرتير الخاص إلا فى منزل معالى الوزير.

ولما أخبرته عن الرسالة الهامة العاجلة، طلب منى أن أنتظر على التليفون حتى يخبر معالى الوزير.

وبينما أنا فى انتظاره على الجانب الآخر، إذا بصوت معالى الوزير بنفسه يطلب منى أن أفض الرسالة حالا، وأن

أقرأها عليه، فإنه ينتظر أن تحوى مسألة عاجلة جداً.

ولقد كانت فاجعة، كادت تحطم فؤادى بل، إنها حطمت فعلا، ما ادخرته فى حياتى من الثقة بالناس.

"قل لدولة الباشا ألا يهتم بصاحبنا. أنا لا أريد أن أتصل بدولته مباشرة، فأنت تعلم رأيى فى زوجته !! الإنجليز معكم، وسينصرون دولة الباشا عليه !! لعله بعد هذا يعقل !! فبدون هذا، فإن التأييد لا يكون مضموناً على الدوام. البركة فيك يا معالى وزير الدولة. أما الحلاوة، فيجب أن تكون هذه المرة كبيرة جداً."

هكذا كانت الرسالة التى تلوتها على معالى الوزير.

وكدت أسمع نشوته تهز خطوط التليفون، وهو يطلب منى فى فرحة غامرة ظافرة أن أعيد قراءتها مرة أخرى.

فلما تأكد مما سمع، عاد صوته يغلظ فى استعلاء:

- من أنت؟ ما اسمك؟

- اليوزباشى عادل برهان يا معالى الوزير.

- من قوة حرس الوزارات؟

- نعم يا معالى الوزير.

- اسمع إياك أن تكرر ما سمعته لأحد، وإلا فسينالك أشد العقاب.

ولم أرد. إن المفاجأة التى تعاقبت على سمعى فى لحظة، أنستى أن أرد. لكن معالى الوزير مضى يقول لى فى صوته الغليظ:

- على أن تحضر على الفور بالخطاب لتسلمه لى شخصيا، وتنسى ما فيه. أتسمع؟ تنسى نهائيا ما فيه.

وعشت أياماً من عمرك يا عادل برهان، وأنت تردد فيما بينك وبين نفسك بعضاً من وحى الرسالة.

سيدة البر والتقوى عميلة بريطانية !

سيدة البر والتقوى وسيط للوزارة عند الإنجليز !

سيدة البر والتقوى تتصل برئيس الحكومة من طريق أحد الوزراء، لتتفادى زوجته ! سيدة البر والتقوى تنصح رئيس الحكومة بأن يعقل وإلا فإن بقاءه يكون غير مضمون!!

سيدة البر والتقوى تطلب الحلاوة، ويجب أن تكون هذه المرة كبيرة جداً !!

وماذا يمكن أن تكون هذه الحلاوة الكبيرة جداً؟

ماذا يمكن أن يكون ثمن البقاء فى الحكم، عند المسعورين على الحكم؟

لقد قدمت للحكومة تأييد الإنجليز الذين سينصرون دولة الباشا "عليه" على من؟ عليك أنت يا عادل برهان؟ على

من؟ لابد أن المقصود هو الملك ! وكم يساوى ثمن الانتصار على الملك يا عادل؟

إذن لم تكن ملابس التمريض البيضاء، إلا غطاء للنوايا السود، وللقلوب السود، وللضمائر السود !

إذن لم تكن الصيحات والنداءات بإغاثة الملهوفين المحتاجين، إلا غطاء براقاً لفتن ولمؤامرات، تحاك فى الظلمات.

وكل أعمال البر، وكل مظاهر التقوى، تجارة رائجة السوق.

ترى كم سيدة فاضلة خدعتها هذه المظاهر؟ وكم فتاة طاهرة صدقت هذه الملابس البيض؟

●●●

وكادت الدموع تطفر من عينى الضابط الشاب، وهو يذكر الفتى "مدثر" وما كان يقوله له منذ قليل.

لقد كان كل أمله أن يحصل لأهل كلابشة على التموين، ليوزعه عليهم بلا ربح.

وبغير أن يكون عميلاً لأحد.

وبلا أن يكون وسيطاً فى عمل غير شريف.

وبدون أن يرسل الرسالات سراً، ومن وراء ستار.

وبلا أن يطلب من أحد أن يجزيه عن هذه الخدمات، بنوع من الحلاوة، لا الصغير جداً، ولا الكبير جداً.

"ومدثر" مع هذا يعول جداً عجوزاً وجَدَّة ثكلى وأما أرملة.

"ومدثر" برغم هذا مسئول عن بيت معروف فى هذه النجوع جميعاً، بعد أن لم يعد فى هذا البيت رجل قادر على العمل سواه.

"ومدثر" لن يسألهم أجراً على ما يقدم من خدمات.

"ومدثر" لن يطلب ثمناً على عمل يؤديه خدمة لمواطنيه، فلقد شب على أن هذه الخدمة واجبة على من استطاعها، والتقصير عن أدائها إخلال بالعهد، وهروب من دفع دين الجماعة فى عنق الفرد.

ويهتز عادل برهان فى مكانه، وهو يكاد يصيح بأعلى صوته:

ليتنى لم أخدع بها. ليتنى لم أرفعها إلى السماء.

لقد مرَّ بى وقت تمنيت فيه لو أنها كانت أمى.

ماذا لو تحققت لك هذه الأمنية، واستجابت لك السماء، فغدوت ابناً لها: سيدة البر والتقوى !

ويكاد عادل برهان يبكى، وهو يتصور نفسه ابناً لعملية خائنة تبيع شرف بلادها فى ورق مفضض !!

لكنه يعود فيتذكر أن الأمنية لم تتحقق، وأنه لم يصبح فى غمضة عين، ابناً لهذه السيدة المخادعة، التى برعت فى تمثيل دور الراهبة، فإذا وراءها جيش من السيدات والفتيات أقبلن للخير، ولا تعلم واحدة منهن أنها ليست أكثر من ستارة رقيقة تخفى وراءها أطماعاً خسيسة ونوايا رخيصة.

ويخشى الضابط الشاب من المضى فى هذا اللون من التفكير، فإنه يؤدى إلى الجنون.

وهز عادل برهان رأسه، وعاد إلى ذكريات من عمره لا تنسى.

●●●

والذكريات التى لا تنسى تقف طويلا عند اللحظة التى عاد فيها الضابط إلى مكانه فى حرس الوزارات، بعد أن سلم خطاب سيدة البر والتقوى إلى معالى الوزير.

لقد ساورته الهواجس، بأنه ربما كان الأمر كله لا يعدو أن يكون لعبة بارعة، للضحك على قوم سذّج، وإن كانوا وزراء !! وما الدليل على أن ما جاء فى خطابها صحيح؟ ألا

يصح أن يكون رئيس الوزراء مخدوعاً فيها، وأنها ـ باسم هذا الخداع ـ تنال كل ما تريده من سلطان وجاه؟

وتمنى عادل برهان أن تكون المسألة ضحكاً فى ضحك، كما تمنى لو استطاع أن يكشف أمرها تشفياً من كل مضلل كذاب.

لقد كان واضحاً من الوخم الذى ساد لاظوغلى فى ذلك اليوم أن الأمر لا يمكن أن يكون طبيعياً. إن أيام الجمع والأعياد أكثر نشاطاً من ذلك اليوم الراكد الجامد البليد.

لابد أن هناك شيئاً غير عادى.

لابد أنها أزمة وزارية، ومن الأزمات ما هو عابر، ومنها ما قد يؤدى إلى خروج الوزارة من الحكم.

وأزمة ذلك اليوم كانت من النوع الشديد، الذى يجعل رئيس الوزراء يلزم داره، كما يجعل أغلب الوزراء يعتكفون، لتنشر صحف المعارضة فى اليوم التالى أنباء هذا الاعتكاف فى صفحاتها الأولى، وإلى جواره عشرات من علامات التعجب والاستفهام.

وبينما هو كذلك يدير الاحتمالات فى رأسه.

وبينما هو يفكر فى الأزمة الوزارية ونتائجها.

وبينما هو يتمنى أن تنتهى هذه الأزمة على غير ما جاء فى خطاب سيدة البر والتقوى لمجرد أن ينكشف أمرها له ولأعضاء الوزارة جميعاً.

...إذا دولة رئيس الوزراء يشفى، ويعود إلى مكتبه ! وبعد أن كانت دوائر الرياسة قد أخذت تذيع أن دولته مصاب بوعكة ألزمته الفراش، إذا دولته يشفى ... نعم يشفى ! ويعود إلى مباشرة مهام منصبه !

كذلك الوزراء. شفى الوزراء جميعاً تغلبوا على أمراض القلب والكبد والبنكرياس، وتغلبوا على السكر والزلال وضغط الدم، وعادوا يباشرون أعمالهم والصحة الغامرة، تطفح على وجوههم !

وبعودة دولة رئيس الوزراء.

وبعودة أصحاب المعالى الوزراء.

وبعودة مديرى المكاتب، والسكرتيرين الخصوصيين والفنيين والبرلمانيين.

بعودة كل هؤلاء، عادت لاظوغلى تزدحم بالناس، يتدافعون بالمناكب وكل منهم يروى قصة عن دولة الرئيس أو عن أحد أصحاب المعالى، على قدر ما تكون له من حاجة

يريد أن يقضيها. وكل القصص تكيل المديح لرئيس الوزراء وأصحاب المعالى الوزراء، وتظهر جانباً من جوانب النبوغ والتفوق فى دولتهم أو معاليهم !!

●●●

ويضحك الضابط الشاب عادل برهان من هذا الزيف المشوه، فتردد لضحكاته أصداء، فى ليل النوبة الواضح الصريح الذى لا يعرف الالتواء.

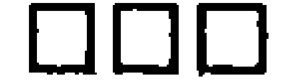
ومع نهايات هذه الضحكات، وإنها لتخترق طيات الليل كالطلقات، يطل عادل برهان من نافذته فى النجع القبلى من خور رحمة، فيرى النيل الخالد وادعاً والسماء الصافية ترخى عليه من حبها ستاراً أزرق.

وينصت فيسمع حفيف الريح يختلط بخرير الماء.

لكن صوتاً آخر يخترق الطريق إلى سمعه:

قارب يتهادى على صفحة النيل، يبحث عن مكان يلقى فيه الشباك، بحثاً عن صيد.. حلال.

و"مدثر" الصياد الفتى جالس إلى جوار الدفة، يرقب الكون والشباك وجمال الطبيعة.. فى ابتهال.



(5)

- تأخرت علينا يا سعادة الرئيس.

- معذرة. أرجو أن تسامحنى يا فضيلة الأمين العام.

- إن الجمعية العمومية مكتملة اليوم، وهى فى انتظار تشريف سعادة الرئيس منذ أكثر من ساعة.

- يا قوة الله، ساعة ! وفى هذه الساعة كان من الممكن للجمعية العمومية أن تفتح عكا، أو تخرج الإنجليز من مصر!! إنى آسف، اعذرونى يا حضرات السادة أعضاء الجمعية العمومية "لكلوب محمد على" !!

●●●

وأخذ اليوزباشى عادل برهان يصافح عدداً من الأصدقاء، وقفوا يستقبلونه فى شوق، تبدو عليه مظاهر الحرارة والصدق.

ومع كل مصافحة، كانت تنطلق من عادل برهان، عبارة للترحيب، أو جملة للدعابة.

●●●

- أهلاً سيدنا الشيخ.. ألا تزال تحتفظ بتذكرة داود، أم سلمتها للكمسارى؟

ويرد الشيخ داود، فى مرح:

- كل ذلك متوقف على أعصابك، هلا تزال محتاجاً لتذكرة داود، أم أنك أخذت على كلابشة، ونسيت لاظوغلى.. يالا.. ظوغلة؟!

وينتهى عادل برهان من المفتش بوزارة الأوقاف، كما يقول الشيخ داود عن نفسه، وهو يطلق دعابته التقليدية:

- نعم المفتش بوزارة الأوقاف، وكفى ! لماذا تضيفون مفتش المساجد؟ كلهم مفتش. قد يأخذوننى على أنى مفتش أملاك. أو مفتش زراعة. كله مفتش والسلام.

فإن قيل للشيخ داود:

- وما عيب مفتش المساجد؟

عندئذ يقول فى صراحته المعهودة:

- ما معنى مفتش مساجد يا أولاد؟ هل يفتش على قلوب المصلين، ليعرف حقيقة إيمانهم؟ هل يفتش على الناس ليعرف مدى قيامهم بالصلاة؟ إنه مفتش على نظافة المسجد. على حالة السجاجيد أو الحصير. على أماكن

الوضوء. على دورات المياه على الأئمة المساكين، من أمثال صاحبنا، المبتلى بنا، الشيخ سعد.

وينتهى عادل برهان من الشيخ داود، ليضع يده فى يد أخرى، وعلى لسانه كلام آخر.

●●●

- أين أنت يا دكتور فرج. لقد طالت غيبتك عنا. أترى نسيتنا أم أنها تعليمات الأسياد؟

ويضج الجمع بالضحك والشيخ سعد يقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم. اجعل يا رب كلامنا خفيفاً على قلوبهم. ويقول الدكتور فرج:

- خصوصاً هؤلاء يا سيدنا الشيخ. إنهم ليسوا عفاريت عاديين، إنهم عفاريت فراعنة أتعرف ما معنى فراعنة؟!.

وعندما يتطلع الشيخ داود فى بلاهة، يقول له حضرة الضابط:

- نسيت أن أقول لك يا شيخ داود، إن الدكتور فرج لا يتلقى تعليماته من أحد، لامنا، ولا من مدير الآثار. إنه يتلقى تعليماته من عفاريت قدماء المصريين.

ويبادر الشيخ داود قائلاً:

- أو يتصل بهم؟

ويجيب الضابط:

- طبعاً، ولا يتحرك إلا بإذنهم. بل إنهم هم الذين عينوه مفتشاً للآثار !

- ومن يدرى ربما يكونون أيضاً هم الذين خلّفوه !!

ويضج الجمع بالضحك.

ويترك عادل برهان الدكتور فرج، ليضع يده فى يد أخرى، مع تعليق آخر.

●●●

- أهلاً.. أهلاً.. أهلاً بالنيل وتنظيم مجرى النيل. لماذا تركوك يا باشمهندس؟

إننا نسمع كل يوم أخباراً عن الفيضان وإعلان حالة الطوارى بين رجال الرى. لكن يظهر أنك يا أستاذ مهدى مهندس تحاريق لا مهندس فيضانات !

- أنا قادم هذه المرة لأفتش عليكم أنتم: إن علىّ أن أطمئن إلى أنكم لم تعطشوا بعد. وترتفع أصوات مختلفة بالضحك أو التعليق أو الثناء على هذه الهمة والاهتمام من الصديق والزميل مهندس الرى الأستاذ مهدى.

ويمضى عادل برهان ليصافح يداً أخرى، وعلى لسانه كلام آخر.

- والعلم والنور. الماء والهواء، والغذاء والكساء. أهلاً أهلاً بالتعليم ومفتش التعليم. والله إنى مطمئن على نفسى عندما أراك يا أستاذ درويش.

- وأنا أيضاً أطمئن على مصيرى عندما أراك.

- لماذا يا أستاذ درويش؟

- إنك يا عادل بك تلميذ لا تزال، وكلما كثر أمثالك فمستقبل العاملين فى التعليم مضمون.

- إذن استمر تلميذاً خدمة لك ولأولادك. إن من أصعب الأمور على نفسى أن أشعر أنى سبب فى تشريدكم.

ويضحك الجمع من الأصدقاء، وعادل برهان يصافح صديقاً آخر بتعليق آخر.

●●●

- صحيح إن الصحة تاج على رءوس الأصحاء، لايراه إلا المرضى، المرضى! أسمعت يا أستاذ برعى؟! أقول المرضى.

.- نعم سمعت يا حضرة اليوزباشى، سمعت، وإنى على كل حال قد سبقتكم جميعاً وأخذت الأدوية التى أحضرها الدكتور مرجان معه. لم يبق معه شئ. اطمئن.

- إياك تكون قد نسيت أن تأخذ منه دواء لداء الملوك.

أهو داء الملوك أم داء الصعاليك؟

- الملوك.. الملوك يا وزير داخليتنا. الملوك ألسنا هنا ملوكاً؟ والله ملوك. صحيح ملوك على قدّ الحال، لكن ملوك.

- تعزى نفسك وتعزينا. جبر الله خاطرك يا أستاذ برعى.

- بل هى الحقيقة أقولها.

- ربنا يخليك لنا، وتتخيل ما تشاء يا صاحب الجلالة برعى الصفر.

- الله ... الله يطول لنا فى عمرك. برعى الصفر. هل سمع أحدكم شيئاً كهذا من قبل؟

- لا تؤاخذنى. أنت تعرف أنك قبل الأول. أنت عاهل الأسرة البرعية. أنت مؤسس المملكة البرعية. أنت برعى الصفر.

وبينما كان الجميع يضجون بالضحك، كان عادل برهان يصافح الدكتور مرجان بحرارة وهو يرحب به فى اجتماع الجمعية العمومية !!

ولا يكتفى عادل برهان بالترحيب بهؤلاء، فإنه يصافح الباقين، وهو يعقب تعقيباً عاماً خالياً من التفصيلات.

- أهلاً عم نخلة ... أم هل لابد من نخلة أفندى؟ أهلاً بالبريد. المتأنى والمستعجل! وأنت كيف حالك يا شيخ سعد؟ كيف حال المئذنة؟ هلا تزال تهتز تحت قدميك؟ وحشتونا يا أساتذة يا رجال التعليم، أو ياثلاثى التعليم "المرح"!! إن الجيل الذى يشرف عليه الثلاثى: برعى ومحروس ورجب، هو الجيل الذى سيتزعم بلاد النوبة، بما فيها من شجر الدوم وقطعان الماعز الجائعة.

ويقول الأستاذ برعى:

- إنى عن مدرسة كلابشة التى أنا ناظرها. إنى بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن زميلى المدرسين الوحيدين هنا. بل وبالنيابة عن الجيل الذى تتحدث عنه نشكرك على هذه التحية البوليسية.. الكاكى.

ويشتد الضحك بين الجمع، بينما يقول نخلة أفندى:

- يا عادل بك يحسن أن تؤجل هذا المزاح. أتنسى أن هنا حضرة مفتش التعليم، الأستاذ درويش؟

ويقول عادل برهان:

- ومفتش الأوقاف الشيخ داود. والمفتشون الآخرون وماذا فى هذا؟

يقول نخلة أفندى:

- لا لا.. هناك حدود يا رجل. هذا مفتش.. وذاك..

وقبل أن يتم كلامه ينطلق الشيخ سعد وهو يقول:

- نفر.. أى والله نفر مسكين. عليه أن يصعد المئذنة التى تهتز تحت قدميه، ويؤذن فى الناس للصلاة خمس مرات كل يوم، ويؤم المصلين، ويعطى الدروس الدينية، ويشرف بعد هذا على نظافة المسجد.

ويصيح نخلة أفندى:

- ونسيت شيئاً آخر هاماً جداً.

ويقول الشيخ سعد:

- ذكرنى ذكرك الله بالطيبات.

يقول نخلة أفندى:

- تخطب الجمعة ـ كل جمعة ـ غير الأعياد.

ويعقب الشيخ سعد:

- أى والله، أخطب. بارك الله فيك يا نخلة أفندى. صحيح إن أهل الكتاب جميعاً أخوة. لولا أن نخلة أفندى من أهل الكتاب، ماذكرنى بهذا أبداً.

ويعود عادل برهان إلى مزاحه فيقول:

- كنت تحدثنى عن رجال التعليم. هل تعنى أنه لابد من أن نلزم جانب الأدب حتى لا يحرج حضرة الناظر والمدرسون، أمام سعادة المفتش؟

ويجيب نخلة أفندى:

- طبعاً يا بنى طبعاً. تصور أن مفتش الداخلية جاءنا ذات يوم، هل تحب أن نمزح معك أمامه على هذه الصورة؟

قال عادل برهان وهو يكاد يستلقى على ظهره من الضحك:

- يا سيدى. إن شاء الله يا شيخ إن شاء الله. ضربوا الأعور على عينه، قال "خسرانة خسرانة" !!

- لا لا .. لا يجوز، لا يجوز.

- ماذا يمكن أن يعمله يا عم نخلة؟ هل ينقلنى إلى كلابشة؟..

ويضج الجميع بالضحك.

ويستأنف عادل برهان حديثه قائلا:

- على كل حال اطمئن.أولاً السادة المفتشون يعرفون تماماً أننا جميعاً، ومعنا مرؤسوهم، بجلهم كل الإجلال، ونحترمهم

كل الاحتـرام. وإذا كنت نمزح معـهم فلسـببين: الأول أننا نعتبرهم أعضاء فى جمعيتنا العمومية لكلوب محمد على فى كلابشة، وهم لا يحضرون إلا كل بضعة أشهر، ولعلها من أمتع المصادفات أن يجتمعوا جميعاً معنا الليلة. المفتشون جميعاً: مفتش التعليم ومفتش الآثار، ومفتش الصحة ومفتش التحاريق، ومفتش الأوقاف.. فقط.. هكذا على إطلاق اللفظ كما يقول الشيخ داود ! أما السبب الثانى فلأننا لو لم نمزح هكذا يا عم نخلة، هنا فى كلابشة لحقت علينا اللعنة. لأصابنا شئ. ضغط دم، سكر، صداع، أنفلونزا. أى شئ ! وحضرات المفتشين يا عم نخلة يعرفون هذا، ومن أجل هذا فهم يقدرون لأعضاء اللجنة التنفيذية لكلوب محمد على بطولتهم، وربما يحسدونهم عليها. إننا ـ باستثناء سعادتك ـ منفيون كلنا ـ باستثناء سعادتك ـ مبعدون. كلنا ـ باستثناء سعادتك ـ فى معتقل. يا عم نخلة هل لابد لنا من رعاية المناصب والمراكز حتى فى المنفى، والمعتقل. إن أبدع ديموقراطية يا عم نخلة، هى ديموقراطية السجن والنفى والمشنقة.

ويسرع نخلة أفندى صائحاً:

– أعوذ بالله. أعوذ بالله.

بينما يضج الجمع بالضحك، وعادل برهان يؤكد هذا الكلام.

- لا تصدق يا عم نخلة أن هناك ديموقراطية أخرى مثل هذه الديموقراطية فى أى مجتمع آخر، هناك تزييف وتمثيل. لكن فى السجن، ومصير المسجونين جميعاً واحد كيف يمكن أن يكون هناك تزييف أو تمثيل؟ تزييف لأى شئ؟ لا شئ هناك يزيف أو يستحق أن يزيف ! وتمثيل على من؟ من يمثل على من؟ لامبرر هناك للتمثيل. بل ليس هناك من يمثل، وليس هناك من يجوز عليه التمثيل، كلهم سواء، مساجين أو معتقلون. كذلك فى المشنقة تتمثل الديموقراطية على أوسع معانيها. المحكوم عليهم بالإعدام متساوون. قد تختلف الجريمة. هذا سارق، وذاك قاتل، والثالث جاسوس أو خائن. وكلهم بلا استثناء أمام حبل المشنقة سواء، فإن حبل المشنقة لا يعرف الفرق بين رقبة ورقبة كلها رقاب مطلوب فكها !!

ويتمتم نخلة أفندى:

- يا ربْ استر. يا رب استر.

ويقول الشيخ سعد:

- لا تخف يا نخلة أفندى، الموت حق، ولقاء الله حق.

ويصيح نخلة أفندى:

- يا أخى أنا أعرف أنه حق، لكن مالنا وهذه السيرة.

ويقول عادل برهان:

- ألا نتحدث عن الفروق بين المفتشين والصعاليك.. لا تؤاخذونى.

ويضحكون جميعاً لكلمة صعاليك.

ويستأنف عادل برهان كلامه:

- ألا نتحدث عن الديموقراطية. اسمع يا عم نخلة..

ويقاطع نخلة افندى وهو يقول:

- يا سيدى أنا لم أطالب بشئ من هذا. أنا لا شأن لى بالديموقراطية أنا كنت فقط أتحدث عن مراعاة وجود أسيادنا المفتشين. إنهم قادمون ليفتشوا على موظفيهم هنا، وعلى أعمالهم. وأنت يا حضرة الضابط تخلط الجد بالهزل. أنت لا تزال فتى صغيراً. لا تزال أمامك تجارب طويلة.

ويقول عادل برهان:

- أيَّة تجارب؟ المسألة ليست بالسن يا عم نخلة. إن عندى من التجارب ما يفوق تجاربك. على كل حال دعنى أولا أحدثك عن الديموقراطية الحقة، مع احترامنا لحضور أصحاب الفضيلة والسعادة المفتشين، ومع اعترافنا بأن مقام حضراتهم

محفوظ على عيوننا ورءوسنا.

ويصيح نخلة أفندى:

- يا حضرة الضابط.

ويصيح الضابط؟

- يا عم نخلة.

ويصيح نخلة افندى:

- قد يؤذون إخواننا المقيمين هنا.

ويصيح الضابط:

- يا راجل. إنهم أصدقاؤنا وأعضاء جمعيتنا العمومية. وهم يقدرون حالنا هنا. إنهم يعرفون أننا فى سجن، فى معتقل، فى منفى باستثناء سعادتك بطبيعة الحال. وهذا الاضطهاد الذى نعانية، مثل حالات المرض أو الحاجة أو الوباء، يفرض علينا نوعاً من الديموقراطية، كما تفرضها حالات الضعف جميعاً. دعنى الآن أعطيك نتيجة تجربتى عن الديموقراطية فمثلاً فى الموت ديموقراطية.

وعاد نخلة أفندى يصيح:

- يا أخى أليست على لسانك سيرة أخرى؟

ويقول عادل برهان:

- لماذا تهرب من الحقائق. إن ديموقراطية الموت شئ رائع. هل هناك ميت أحسن من ميت؟ أو أفضل منه عند الله إلا بالتقوى، حتى لا يحتج علينا الشيخ سعد؟ وهل هناك ميت يدفن فى جزء من الأرض أوسع من جسمه؟! هذه هى الديموقراطية، فى المعاملة، وفى توزيع الأرض على الموتى.

ويعود نخلة أفندى يقول:

- يا سيدى أرجوك، هذا الكلام شديد على نفسى. إنى لا أتحمل إنى رجل ضعيف.

ويقول عادل برهان:

- باختصار يا عم نخلة أنا وصلت إلى حقيقة هامة جداً فى فهمى للديموقراطية. إنها إما مظهر الضعف والحاجة، أو مظهر من مظاهر الغنى والترف والقوة. ولاوسط. الأوساط الضعيفة المحتاجة تسود فيها الديموقراطية. إن حالات الضعف والحاجة فى أى مجتمع تفرض هذه الديموقراطية. كذلك لا تتحقق هذه الديموقراطية إلا فى الجانب الآخر. فى الضفة الأخرى، المتناقضة مع الحاجة والضعف. فى حالات الغنى والترف.

ويقول الدكتور فرج مفتش الآثار:

- تعنى الغنى والترف المادى؟ إن كان هذا ما تعنيه، فإن الأمر يحتاج إلى إثبات، فإن كنت تعنى الغنى والترف فى كل عناصر الحياة الإنسانية، فى المادة والعقل والوجدان جميعاً، فإن تطور التاريخ يثبت هذا فعلا، صحيح أن الديموقراطية مظهر من مظاهر الرقى العقلى، لا تصل إليه الجماعات الضعيفة.

ويقول عادل برهان:

- بل إن الديموقراطية مظهر من مظاهر الحاجة والضعف كذلك.

ويرد الدكتور فرج:

- هذه ليست ديموقراطية علمية أو سياسية. إنها نوع من التعاون الذى تفرضه الحاجة يا عادل بك. أما الديموقراطية بمعناها السياسى، كما قصد إليها الفلاسفة منذ عهد أرسطو، فهى مظهر من مظاهر الرقى العقلى، كما أنها كذلك دليل على النضج العاطفى، فى وجدان الجماعة.

وتنتهى هذه المناقشة الفرعية عندما يقول عادل برهان:

- على كل حال، ستكون لنا مناقشات طويلة يا دكتور.

●●●

هذا هو مجتمع المغتربين فى كلابشة. أو هذه هى حكومة كلابشة:

ضابط النقطة. ناظر المدرسة. المدرسان الوحيدان اللذان يعملان بها. إمام المسجد. وكيل البريد.

هؤلاء هم الهيئة التنفيذية الدائمة، وهم الذين يكونون الحكومة الصغيرة فى نجوع كلابشة.

أما الآخرون فوافدون. بعضهم وافد من أسوان، حيث إقامته الدائمة، وبعضهم وافد من بعض عواصم الصعيد الأخرى، حيث يفتش على بعض أجزاء الصعيد، ويمتد اختصاصه حتى حدود مصر الجنوبية فى بلاد النوبة. ونادراً ما يكون بعضهم وافداً من القاهرة للتفتيش على هذه البلاد.

على أن هؤلاء المفتشين لا يفتشون على كلابشة وحدها، لكنهم يفتشون على بلاد النوبة كلها.

يفتشون على وادى السبوع والدكة وأبريم والدرّ وعنيبة، بل ويذهبون جنوباً إلى بلانة وأبى سمبل. وقد يتم هذا التفتيش مرة كل بضعة أشهر أو كل عام، فإنه يستغرق منهم عدة أسابيع، يقابلون فيها أصنافاً من الناس، راضية بنصيبها من

الدنيا كنخلة أفندى، أو مستسلمة لقضاء نزل كالشيخ سعد، أو ساكنة لأنها عاجزة عن الكلام والتعبير كثلاثى التعليم، أو ساخطة ثائرة ساخرة كعادل برهان.

والمفتشون الذين يمرون على هذه البلاد، يقدرون ظروف من فيها، ويحاولون بقدر ما يستطيعون أن يخففوا عنهم. إنهم يعلمون أنهم فى منفى، ولو أن واحداً منهم عاش فترة من حياته فى هذه البلاد، يصحو عليها وينام عليها، لا يرى إلا النيل والرمل والبيت الذى يسكنه، إذن لأصابته فى قواه العقلية لوثة !

والمفتشون يعلمون أن أهم ما يخفف عن هؤلاء، أن يحيوا فى قلوبهم الأمل والرجاء. وأيّا كان هذا الأمل سراباً، فإنه يداوى ولو إلى حين شوقهم إلى العمران. وأياً كان هذا الرجاء كذباً واختلافاً، فإنه يعالج ولو قليلاً رغبتهم فى العودة إلى الأهل والأصدقاء.

والمفتشون يعلمون أن وراء كل واحد من هؤلاء قصة.

إنهم لا ينقلوا إلى هذه البلاد عفواً، ولا ترضية، ولا ترقية، ولا قضاء وقدراً. كلا لكنهم أبعدوا إلى هذه البلاد إبعاداً، وأقصوا إليها إقصاء. وبدلاً من أن يفصلوا فقد رأى المسئولون

تأديبهم بما هو أشد من الفصل، أن يرسلوا إلى هنا. يقاسون هذه الوحدة، وينسون الدنيا، وينساهم الناس.

●●●

عادل برهان تلقفوه يوم تخرج فى كلية البوليس، ليجلسوه على كرسى هزاز فى حرس الوزارات ! ولم يكن ذلك لتفوقه فى الدروس، ولا لقدرته الرياضية، ولا لمؤهلات لا تتوافر فى سواه. وإنما حدث ذلك رعاية لأبيه. إنه من أسرة كبيرة لها مكانتها فى الحياة الحزبية. أبوه من المحامين القلائل الذين عالجوا القضايا السياسية وبرعوا فيها ومن طريقها دخل البرلمان. كان عضواً فى مجلس النواب، فلما زاد شهرة انتخب عضواً فى مجلس الشيوخ. وهو خطيب ممتاز، يهز منبر المجلس عندما يريد، فتهتز معه الثقة بالحكومة، إذا كان يعارض الحكومة. كون ثروة لا بأس بها، يسرت له الرزق فلم يعد فى حاجة إلى دخل لامن المحاماة ولا من عضوية البرلمان. وقد عرف عنه أنه رجل طموح.إنه يسعى وراء المجد السياسى. إنه يريد أن يصبح وزيراً. والمال ليس مسعاه. وقد يسرت له هذه العناصر الطريق إلى الشهرة والاسم العريض. وعندما تخرج عادل برهان فى كلية البوليس، تسابقت إدارات مختلفة لإلحاقه بها، تقرباً وزلفى

للوالد المشهور، إدارة الجوازات سعت إليه. حكمدارية بوليس القاهرة طلبته. المباحث العامة أغرته. وإدارات أخرى مختلفة. لكنه فضل، أو فضل له والده أن يلتحق بحرس الوزارات.

وعندما التحق عادل برهان بحرس الوزارات، قال كل زملائه، وكل الضابط الذين يتطلعون إلى مكانه: طبعاً وهل أقل من هذا؟

وعاش محسوداً من زملائه سنوات عمله فى حرس الوزارات.

بل آخرون غير زملائه كانوا يحسدونه كذلك.

وغير هؤلاء وأولئك كثيرون كانوا يتملقونه.

حتى بعض أصحاب المناصب: لواءات، حكمدارية. مديرون، نواب، أعيان، تجار، وغيرهم من مهن مختلفة كانوا يظنون أن بيده أن يقضى المصالح، فكانوا يتقربون إليه، ويحاولون إقناعه بالتدخل. وعندما كان يعتذر بأنه لا يستطيع، وأنه ليس أكثر من ضابط بوليس فى حرس الوزارات، كانوا يعتبرون ذلك تخلصاً. ولقد حاول كثيرون أن يرشوه.

قالوا عن الرشوة إنها هدية بسيطة تعبر عن عظيم التقدير له. قلما كان يعتذر عن قبول الرشاوى أو الهدايا كما يقولون، كانوا يتصورون أنه يستقل رشاواهم !!

لكنه مع هذا كان سعيداً بعمله، فهو عمل محدود ونظيف ومريح. إنه يتعامل مع طبقة خاصة حاكمة، ويتمتع بامتيازات لا حدَّ لها. لا شأن له بالأزقة والحوارى وما يجرى فى الأزقة والحوارى من حوادث مزعجة تحطم الأعصاب. والويل كل الويل من العمل فى الريف وسط جرائم الأخذ بالثأر التى لا نهاية لها.

هذا فضلاً عن أن ما كان يحيط به من نفاق، كان يرضى غروره.

فلما انتهى عهد الحكومات التى لوالده بها صلات مودة وتعاون، وجاءت حكومة يخاصمها أبوه، كان أول ما فعلته أن نقلت الضابط عادل برهان إلى كلابشة، وكان قد وصل من طريق الترقيات الاستثنائية إلى رتبة اليوزباشى.

أما أبوه، فإنه لم يجد من الكرامة أن يتدخل.

وكيف يرجو هؤلاء الكلاب ليعدلوا نقل ابنه، فلا يذهب إلى كلابشة.

لقد أخذ الشيخ المحترم يصيح:

هذا هو قصدهم. إنهم يريدون إذلالى. يريدون أن يرغمونى على أن أرجوهم بشأن عادل، أبداً، أبداً، لن أفعل هذا أبداً. إن عادل ابنى. إنه رجل، وهو قادر على أن يذهب إلى كلابشة وإلى حلفا، وإلى توكر كذلك، ولا يشكو إنه لن يعطيهم هذه الفرصة، أن يرغموا أباه على الرجاء.

ولم يكن عادل برهان يعرف من قبل أن هناك بلداً اسمه كلابشة.

وقد كان يتصور أنه بلد يضم محترفى الإجرام، نقلوه إليه حتى يحطموا أعصابه من كثرة ما يواجه من أحداث.

فلما جاء إلى كلابشة وقضى بها هذه الشهور، أخذ يحدث نفسه:

- لماذا تتذكر الحكومة فى فتح نقطة بوليس هنا؟ إن هناك سبباً واحداً لذلك أن يجدوا أماكن كافية لنفى أمثالى ! أما أن يكون لهذه النقطة معنى آخر، فلا.

وكثيراً ما كان يقول لأصدقائه فى سهراتهم:

- أريد حادثة واحدة تشغل بالى. أريد أن أخط مرة سطراً فى صحيفة الأحوال. يا عالم، أليس عندكم مخالفة

للنظام؟ ألا ترتكبون يوماً حماقة يعاقب عليها القانون؟ أليس فى رأس واحد منكم تفكير آثم، يصحبه ذات يوم.. التنفيذ؟! إنى، والصول الذى تحت إمرتى، والشاويش، والعساكر.. كلنا هنا متفرجون !! لم يبق إلا أن نرتكب نحن بعض المخالفات ستراً لعورة نقطة البوليس !!

●●●

أما الأستاذ برعى فإن قصته تختلف عن قصة عادل برهان.

إنه ليس ابناً لأحد أعضاء النواب أو الشيوخ. لا ولا هو من أسرة لها صلة بالأحزاب إنه فلاح من إحدى قرى الوجه البحرى، تعلم من تقاليد القرية أن يكون رجلاً، وأن يبرَّ بالعهد. لكنه وقع فى أيدى فريق من الانتهازيين، باعوه ليشتروا بثمنه مصالحهم. تاجروا فيه دون أن يدرى. لقد كان هو الترام الذى باعه محتال وقبض ثمنه، دون أن يدرى الترام أنه صفقة رابحة فى يد هذا المحتال.

إنه يهز رأسه وهو يقول:

- المرء محتاج إلى هذا ليتعلم. التعليم ليس مجاناً.

ويداعبه عادل برهان قائلاً:

- بل مجاناً يا مولانا. التعليم أصبح مجاناً.

ويرد الرجل فى أسى:

- تعليم المدارس مجاناً يا حضرة الضابط. إنما تعليم الدنيا ليس مجاناً. ولن يصبح مجاناً يا سعادة البك. إن ثمنه فادح.

لقد تكونت للمعلمين فى المنصورة رابطة تطالب بحقوقهم. وكان هو معلماً فى المنصورة، فكان طبيعياً أن ينضم إلى الرابطة، أم ترى كان ينسحب ويتخلف عن ركب الجماعة؟! وقد كان هدف الرابطة أن تتحقق للمعلمين مطالبهم العادلة. أليسوا طائفة مؤهلة مثل بقية الطوائف؟ وألا تؤدى عملاً هاماً ومرهقاً، فى سبيل المجتمع؟ إذن فلماذا يستمر المعلمون، وهم على هذه الدرجة من الأهمية متخلفين عن جمع طوائف الأمة؟ لابد من تعديل وضعهم، حتى لا يهرب المعلمون إلى أعمال أخرى. لابد من إنصافهم.. لابد من تدبير الدرجات الكافية لهم، حتى لا يظل المعلمون يعانون الشعور بالاضطهاد، ويعانون مع هذا الشعور، الحاجة الحقيقة فى حياتهم المادية.

كلام جميل ومقنع. كلام عادل ولا غبار عليه.

ولقد تحمس الأستاذ برعى للرابطة ولأغراضها، فكان موضع ثقة زملائه فانتخبوه عضواً فى مجلس إدارة الرابطة، عن مدرسى التعليم الابتدائى.

وفى يوم قررت الرابطة، أن تنفذ قراراً أصدره المعلمون فى مؤتمر عام عقد فى القاهرة، هو أن يعتصموا بمدارسهم حتى تجاب مطالبهم.

ونفّذ الأستاذ برعى طبعاً هذا القرار.

ونفّذه معه عدد من أعضاء الرابطة.

ولم يخطر على بال واحد منهم أن هناك آخرين باعواهم ليشتروا مصالحهم.

لقد ذهبوا إلى رؤسائهم يبرئون أنفسهم من هذا القرار، ويلصقون الاتهام بزملاء لهم فى مقدمتهم الأستاذ برعى.

وقالوا إنهم محرجون، فإذا لم ينفذوا القرار، ساء موقفهم أمام زملائهم، وإذا نفذوه، فسيغضبون رؤساءهم.

- هكذا على هذا الوجه القبيح، وبهذا الصورة الخسيسة.

ويفرك الأستاذ برعى كفاً بكف وهو يضيف:

- ووجدت نفسى منقولاً إلى هنا، بلا أسرة ولا أولاد.

- ولماذا لا تحضرهم ليعيشوا معك.

- لأن الواحد منا هنا، يتصور أنه قد ينقل فى أية لحظة إلى بلاد فيها حياة. هذا فضلاً عن أن لكل واحد مصالح. وليس فينا واحد مقطوع إلى حد أن يدفن بقية عمره هنا.

●●●

كذلك كان الأستاذ محروس.

وكذلك كان الأستاذ رجب.

كل منهما كان عضواً فى رابطة من روابط المعلمين، وكل منهما كان ينفذ قرارات المعلمين. وكل منهما وقع فريسة الغدر من زملاء تاجروا بحماسته فى سبيل الحصول على مصالح خاصة بهم. لقد سخَّروا الآخرون، لينفردوا بالمصلحة دون بقية زملائهم.

- وكيف ينام هؤلاء؟ كيف تغمض لهم عيون؟

هكذا يسأل الأستاذ محروس. فيجيبه الأستاذ رجب:

- يا أخى ينامون ويتمددون !! ماذا يهمهم؟ لقد نالوا وحدهم الترقيات التى طالب بها زملاؤهم. ومنهم من تسلق درجات السلم إلى مناصب تخجل منهم. لكن ماذا يهمهم؟

- ضمائرهم. ألا تهمهم ضمائرهم؟ ألا تعذبهم ضمائرهم؟

- يا أستاذ محروس لو أن لهؤلاء ضمائر لكانوا معنا الآن هنا.

- أهكذا الضمير، يقود أصحابه إلى العذاب؟ وإلى متى يعيش الآخرون بلا ضمير؟ ألا يأتى يوم يعم فيه الضمير كل جوانب بلادنا، ولا يصبح مكانه السجن أو المعتقل، أو النفى فى هذه البلاد؟

●●●

أما الشيخ سعد فكما يقول عن نفسه، جاء إلى كلابشة قضاء وقدراً ! أى والله قضاء وقدراً ! لا لأنى صاحب رأى، ولا صاحب جهاد. أبداً، لم أكن يوماً صاحب رأى، ولست من أسرة لها رأى. لكنه القضاء والقدر. وأيضاً دعوات أمى علىَّ، عندما تزوجت واحدة غير التى خطبتها لى. ماذا أعمل، إذا كانت قد خطبت لى قردة. والله قردة، اسمها اسم إنسان.

- وكيف كان ذلك يا شيخ سعد؟

- سعد، سعد فقط؟! أنا الشيخ سعد ماركس ! أو أنا الشيخ سعدنين كما أطلق علىَّ أصدقاء الصبا.

- لكن كيف سموك سعد ماركس؟

- ما اسم الثانى؟ أليس اسمه كارل ماركس؟ أنا أيضاً سعد ماركس. أنا أخوه وهو أخى. ونحن من أب واحد هو المرحوم الشيخ ماركس.

- والاسم الآخر؟

- تقصد سعدنين؟ إنه على وزن لينين؟

- ولماذا ينسبونك إلى ماركس أو لينين؟

- لأنى ثالثهما. هل هذه حكومة؟ ألها عقل يفكر؟ لكنه القضاء، وعند القضاء يعمى البصر. الحكومة عميت، لأن هذا قضائى. هل تعرف ما الحكاية، يا سيدى فى يوم من الأيام، هاجت قوات الحكومة تتعقب الشيوعيين. إن للحكومة "مودات" مرة تتصور أن الخطر الحقيقى عليها من مصر الفتاة، فتبحث عن مصر الفتاة. ومرة تتصور أن الخطر من الإخوان فتجرى وراء الإخوان. هذه المرة كان الخطر فى نظرها فى الشيوعيين فأخذت تبحث عن الشيوعيين. وكنت إماماً لمسجد فى المنيرة تصوروا فى المنيرة. من المنيرة يا ناس إلى كلابشة !! على كل حال، الذى حدث هو أنى كنت ألقى الدرس اليومى بين المغرب والعشاء. درس دينى من كتاب الله وسنة رسوله. وخطر ببالى أن أفسر للناس يومها آية "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها

وجلعوا أعزة أهلها أذلة" والله لقد كان فى نيتى أن أؤكد أن المقصود بالملوك هنا، الملوك الفجرة، لا الملوك الصالحين.

على أنهم لم يتركونى أتمم. فقد اتضح أن بعض رجال المباحث، كانوا فى حلقة الدرس يبحثون عن شيوعى قيل لهم إنه يهرب فى المساجد بين المصلين، ليبعد بذلك عن نفسه الشبهات. فلما سمعونى أقول للناس إنى سأفسر لكم قوله تعالى:

"إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها". عندئذ تدخل رجال المباحث وقادونى إلى الشرطة. وإذا تهمتى أنى شيوعى. أنا شيوعى. ما معنى شيوعى يا حضرة الضابط؟

- ولهذا أصبح اسمك.

- الشيخ سعد ماركس. أو الشيخ سعدنين.

●●●

نخلة أفندى هو الوحيد الراضى بما قسمه الله له هنا.

نخلة أفندى هو الوحيد فى هذا المجتمع الذى سعى إلى كلابشة بقدميه.

إن نخلة افندى من أسرة طيبة، ولقد ورث عن أبية بضعة فدادين، وكان صغيراً فصرفه الميراث عن دراسته. لكن الميراث فرغ وفرغ معه عقل نخلة أفندى. ماذا يفعل؟ التحق

بهذا العمل البسيط ليستطيع أن يعيش.

لكنه أدرك أنه أخطأ. أدرك هذا الخطأ بعد فوات الأوان، ولم يعرف حتى كيف يندم ! لكنه أراد أن يكفر عن هذا الخطأ الذى ارتكبه فى حق نفسه، فقرر ألا يعرض أولاده لنفس المصير.

إن أفراد أسرته جميعاً متعلمون، ذوو مراكز، إلا هو. فلما كبر أولاده سعى إلى هذه البلاد، لامضطهداً ولا قضاء وقدراً.

إنه يعرف أنها غاية فى الرخص، وهو محتاج لكل مليم من مرتبه، ليتعلم أولاده فى المدارس والكليات.

لقد أقسم نخلة أفندى، أن يكفر عما اقترفته يداه، بهذه الطريقة القاسية وبهذا الحرمان.

كما أقسم نخلة أفندى، ألا يغير من حياته هذه شيئاً، إلا بعد أن يضمن أنه كفل لأولاده من العلم ما يجنبهم هذا المصير.

وعندما ينتهى نخلة أفندى من روايته هذه، وإنه ليرويها لمجتمع كلابشة فى اليوم مرات، حتى يقول أحد السامعين ... يقول فى كل مرة.

– ما هذا الذكاء يا عم نخلة؟

ويرد عم نخلة، كل مرة أيضاً:

- الدنيا يا ابنى ليس فيها فقر. إن فيها قلة عقل.

●●●

هذا هو مجتمع المغتربين فى كلابشة، أو هؤلاء هم أعضاء الحكومة الدائمون فى كلابشة.

وراء كل منهم قصة.

وأمام كل منهم حلم.

□□□

(6)

لقد كان الأمر قاسياً عليهم جميعاً.. حتى نخلة أفندى.

إن النقل إلى بلاد نائية كهذه، بعيدة عن العمران، عقوبة أشد من عقوبة السجن، أو الفصل. السجن على كل حال سجن، يقرر مصير الفرد لفترة من عمره، فلا يتطلع لأبعد من الجدران الغليظة، التى تفصله عن الحرية، والفصل نهاية من النهايات التى تضع حداً لنشاط الفرد فى فترة من فترات حياته، ويصبح عليه أن يبحث لنفسه عن رزق جديد، عن طريق نشاط جديد.

أما هذا ـ النقل إلى كلابشة مثلا ـ فشئ لا هو سجن، ولا هو فصل، ولكنه أشد من ذلك جميعاً. إنه وقف، بلا وقفية، وبلا واقف، وبلا شروط تحددها وقفية، وفقاً لرغبة واقف !

والأرض الوقف، والبيت الوقف، شئ بلا صاحب. أو له صاحب لكنه كالوارث الأرعن، المكلف بتبديد ماورث.

والمنقولون إلى هذه البلاد كذلك بلا صاحب ! لا أحد يعنى بهم، أو يلتفت إليهم، وكل ما قد يكون بقى عنهم فى ذاكرة أحد، ملف فى أرشيف المستخدمين ! آخر ورقة فيه قرار النقل إلى هذه البلاد، وبعدها لا شئ !! لا يخطرون على بال أحد ولا يدور حولهم حديث. ما إن نقلوا إلى كلابشة أو الدر أو عنيبة أو بلانة أو سواها من هذه البلاد حتى أصبحوا بذلك تاريخاً، كمن مات !! فإن جاء ذكر أحدهم على لسان أحد من زملائهم، فإنما على سبيل استرجاع ذكرى من الذكريات التى عفى عليها الزمن ... أو اجترار تاريخ قد يكون له عند بعض الناس أثر.

لهذا فإن أمر النقل إلى هذه البلاد، شئ يتقبل فيه الناس العزاء.

والذين ينقلون يتحايلون بمختلف وسائل التحايل، لتأجيل هذا النقل، أطول مدة يستطيعون، فإن هذا التأجيل، مكسب يكسبونه من عمر صدر عليه حكم بالضياع !!

فمن أمراض يدّعونها، إلى أعذار يؤيدونها بمستندات أياً كان وجه الحق فيها، فإنها مستندات على كل حال. إلى إدعاءات يدعونها، ولا بأس أن وصلت إلى درجة إدعاء موت أقرب الأقربين، إن للمنقول حق إطلاق أى إدعاء، إذا كان

ينتهى إلى تأجيل قرار نقله، وفى اختصار ليس على المنقول حرج !!

فإذا استنفد المنقول كل وسائل التأجيل.

وإذا استنفد المنقول كل وساطة فى سبيل إصلاح ما حدث، وأدى به الأمر إلى هذا النقل، فإنها إذن ساعة الرحيل.

ويتجمع الأهل والأقارب والأصدقاء لوداع لا يدرى أحد مداه، وتذرف الدموع، ويكون عناق، ويتبادل المنقول مع مودعيه عبارات التأسى والعزاء.

- اذكرونا بالدعوات ...

- والخطابات كذلك.

- لا لا، لا تتعبوا أنفسكم. وهل تعرف الخطابات طريقها إلى هناك؟

- يا رجل، كلها بلاد الله.

- وكما يخلق الله الناس، فإنه يخلق كذلك العفاريت ! كما يخلق النعمة، فإنه كذلك يخلق النقمة ! هو سبحانه خلق النور، وخلق كذلك الظلام !

- وكلها نعم الله علينا أن نشكره عليها.

- حمداً لله، ولا يحمد على المكروه سواه.

- شدّ حيلك، وثق أنها غمة قريباً تزول.

- قريباً !! كل آت قريب على كل حال.

- على كل، توكل على الله، فإن فرجه قريب.

- كله على الله.

●●●

ويمضى القطار إلى أسوان، والمنقول العزيز فى جوفه، مع كل الطيبات التى استطاعت أسرته أن تزوده بها. وقطار الصعيد بطبيعته يمثل البداية الطبيعية لرحلة المنفى. فهو يغادر القاهرة ليلاً... فى الظلام ! ويقضى طول الليل يعوى بصفير لا ينقطع أبداً. وهو يقف ثم يتحرك على كل محطات الصعيد والجفون مطبقة على أحلام حزينة، مليئة بدموع الوداع. وكلما وقف القطار وتحرك، صحب ذلك صوت كأنه فروع شجرة تتمزق عن جذعها. ويكون هذا الصوت، والصفير المتصل كالعواء، ثم الأحلام الحزينة الدامعة. يكون كل ذلك أسوأ مقدمة لرحلة الوقف؟! على أنها البداية الوحيدة، الطبيعية لمثل هذه الرحلة التى لا تحدث إلا للموعودين !!

فإذا ما طلع النهار، بعد هذه الليلة التعسة، وقد مزقتها

وقفات المحطات، إذ هو نهار جديد على الموظف المنقول. إن شمس الصعيد، خاصة قرب أسوان، لا تشرق وليدة. إنها لا تبدأ النهار صغيرة أو مترددة. إنها لا تدخل على الكائنات على استحياء. إنما الشمس فى هذه البلاد تولد فى الصباح، مكتملة النمو والحرارة والاستدارة، لا يحجب وجهها شئ إنها صريحة واضحة لا تتخفى ولا تحتجب. ثم إنها تملأ السماء فى الوقت المخصص لها، من أول لحظة حتى آخر لحظة، بكامل قرصها، لا تسمح لسحابة أن تبدو للكائنات على حسابها. إنها تتمسك بكامل حقها، لا تجامل. هذه فهمناها !!

وهذا الغبار؟ يهب من مطلع النهار فيملأ الخياشيم ويكاد يسد الحلوق ! ألهذا أيضاً منطق كمنطق قرص الشمس الذى يسلط على الكائنات فيكون له لفح كأنه فوهة الفرن؟!

الأن مكان ذراته هو خياشيم الناس وحلوقهم فيصبح من حقه أن يحتلها، ولا يسمح لشئ سواه أن ينال منه هذا الحق!!

أم أنه استكمال لهذا اللفح الساخن، أن تثور ذرات الغبار، لتملأ كل شئ فى الكون، حتى الخياشيم والحلوق !!

أم هى مصلحة السكة الحديد تعرف أن ركاب هذه القطارات من المنفيين والمبعدين فتخصص لهم أسوأ ما عندها من عربات !!

أم أنها السلطة التى أصدرت أوامر النقل، تتعمد أن تبدأ الرحلة هذه البداية حتى إذا وصل الموظف المنقول إلى المنفى، شعر أنه فى جنة، فيرضى ويستقر !!

●●●

وعندما يصل القطار يصل القطار إلى أسوان، يصبح على المنقول أن يحمل أمتعته، أو يحملها مع حمال من المحطة، إلى إحدى وسائل النقل، كل حسب درجته ومستواه.

إن عليه أن يذهب إلى الشلال، حيث يستقل باخرة البوستة السودانية إلى المنفى الذى نقل إليه.

والطريق إلى الشلال ليس قصيراً، والمواصلات إليه ليست سهلة، خاصة فى جو أسوان، وفى عز الظهر.

كل المنقولين أخذوا سيارة من سيارات الأجرة، تتسع لمتاعهم ولمتاعبهم كذلك وتعفيهم من ركوب سيارة الأتوبيس فى هذا الجو اللعين.

... إلا نخلة أفندى.

- ولماذا لا أركب الأتوبيس؟

- لأنه متعب جداً يا عم نخلة.

- ها ها ها..ى ! والحياة هنا أليست متعبة؟

- جحيم لا يطاق.

- جحيم فى جحيم. وما دمت أتحمل الجحيم هنا، فهل أشفق على نفسى منه هناك؟ من أسوان حتى الشلال؟!

- التاكسى أسرع يا عم نخلة.

- أعلم هذا. ومن قال لك إنى كنت مستعجلاً؟

- وأكثر راحة كذلك.

- أعلم هذا. ومن قال لك إنى كنت متعباً أبحث عن الراحة؟

- قل إنها أجرة التاكسى.

- وهل أنكرت هذا. لماذا أتيت أنا إلى هنا؟ أو تظن أنى أسعى إلى هذه البلاد، لأوفر لأولادى، ثم أبدأ الرحلة بأن أدفع للتاكسى على الأقل سبعين قرشاً؟

- بل تدفع خمسين قرشاً يا عم نخلة.

- مرة ثانية: ها ها ها ... ى وتظن هذا قليلاً؟ وما العيب فى قرشين اثنين، أدفعهما فى الأتوبيس حتى الشلال.

- أربعة قروش يا عم نخلة.

- يا ابنى هذا للبريمو، ولماذا أركب بريمو؟! هل يصل البريمو قبلى؟ أنا رجل حددت هدفى من النقل إلى كلابشة، وليست مستعداً أبداً لأن أتصرف أى تصرف يتناقض مع هذا الهدف. إنى أحاسب على كل مليم، لأنه يعنى بالنسبة لى الشئ الكثير. أولا أكفر به عما جنيته على نفسى وعلى أولادى. وثانياً أدفعه لواحد من الأولاد ليتعلم ولينال ما كنت أستطيع أن أدخره له لو لم أبدد ميراثى، وليتساوى بأولاد عمومته وبأقاربه به الآخرين، فلا يشعر أنه دونهم فى شئ. هل علمت لماذا أوفر؟ لماذا أركب الأتوبيس؟ أعلم أن التاكسى أسرع وأكثر راحة ومتاعاً. ثم هو كذلك يرضى غرور الإنسان أى إنسان. لكنى هنا لهدف أريد أن أصل إليه، وألا تصبح هذه التضحية، بلا فائدة ولا قيمة. يا ابنى لقد تمتعت كثيراً. وكنت أظن أن الثروة التى عندى بلا حدود وهأنذا أدفع الثمن حرماناً وصبراً ونفياً. لكن ذلك كله سيهون لو تحقق هدفى منه، ورأيت أولادى فى الواقع كما أراهم فى الأحلام.

- والله أنت رجل عظيم يا عم نخلة.

●●●

على أنه لابد من المرور من المنطقة الجمركية.

- لكنى ذاهب إلى كلابشة.

- ولو ! تمر من المنطقة الجمركية.

- لكنى لست خارجاً من مصر.

- لكن هذه آخر حدودنا الجمركية. ليس لنا جمرك هناك فى الناحية الأخرى. فى وادى حلفا جمرك للسودان.

- لكنى لست ذاهباً إلى وادى حلفا. أنا ...

- لا يهم. المهم هو أنك ستمر من الشلال.

- لكن إلى جزء من البلاد. إلى كلابشة.

- كلابشة، توكر، كله واحد.

- لا يا سيدى. توكر فى السودان، وكلابشة فى مصر، وهذه جمارك مصرية لا يمر بها إلا الذين سيغادرون الأرض المصرية.

- أنت شخص تتمسك بالشكل. والله أنت تتمسك بالشكل.

- إذن قل لى أنت عن الموضوع.

- حتى لو أنك ذاهب إلى كلابشة. أو تظن أنك ستظل فى مصر؟ هذا صحيح من الناحية الرسمية. هذا ما تقوله الخرائط والتقسيمات السياسية والإدارية.

لكن أيهما أقرب بذمتك كلابشة أم روما؟ أم باريس؟ أم لندن؟ أم أية عاصمة فى أوربا؟

- الحقيقة لا أدرى.

- بل يجب أن تدرى. تدرى أن عواصم أوربا أقرب. البريد يصل أسرع، التليفون مسموع أكثر، وساعات عمله أطول. إحساس الناس بالذين يعيشون فى أوربا أقوى. أما فى كلابشة، فأنت يا سيدى ذكرى. ليست أكثر من ذكرى!

- لكنى سأظل فى مصر.

- بالاسم يا سيدى، بالاسم !

- وبالفعل؟

- بالفعل ستكون خارج مصر. تمر إلى مكان عملك من طريق المنطقة الجمركية تفتش كالخارج من البلاد تماماً. وتعود من مكان عملك من طريق المنطقة الجمركية. تفتش كالأجانب أو القادمين من بلاد أجنبية.

●●●

وكذلك لابد من المرور من الجوازات.

ولولا خطاب النقل أو النفى الذى يكون معك، فإن سلطات الجوازات ستطالبك بالتصريح: تصريح وكالة حكومة السودان..

- وهل لابد لى من تصريح لدخول السودان؟

- طبعاً، لابد من هذا التصريح.

- لكنى أذكر أن أحد الكتاب رفض تقديم هذا التصريح.

- وهل دخل السودان؟ هل سمح له حتى بركوب بواخر البوستة السودانية؟

- لا أظن.

- طبعاً لا يستطيع الدخول، ولا السفر بالبواخر.

- وإنى لأذكر أنه طالب بتطبيق معاهدة سنة ١٩٣٦.

- وماذا قالت المعاهدة؟

- رخصت بحرية التنقل بين مصر والسودان.

- ثم أضافت إلا لأسباب صحية أو أسباب تتعلق بالأمن العام.

- وفتحت بذلك ثغرة ليستمر العمل بالتصريحات القائمة.

- لأن الإنجليز احترفوا طبخ المعاهدات.

- ولماذا لم ندرك ألاعيبهم؟ لنحتاط لها؟

- تسألنى أنا؟ أنا موظف صغير. اسأل الذين وقعوا هذه المعاهدة.

- المهم أنا سأركب الباخرة بلا تصريح من وكالة حكومة السودان.

- لأنك لست ذاهباً إلى السودان، بمقتضى الخطاب الذي تحمله.

- كنت أتمنى أن أحطم هذه الأسوار.

- لا تحاول أن تسبق الزمن، إن الأسوار غير الطبيعية تتحطم من تلقاء نفسها.

●●●

والباخرة، أى باخرة من بواخر البوستة السودانية، عالم حافل يستحق الدراسة فإن النماذج التى فيه، لا تتكرر فى غير هذه البواخر، إلا فيما ندر.

والذاهبون إلى العمل، فى أى بلد من البلاد النائية، عندما يستقلون هذه البواخر، يكونون قد بدأوا يرتدون ثوب الاغتراب. أو يكونون قد بدأوا ينسون أنهم نقلوا إلى ما يشبه المنفى أو المعتقل.أو ربما يكونون قد بدأوا يأخذون أنفسهم بالحياة الجديدة وأساليبها فيأنسون لها، ويخضعون لمقتضياتها.

وفى الباخرة لا يستطيعون أن يعتزلوا الناس.

لا، ولا يستطيعون أن يعيشوا على الدموع والشكوى.

وإنما يصبح عليهم أن يختلطوا بالناس، وأن يمارسوا الحياة معهم بالطريقة التى يمارسون بها الحياة.

وفى بواخر البوستة السودانية تجد الناس إما من بلاد النوبة لا فرق بين النوبة المصرية أو النوبة السودانية، فإن الحدود السياسية والإدارية لا تعنى بالنسبة لهم شيئاً كثيراً.

وهؤلاء النوبيون يكونو عائدين إلى بلادهم، لزيارة أهاليهم بضعة أسابيع يعودون بعدها إلى أعمالهم فى مدن مصر. إن الرزق فى بلاد النوبة بعد تعلية خزان أسوان مرتين، وبعد أن أغرق الماء الأرض وما عليها من بيوت وزراعات مرتين مرة فى سنة ١٩١٢، ومرة فى سنة ١٩٣٢. الرزق فى هذه البلاد بعد هذا لم يعد يكفى أبناء بلاد النوبة. وأصبح على كل قادر منهم أن يبحث عن الرزق فى المدن الكبرى ولتبق البلاد عامرة بالنساء والأطفال والشيوخ، يعيشون على ما يرسله القادرون إليهم من فائض كدّهم، ويعيشون على أمل أن يعودوا إليهم مرة كل عام، فى مواسم الإجازات وعادة ما تكون خلال شهور الصيف. وهى مواسم أفراح، سرت فى بلاد النوبة فأصبحت من تقاليدها أن تحتفل بمواسم الإجازات احتفالات مليئة بالأسمار النوبية،

والرقص والغناء. ولم لا؟ إن الزوجات لا يعرفن حياة الأسرة إلا فى موسم الإجازات، والأطفال لا يرون آباءهم إلا فى موسم الإجازات، والشيوخ من رجال ونساء لا يفرحون بأبنائهم إلا فى موسم الإجازات.

ليس فى بلاد النوبة مواسم لجنى القطن، بل ليس فى النوبة قطن على الإطلاق.

ليس فى بلاد النوبة مواسم الحصاد، بل ليس فى النوبة حصاد يذكر.

لقد أغرق النيل كل شئ، مرتين !

ولا يمكن لمجتمع إنسانى أن يحيا بلا مواسم. أو أن يعيش بلا مناسبات. بلا فرحة ينتظرها ويتغنى بها، ويستطيع أن ينتظر الأيام والليالى فى سبيلها.

والفرحة كل الفرحة فى هذه البلاد، هى هذه المواسم، عندما يعود الرجال الذين خرجوا يبحثون عن الرزق فى بلاد مختلفة من بلاد مصر.

وهم يعودون بملابس زاهية جديدة، ومعهم هدايا بسيطة، لكنها أغلى من كنوز الأرض، عند الأمهات والزوجات والبنات الصغيرات !

أما الآباء، وكلهم شيوخ كبار، فإن لهم السبح من سيدنا الحسين بن على. أو من بنت بنت رسول الله السيدة زينب رضى الله عنها وأرضاها، أو من أولياء آخرين لهم قدرهم العظيم.

وتعيش بلاد النوبة فى انتظار هذه المواسم طول العام، فإذا حلت شهور الصيف بدأت النجوع تتطلع إلى مجرى النيل، ترقب البواخر القادمة، وكلما ارتفعت الصفارة عند محطة من محطات الوقوف أدرك أهالى النجوع على الفور، أن أبناءهم قد عادوا فيخرجون إليهم ليقابلوهم فى منتصف الطريق فرحين بهم، مستقبلين بعودتهم أحلى مواسم فى هذه البلاد.

وإنهم ليتقابلون وهم فى طريق عودتهم، فى هذه البواخر، ومنهم من لا يلتقون إلا فيها، فيكون لهم فيها أحاديث عذبة، عن أعمالهم والمدن التى يعملون بها، والبيوت التى يتصلون بها أو المحال التى يلتحقون بعمل فيها، والأجور التى يتقاضونها والعلاوات التى ينالونها، وعدد أيام الإجازات التى يقضونها مع الأهل والأصدقاء.

وكما يتبادلون هذه الأحاديث الجادة، فإنهم يتبادلون كذلك ألوان المزاح، وفى المساء يأخذهم الطرب فيغنون ويمرحون ويرقصون.

وكلما وقفت الباخرة عند محطة من المحطات أخذوا يودعون العائدين بالغناء والدعاء، على أمل، أن يكون لهم معهم عن قريب.. لقاء.

وأن بينهم لصلات من القربى أو النسب تجعلهم شديدى التعلق، كل منهم بالآخر بصورة واضحة ملحوظة.

أما ما بينهم من صلات أخرى، فأوضح ما يميزها حبهم للطرب والرقص والغناء. إن أبناء النوبة يعبرون حتى عن أحزانهم بالغناء حتى عويلهم منغم إيقاع كالنشيد.

على أن أمتع ما يميز لقاء النوبيين وهم عائدون كل عام، خاصة بين الشباب منهم هو أحاديث الجوى واللوعة والإشفاق.

إن كلا منهم ترك وراءه قلباً يخفق بالحب، وينتظر أوبته على شاطئ النيل. وهو يتمنى لو استطاع أن يحقق أمنيته فى وصال يدوم. لكن حتى الزواج فى النوبة، يعجز عن تحقيق أمنية أبناء النوبة. إن الزواج فى بلاد النوبة يحقق هذا الوصال. لكنه وصال متقطع يحدث مرة كل عام وبقية شهور العام تقضيها العروس فى هجر وحرمان، ويقضيها العريس فى كدّ وكفاح، ليستطيع أن يعود آخر العام، يغمض جفنيه على الحقيقة وهى أن عروسه بين ذراعيه، فى البيت

الفسيح المطل على النيل، يستقبل نسماته طول ساعات النهار والليل.

إن الفرحة فى بلاد النوبة. الفرحة الحقيقة الغامرة، هى فرحة الأب والأم بابنهما حين يعود. فرحة الزوجة بزوجها، وهو محمل إليها من رحلة العام بأصناف الهدايا والطعام. فرحة الطفل بأبيه، ليداعبه ويناغيه. فرحة الفتاة يخفق قلبها طول العام منتظراً عودة الحبيب تروى ظمأ عينيها إلى وجهه الصبوح، وتروى ظمأ أذنيها إلى كلماته الولهانة وتروى ظمأ قلبها إلى أناشيد الحب يرتلها فى عشق وفى هيام، وقد يختليان وقد ينفردان، هنا أو هناك بالليل أو بالنهار، فيكون لقاء ما أجمله من لقاء، إنه لا يزيد على دقائق، لكنه يمتد فى سنوات العمر، حتى آخر العمر.

إن الرحلة فى هذه البواخر، فى موسم عودة المغتربين، تحتاج إلى شاعر أو ناقد أو فنان، ليدرك على الفور ما تنطوى عليه نفوس ابناء النوبة، من الحزن والانتظار يظهر هذا فى أغانيهم وفى رقصاتهم. إن الحزن طابع يميز أبناء النوبة ويظهر فى أغانيهم وأناشيدهم. والحب المشتعل أساس من أسس الحياة فى بلاد النوبة كلهم يعيشون على الحب، وينتظرون الحب، ولا يشبعون منه أبداً. إنهم يذوقون

الحب كل عام عدة أسابيع، ويقضون بقية العام فى انتظار.
لهذا يعيش النوبيون على اللوعة والجوى وشكوى الهجر والبعاد. ويسود هذا الطابع الحزين الملهوف حياة النوبين جميعاً. حتى الرجال مهما أنجبوا من الأولاد، فإنهم يمضون فى رحلة العمر والظمأ إلى الحب يملأ قلوبهم. ولولا أن المرأة فى النوبة اضطرت، تحت ضغط هذا الخرمان الطويل والفراغ، والوحدة وظروف الحياة القاسية، إلى الاعتماد على نفسها، فاعتادت على أن تشغل وقتها بعمل دءوب متصل طول النهار، وأغلب ساعات الليل لولا هذا، لأصابها الانتظار بالضياع.

إن أهل النوبة يسمون هؤلاء العائدين "الأكتوبريين".

وبرغم أن بعضهم يعود فى أغسطس، وربما فى يوليو، وقد يعود قبل ذلك، إلا أنه مع هذا يستمر معروفاً على أنه من الأكتوبريين.

على أنه لابد لذلك من سبب يتصل بشهر أكتوبر من كل عام.

ولابد أن هذا الشهر لعب دوراً هاماً فى تحديد موسم عودة الغائبين إلى قراهم ونجوعهم، يتزاورون طول اليوم، ويسمرون ساعات طويلة من الليل.

وتشهد القرى والنجوع فى هذه الليالى، حول شاطئ النيل المشاعل تضئ ليل النوبة، بالنور والأمل والحب. والدفوف تدق، والرجال يرقصون، فى صف.. يقابله النساء يرقصن فى صف مقابل. وفى داخل الحلقة يكون النشيد والحداء والغناء، وقد تخف الرقصات الجماعية، لتترك المجال لفارس ولفارسه يستعرضان الرقص وما فى الرقص من الرغبة والنداء، بينما تشارك الجماعة بتصفيق رتيب له نغم حلو خافت حيناً صاخب حيناً آخر، لكنه فى جميع الأحيان، نوع من المشاركة أو المباركة للفارس والفارسة، وقد أخذا يعبران عما فى قلبيهما من لواعج الأسى والحنين.

●●●

على أن الفرح والأفراح، ليست هى وحدها مهمة الأكتوبريين عندما يعودون. إن عليهم مهمة أخرى لا تقل عن الفرح والأفراح شأناً فى حياة النوبيين.

عليهم واجب العزاء، وجبر خاطر كل من فقد عزيزاً خلال شهور العام.

وعن هذا يتحدث العائدون، وهم فى باخرة البوستة السودانية، وكما يتبادلون الغناء يتبادلون العزاء.

فإذا عادوا فإن عليهم أن يدوروا على الذين أصيبوا فى عزيز عليهم، يعزون ويشاركون الألم فيمن يكون قد مات.

ويكون عليهم كذلك أن يزوروا القبور، حيث يصبون الماء عند رأس الميت فى إناء يوضع خصيصاً لصب الماء. فما أن تنتهى زيارة الزائر لقبر الميت حتى تتوافد الطيور إلى الإناء تمد فيه مناقيرها، ترتوى الماء.

على أن زيارة أهل الميت لا تكون مرة، لكنها تتكرر حسب الأحوال على قدر ما يكون من درجة القرابة أو الصداقة أو علاقة الجوار. وفى كل زيارة يكون حديث حول مناقب الفقيد، ومآثره، وما خلفه من الذكر على ألسنة الناس. ثم يكون حديث حول الجنة وما ينتظر الميت فيها من النعيم.

إن الميت عند النوبيين لا يفنى، إنه ينتقل إلى حياة أخرى، وله قرين بنفس جسمه وحجمه وعيونه، يستأنف نوعاً آخر من الحياة بعد أن يغادر الميت هذه الحياة. وكما كان قدماء المصريين يحنطون الميت خلال أربعين يوماً. فإن أهل النوبة حتى الآن يحددون يوم الأربعين بعد الوفاة، على أنه اليوم الذى يأخذ القرين فيه دور الميت فى حياة أخرى من نوع آخر. وهم لهذا يقضون الأيام الأربعين، يعدون للميت عشاءه، من الأصناف التى كان يحبها، وبنفس الكميات،

ويوزعونها على الفقراء والمحتاجين والأطفال. بعدها يأخذ القرين مكان الميت فى الحياة الثانية، ولا يصبح على أهل الميت بعد هذا أن يدبروا له العشاء؟! الواجب الوحيد الذى يستمر إلى انتهاء تسعين يوماً كاملة، أو ثلاثة أشهر، وهو واجب الزوجة التى تكون قد ترملت، إن هذه المدة هى مدة حدادها تلزم فيها دارها لا تغادرها أبداً، حتى إذا انتهت، توجهت إلى شاطئ النيل، تغسل وجهها، فيكون هذا إيذاناً بانتهاء فترة حدادها.

●●●

والمنقول إلى بلاد النوبة مهما تكن موحشة، يلتقى فى بواخر البوستة السودانية بأول مجتمع نوبى، يؤنس وحشته، وينسية غمته، ويخفف كربته.

إن مأساة هؤلاء النوبيين تلهيه عن كل ما يشعر به من اضطهاد.

والنوبيون يعرفون هذه المأساة تفصيلاً، ويتناولونها واحداً من واحد. وجيلاً من جيل. وهم يتحدثون بها إلى من يعرفون ومن لا يعرفون.

والمنقول إلى بلاد النوبة، يسمعها منهم فى الباخرة، إن لم يكن قد سمعها منهم فى القاهرة:

- فى التعلية الأولى سنة ١٩١٢ قالوا إن على أهل النوبة أن يشعروا بالصالح العام ويقدروا الظروف القومية التى تقتضى هذه التعلية. وأذاعوا بياناً بأن الأرض ستستمر صالحة للزراعة. إن الارتفاع سيكون بسيطاً، وستنحسر المياه عن هذا الارتفاع البسيط فى بعض شهور العام، مما سيمكن النوبيين من الاستمرار فى الزراعة، كما هو حالهم الآن.

- ولم تدفع الحكومة تعويضات؟

- تعويضات لا تغنى ولا تسمن من جوع.

- وفى التعلية الثانية؟

- هذه هى الكارثة الكبرى فى حياة أبناء النوبة.

- أترى كانوا يتركون الخزان بلا تعلية؟

- من قال هذا؟ النوبيون مع التقدم، ومع إقامة الإنشاءات الكبيرة. إنهم يعتبرون خزان أسوان عملاً هندسياً هائلاً. لكن هل معنى هذا أن تسرق الحكومة اثنين وثلاثين ألف فدان، بلا مقابل يذكر؟

- تسرق ! ما معنى هذا؟

- نعم تسرق. عندما تقدر الفدان بثلاثين قرشاً، ألا تكون بهذا تسرق؟

- بثلاثين قرشاً !!

- وعندما أرادت أن تبيعهم أرضاً أخرى شمال الخزان، باعت هذه الأرض لهم بمبالغ بين جنيهين إلى ثمانية عشر جنيهاً للفدان. وهكذا كانت الحكومة كالمنشار ! ثم ليتها أعطتهم هذه الأرض جاهزة بوسائل الرى والصرف والاستصلاح. أبداً باعتها لهم بوراً، فسلبتهم ما دفعته لهم من تعويضات ثمناً لأرض هجروها ليفلتوا منها بجلودهم !!

- هذا شئ غريب.

- والأغرب يا سيدى أنهم فى بعض المناطق، لم يخلوها من أبناء الصعيد الذين كانوا يزرعونها. فلما ذهب إليها المشترون الجدد، رفض المنتفعون بها من أبناء الصعيد أن يتركوها. ولم تتدخل الحكومة لتحمى حقوق الذين نزلت بهم النكبة، أو الذين باعتهم هى هذه الأرض. ونشبت بين الفرقين معارك، وذهب شهداء من الفريقين !

- هذه فوضى. هذا تصرف لا يليق من حاكمين.

- وتلوموننا حينما نسخط على الحكومة. نحن لا نكره الخزان، وإنما نحن نكره الظلم والظالمين.

- لكم حق، فإنا مثلكم مظلومون منفيون.

- تصور. أصبحت بلادنا منفى !! بعد أن كانت قطعة من الجنة.

- وبيوتكم التى غرقت. ألم يعوضوكم عنها؟

- قدروا الحجرة بأربعة جنيهات، وعمارة النوبة تمتاز بأن لكل بيت فناء واسعاً كبيراً، قد يصل إلى ربع فدان، أو نصف فدان. تصور الظلم ! هذا الفناء الواسع اعتبر حجرة، بأربعة جنيهات.

- يا خبر !! هذا كلام غريب !!

- إنه الحقيقة. وحتى يسكتوا أصحاب النفوذ من أبناء النوبة. هؤلاء الذين يعيشون خارج النوبة، قدروا بعض البيوت على أساس الحجرة بعشرة جنيهات.

- والحيوان والزراعات.

- لم يدفعوا عن شئ من ذلك تعويضاً إلا النخيل والنخلة عماد حياة النوبى، فهى تعطيه البلح والتمر، والخوص والجريد، والظل فى هذا الهجير. ماذا دفعوا له عنها؟ ثلاثين قرشاً عن كل نخلة !

- هذا شئ غريب. إنى أسمعه لأول مرة.

- لأن الحكومة تعرف أنها جريمة ارتكبتها، وهى لهذا تخفيها على الناس.

- لكنها حكومة غبية أيضاً، فإن إنصاف أهالى النوبة، ووضع خطة لإرضائهم ورسم طريقة حياتهم، بعد تعلية الخزان، ما كنت لتزيد من تكاليف مشروع التعلية نفسة كثيراً.

- هذا لو أن الحكومة تعتبرنا شيئاً يستحق الالتفات، إن الأدهى من ذلك كله، أن بعض هذه التعويضات لم تدفع بعد، برغم مطالباتنا المستمرة لكل حكومة فى كل عام.

- وقد مضى ما يقرب من عشرين عاماً !!

- وماذا يهم؟

- زمن طويل. أما من حياء؟

- يا سيدى لقد مات من يستحيون !!

●●●

إن بواخر البوستة السودانية تحمل إلى جوار أبناء النوبة المصريين أبناء النوبة السودانيين. والنوبيون يضحكون لهذه التفرقة، فإنهم جميعاً نوبيون، يتنقلون من هنا إلى هناك بلا حدود أو حواجز. هذه الحواجز أقامتها الحكومات أيضاً، لتفصل أربعة ملايين من أبناء النوبة السودانيين عن ثلاثمائة ألف من أبناء النوبة المصريين.

وكثيرون من النوبيين السودانيين نزحوا من الكنوز أو العقيلات أو القسم، وكلها مناطق نوبية مصرية، والعكس كذلك صحيح فإن كثيرين من قبائل النوبة المصريين نازحون من مناطق السودان.

والمنقول إلى النوبة لا يعرف شيئاً عما يسمعه من تقسيمات، لكنه بعد قليل سيدرك أن الكنوز هى المنطقة المتاخمة لأسوان، على إمتداد قرابة مائة وخمسين كيلو متراً، حتى بعد الدكة. ثم تكون منطقة العقيلات، أو عرب العقيلات، فى وادى السبوع ووادى العرب، على مسافة تمتد بعد انتهاء الكنوز قرابة خمسين كيلو متراً. ثم تكون منطقة القسم من قبل أبريم حتى الدر وعنيبة وبلانة وأبى سمبل وأبى عودة إلى حدود السودان.

إن هذا الذاهب إلى كلابشة إذن، ذاهب إلى الكنوز !

- ترى هل هو جمع كنز.

- وأى كنز يكون؟

- كنز من الذهب أم من الماس؟

ثم يعود يقول لنفسه:

يا شيخ. والله لو فيها خير، ما تركها الطير.

والطير فى هذا المثل، ليس مقصوداً به اليمام مثلاً أو العصافير. وإنما المقصود به فى المثل هو.. الذباب !!

●●●

وكما يكون أهل النوبة المصريون عائدين إلى قراهم ونجوعهم وأهلهم لزيارة موسمية لا تتكرر إلا مرة كل عام، فإن أهل النوبة السودانيين يكونون أيضاً عائدين لنفس السبب. الظروف واحدة، والحياة واحدة، ولا فرق إلا على الخرائط المساحية.

على أن أهل النوبة ليسوا وحدهم على هذه البواخر.

هناك أهالى السودان الذاهبون إلى بلاد أخرى غير بلاد النوبة. إلى بلاد السودان. إلى مدنها وقراها فى الشمال أو فى الجنوب.

وعلى هذه البواخر تدور الأحاديث بين الجميع، فلا تشعر أن هناك فرقاً بين هؤلاء جميعاً. إنهم يتنقلون من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال بلا أن يشعروا أنهم يغادرون بلادهم.

وتتأكد هذه الحقائق بغير كثير من الاجتهاد.

– ماذا يا ترى كنت تفعل فى القاهرة؟

- كنت أزور أولياء الله الصالحين. هذه عادتى السنوية منذ بلغت سن المعاش.

- وأين كنت تقيم فى القاهرة؟

- عند ابنى.

- ابنك يعيش فى القاهرة؟

- نعم، وهو يعمل فى وزارة الأشغال.

- وأنت هل عشت فى القاهرة؟

- طول حياتى يا ابنى. لم أعد إلى كردفان إلا بعد بلوغى سن المعاش.

●●●

-وأنت يا سيدتى سودانية؟

-يا ابنى سودانية أو مصرية. ما الفرق؟ أنا مصرية.

-إلى أين تذهبين.

-إلى إخوتى فى الخرطوم. إلى عائلتى هناك. إن أختى الصغيرة ستضع مولودها الأول، وقد رأيت أن أنتهز الفرصة لزيارة أهلى وأسرتى.

-لكنك من الخرطوم أصلاً.

-نعم وتزوجت ضابطاً مصرياً، لى منه ثلاثة أولاد..

●●●

-وأنت يا فتى. إلى أين ذاهب؟

-إلى عطبرة.

-هل أنت سودانى؟

-لا. وإن كان هذا لا يهم. أنا مصرى ذاهب لزيارة أخوالى هناك.

●●●

المنقول يرى نفسه فى هذا المجتمع على الباخرة، فيكاد ينسى أنه نقل إلى بلاد لا يعود منها أبداً.

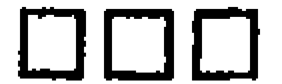
هل كان تسرعاً إذن أن نعتبر هذه البلاد منفى؟ أو نعدها سجناً؟ أو نطلق عليها معتقلا؟!

أم ترى أنه تسرع أن نبادر فننفى عنها هذا كله؟

وبينما هو كذلك، من دفع وجذب مع نفسه، ومع أفكاره إذا بالباخرة تقترب من الشاطئ رويداً رويداً، حتى لتكاد تصافحه.

وإذا أهالى النوبة يودعونه كما يودعون واحداً منهم عندما يصل إلى المحطة التى يغادر فيها الباخرة، بالغناء والحداء والأناشيد.

وتقف الباخرة لينزل منها هذا الغريب، المنقول إلى: كلابشة.



(7)

وتبدأ حياة المنقول إلى كلابشة بمراسم الاستقبال.

وغالباً ما يكون موعد وصول المنقول قد سبق إلى علم بقية أعضاء المجتمع الصغير، أو بقية أعضاء حكومة كلابشة.

فإن لم يكن الموعد قد سبق إلى علمهم، فإن صفير الباخرة، وهى ترسو على محطة الركاب، كاف ليعرفوه، فتبدأ على الفور مراسم الاستقبال.

وأول شئ فى هذه المراسم أن يخرج المجميع بلا استثناء إلى المرسى عند شاطئ النيل، لا يتخلف منهم أحد.

إن كان القادم هو أحد المدرسين، فسيكون فى استقباله: ضابط النقطة ومعه الصول والشاويش والعساكر، وناظر المدرسة والمدرس الآخر، والفراش وإمام المسجد والفراش، ووكيل مكتب البريد وفراش المكتب. والعمدة وشيخ الخفر والخفر وعدد من أعيان النجوع إن كان الوقت مناسباً. ثم

"مدثر" الصياد الفتى الذى لا يتخلف أبداً، فإن له إلى جوار الاستقبال مهمة أخرى تتعلق بالسمك، يعرضه على القبطان والبحارة، يأخذون منه ما يشتهون.

وعندما تبدأ الباخرة تقترب من الشاطئ، يكون القادم المنقول قد استعد على ظهرها، وحوله متاعه كله.. متاع كثير، فمن يدرى متى يعود أو هل يعود؟!

ولعل واحداً لا يستطيع أن يخطئه، من منظره والرهبة التى تبدو عليه، والخوف من المصير الذى ينتظره، لكنه برغم هذا يتظاهر بالهدوء ويرسل الابتسامات يحيِّى بها أبناء النوبة حوله وهم يودعونه ويرجون له إقامة طيبة فى بلادهم، ثم لا يستطيع واحد أن يخطئه من زحام المتاع حوله وحرصه عليه، كذلك لا يستطيع واحد أن يخطئه من نظراته إلى الشاطئ يتطلع إليه محاولاً أن يتبين الوجوه المنتظره، وهل يا ترى تنتظره هو أم تنتظر واحداً سواه.

●●●

وإنه ليحدث نفسه وهو بعد على ظهر الباخرة:

-لابد أنهم ينتظروننى. هذا الضابط مثلا هل هو من أهل هذا النجع، حتى يجئ إلى الشاطئ ينتظر واحداً آخر من أهل النجع؟!

- وهب أنه ليس كـذلك، فـمـا الدليل على أنه قـادم لانتظارك أنت؟

- إن الوحـيـد الغـريب القـادم المنضم إلى مـجـمـوعـة التعساء، هو أنا.

- لكنه قد يكون قادماً لانتظار شئ آخر. البريد مثلاً أو أى شئ يكون قد أرسل لإحضاره.

- يجوز، لكن هذا الطأبور الطويل الذى معه. كلهم جاء من أجل تسلم البـريد؟ أو الاحـتـفـال بالشئ الذى أرسل الضابط لإحضاره؟

- على كل حال إنهم يتبادلون الأحاديث. والابتسامات لا

- ويضـحك بعـضـهم ضـحكاً عـالياً حـتى ليكاد رنين ضحكاته يغطى على صوت ماكينات الباخرة.

- هل يا ترى تكون هـذه الضحكات مظهر سعادة غامرة يحسها هؤلاء.

- أو مظهر يأس قاتل دفعهم إلى السخرية من كل شئ؟

- يا حفيظ احفظنا يا رب. إن اليأس القاتل قد يجر إلى الجنون.

- هذا ما تظنه. إن اليأس هو إحدى الراحتين.

- تقصد إحدى النهايتين.

- على كل حال الوصول إلى النهاية مريح.

- حتى لو كانت هذه النهاية هى اليأس أو الجمود؟

- حتى لو كانت الموت نفسه. إنك عندما تصل إلى النهاية. فإنك حينئذ تشعر أنك وصلت إلى شئ، تستطيع أن تمدد عنده قدميك، وأن تغمض بعده جفنيك، وأن تتنفس فى راحة لا يعكرها القلق، وحرية لا يتخللها الأرق.

- أهذه هى الراحة التى لا يعكرها القلق، والحرية التى لا يتخللها الأرق.

أهذه هى؟ أهذا الرجل يمثلها، بكرشه هذا البليد، وعينيه.هاتين الغائرتين وابتسامته هذه التى لا معنى لها؟

- يا ابنى هذا تفسيرك، لكنك لا تستطيع أن تحكم عليه هكذا من نظرة سريعة عابرة. من يدريك ما يكون، وأى نوع من الناس هو.. ألا يمكن أن يكون قد تحرر حتى من مقاييس الناس أمثالك، فخرج على هذه المقاييس التى تربطكم بنوع معين من تقويم الناس والأشياء؟

يا ابنى لا تتسرع فى الحكم على الناس، فإن من أخطر ما يصيب الإنسان أن يقيم من نفسه حكماً على كل شئ،

وعلى كل واحد، فيصدر أحكامه على أنها نهائية لا يجوز بشأنها استئناف، وبالتالى لا يجوز بشأنها نقض أو إبرام.

- لكن هل كل هؤلاء مضطهدون؟ هل كل هؤلاء تعتبرهم الحكومة فى القاهرة خصوماً خطرين فتبعدهم؟

- قد لا يكون الأمر إبعاداً، بقدر ما هو عقوبة.

- وماذا يستطيع هؤلاء المساكين أن يفعلوا حتى يستحقوا هذه العقوبة؟

- من أدراك ماذا فعلوا !

- والله إنها حكومة مغفلين، إذا كان هذا تقديرها !! أهؤلاء خطر عليها؟ أهؤلاء ارتكبوا من الأحداث ما يرتب هذه العقوبة؟

- وعلى أى أساس حكمت عليهم؟

- إلا هذا !! فى المرة الأولى كان على أن أنتظر لأحكم على صاحب الكرش البليد، والعينين الغائرتين والابتسامة التى لا معنى لها.

لكن هؤلاء !! انظر إليهم !! هؤلاء خطر على أى شئ؟!

إن الحكومة إذا توهمت هذا فذلك لأنها تتصور أن معنى الحكومة يحتم أن يكون للحكومة خصوم، وأنهم ماداموا قد

أصبحوا خصوماً، فلابد أنهم خطرون، وماداموا قد أصبحوا خطرين، فلابد من إقصائهم إلى آخر البلاد.

- فإن يكن الأمر كذلك، فلماذا اخترت هؤلاء بالذات؟

- هل تعرف حكاية السجان والمساجين؟

- لا .. أية حكاية هذه؟

- إن السجان يتسلم المساجين بالعدد. لا يهمه أسماؤهم، ولا تهمه جرائمهم. كل ما يهمه عددهم. إنه يتسلمهم من السجن خمسة عشر واحداً مثلاً، وعليه أن يعيدهم خمسة عشر واحداً كذلك. يحدث هذا في أي وقت يتسلم فيه السجان المساجين، وأياً كانت المهمة التي يتسلمهم من أجلها. وفي مرة سلموا سجاناً عدداً من هؤلاء المساجين للذهاب بهم إلى المحكمة. كانوا عشرة مساجين محبوسين على ذمة التحقيق، وهؤلاء لا يرتدون ملابس السجن لكنهم يلبسون ملابسهم العادية. وذهب بهم إلى المحكمة حيث كانوا يعارضون في حبسهم. ورفضت المحكمة المعارضة، وقررت الاستمرار في حبسهم وعندما خرجوا من المحكمة هرب واحد منهم، فدعو السجان عندما عدهم تسعة. إن هذه معناه أن ينال عقوبة شديدة، قد يحاكم محاكمة عسكرية، وقد يصدر ضده حكم قاس. ولقد أخذ يبحث هنا وهناك،

وكان موقفه سيئاً جداً، فإن التسعة الباقين مسئولون منه كذلك فكيف يبحث بحثاً جاداً، وهؤلاء فى رقبته مسئولون منه؟ ولم يجد وسيلة إلا أن يمسك بأقرب مار من الناس، ليضمه إلى التسعة، فيكمل بذلك عدد المساجين عشرة. وبهذا يعيدهم إلى يعيدهم إلى السجن كاملى العدد، وينجو من العقاب ولقد فعل، والرجل يصيح: ماذا فعلت؟ لماذا تأخذنى؟ إنى عائد إلى بيتى. زوجتى وأولادى ينتظروننى على الغداء. ولم تجد كل هذه الصيحات، وعاد السجان بالمساجين والعشرة حيث سلمهم إلى السجن.

-لكن المسجون المظلوم. هل ظل سجيناً؟

-لا طبعاً، أطلق سراحه بعد عدة أيام قضاها فى السجن يصيح وينادى بأنه ليس سجيناً، لكنه تكملة العدد !

-هذا شئ غريب.

-وهذا ما تفعله الحكومة فيما أظن.. أو فيما تنطق به وجوه هؤلاء البلهاء ! تكمل وجودها، فتلقى بعدد ما من المواطنين فى مثل هذه الأماكن لتبرر تصرفات أخرى قد تتخذها حماية لأمنها.

-ومعنى هذا أنها تختار هؤلاء بلا سبب.

-بل إنها لا تختار أساساً. إن الاختيار كلمة كبيرة على حكام يتصرفون هذا التصرف. إن الظروف والمصادفات تلقى فى طريقها عدداً من الناس كما ترى.

-أتعرف غداً عندما تصبح واحداً من هؤلاء، سيسوءك من المنقول الجديد أن يظن بك هذا الظن، وأن يضعك فى هذا الوضع المهين.

-أو تظن أنى كهؤلاء؟

-أو تظن هؤلاء كما تقول؟

●●●

وكما يكون المنقول الجديد، فى هذه الحالة، من المحاورة النفسية.

وكما يكون المنقول الجديد، فى هذه الحالة من محاولة التعرف على مجتمعه الجديد، وهو بعد على ظهر الباخرة التى تقله إلى هذا المكان.

تماماً كأنما يطل إلى أمام، فى طريق جديد، لم يخط فيه خطوة قبل، لتبين له مواضع قدميه.

كذلك يكون المنقولون القدامى وهم بعد على الشاطئ، يمدون أبصارهم إلى ظهر الباخرة القادمة، ليروا المنقول

الجديد، وليحاولوا أن يتعرفوا عليه قبل أن يقابلوه. قبل أن يصافحوه. قبل أن يحدثوه.

وبينما هم ينتظرون، تدور بينهم أحاديث مختلفة.

●●●

الضابط عادل برهان يقول على طريقته فى السخرية:

تعرف يا نخلة أفندى إن منطقة كلابشة ستشهد فى الأيام القليلة القادمة، أيامها الذهبية. إن اسم كلابشة سيتردد فى كل مكان، وسمعتها ستفوق أية سمعة لأى مكان آخر.

ويتردد نخلة أفندى، فى أن يستزيد الضابط عادل برهان المعلومات.

كما يتردد فى أن يسأله تفسيراً لما يقول.

لكنه لا يستطيع أيضاً أن يسكت عما يسمع.

وينتظر قليلاً، عسى أن واحداً آخر يسأل الضابط عادل برهان هذا التفسير. لكن أحداً لا يسأل، فيدور نخلة أفندى حول نفسه فى محاولة قلقة، للسكوت عن السؤال ثم يعود "فيتنحنح" لعل صوته فى نفسه يغنيه عن أى سؤال.

ولا يستطيع نخلة أفندى بعد هذه المحاولات أن يسكت، فيقول للضابط عادل برهان.

كنت تقول ماذا؟ هل سمعتك جيداً وأنت تقول: إن اسم كلابشة سيرتفع، وأن سمعتها ستضرب سمعة كل البلاد الأخرى؟

ويرد عادل برهان: تماماً، بل إنك خففت حديثى.

ويقول عم نخلة: أنت طبعاً تمزح.

ويقول الضابط الشاب فى عصبية: أنا؟! أنا؟ أنا أمزح أنا؟ أهكذا يا نخلة تأخذنى دائماً على أنى أمزح.

ويجيب نخلة أفندى: إذن تريد أن أصدق ما تقوله !! إذن تريدنى أن أصدق أن اسم كلابشة سيصبح أشهر اسم فى هذه البلاد !! مجنون أنا يا حضرة الضابط؟! لماذا يصبح اسم كلابشة على كل لسان؟

يقول الضابط عادل برهان: قلت لى لماذا ! أنا أحكى لك لماذا. لأن المنقول الجديد يا نخلة أفندى.

ويميل على أذنه، حتى لا يسمع أحد سواه بقية الكلام ويقول له:

متخصص فى إلقاء القنابل على خصومه السياسيين. وله باع طويل فى هذا المجال، بل إن خبرته تشمل العملية كلها، إنه يصنع القنابل شديدة الانفجار، إنه يعرف أين

توضع قنابله، ليقضى على أى مكان يريد التخلص منه.

وفى خلال هذا الحديث الهامس، تكون حدقتا عم نخلة تذهبان، وتجيئان كعقارب ساعة مختلفة، أو عقارب ساعة تحركها أصابع عابثة. وتكون شفتاه تضطربان بالانفعالات، حتى إذا ما بلغ الأنفعال غايته صاح:

-أعوذ بالله، أعوذ بالله، يا شيخ حرام عليك، هل صحيح؟

ويؤكد عادل برهان أن ما يقوله عنه صحيح.

ويكاد الرجل يثب من مكانه خوفاً وهلعاً.

وبقية المجموعة تنظر إليهما فى ابتسام صامت. إنهم يدركون أنه لابد أن عادل برهان يمزح مع عم نخلة. لابد أنها كذبة جديدة بيضاء طيَّرت صوابه. وهم لا يحرصون على أن يسألوا نخلة أفندى عن هذه الكذبة، فإنهم يعلمون أنه لن يصبر أبداً على السر. أبداً. سيذيعه حالاً. إنه لا يستطيع.

وينظر إلى يمين ثم إلى شمال.

وينظر إلى الباخرة القادمة ويشير إليها قائلا:

يقول عنه إنه.. أقول يا حضرة الضابط؟

ويتردد عادل برهان قبل أن يجيب، ثم يقول له:

لكن.. لا داعى للفضائح يا عم نخلة.

ويهمس عم نخلة فى أذن كل منهم بما سمعه عن القادم الجديد، وعن السبب الذى من أجله نقلوه إلى هنا.

لكنه يعود يسأل الضابط:

لكنك كنت تتحدث عن الشهرة التى تنتظر كلابشة.. لماذا تشتهر كلابشة يا بنى؟

وهنا يقول الضابط فيما يشبه الهمس:

قلت لماذا. أنا أقول لك لماذا. أولاً لأن هذا المنقول الجديد خطير جداً، ومشهور جداً، وقد دوَّخ الحكومة شهوراً عديدة. وثانياً لأنه قد يتخذ من هذه البلدة الصغيرة النائية مكاناً يمارس فيه نشاطه الهدام، وهو آمن. من ذا الذى يراقبه؟ من ذا الذى يعاقبه؟ من هنا يضبطه؟ من يحول بينه وبين تحويل كلابشة إلى مكان لعمل المدمرات والمتفجرات يرسلها إلى أعوانه فى كل مكان لينسفوا البلد كلها إذا أرادوا.

ويصيح عم نخلة:

- ماذا تقول؟ يحيل كلابشة الهادئة الوادعة، التى تسمع فيها دبيب النمل إلى مكان لعمل المدمرات والمتفجرات !!

يوزعها على أعوانه ! ثم تقول يا حضرة البوزباشى الهمام، عادل بك برهان: من ذا الذى يراقبه؟ من الذى يعاقبه؟ وماذا تفعل أنت هنا يا حضرة الضابط؟ لماذا يفتحون لك هذه النقطة؟ لتقول هذا الكلام؟! لتترك مجرماً كهذا يمارس نشاطاً هداما مخرباً. وتكتفى سعادتك بأن تسأل عمن يراقبه، وعمن يعاقبه؟! أنا يا سيدى أراقبه. أنا أعاقبه. يا عالم !!

ويسرع عادل برهان ليقول:

-لكنك تعلم يا عم نخلة أنى لا أصلح لهذه المهمة، أنا هنا مضطهد، أنا منفى.

ويصيح نخلة افندى:

-أنت ضابط بوليس، أتفهم؟ أنت لم تنقل هنا فى وظيفة مضطهد أو وظيفة منفى، أنت منقول إلى كلابشة لتحافظ على الأمن فى كلابشة، والمناطق المحيطة بها.

ويقول الضابط:

-إذا كنت أنا لا أشعر فيما بينى وبين نفسى بهذا الأمن، فكيف أكفله للناس؟ إذا كنت أنا غير آمن على حريتى وعلى مستقبلى، فكيف أحمى أمن الناس؟ كيف أؤمنهم وأنا أبحث عن الأمن؟ إن فاقد الشئ لا يعطيه يا نخلة أفندى.

ويرد نخلة أفندى:

-هذا تلاعب بالألفاظ يا بنى. أنت تخلط بين الأوضاع المختلفة، هذا رجل خطر فيجب عليك أن تمنع خطره عن الناس.

ويضحك الضابط عادل برهان، وهو يقول:

-حاضر. إن شاء الله. إن شاء الله يا عم نخلة.

ويعقب نخلة افندى على هذا:

-هكذا ! والله أنت رجل يا عادل يا ابنى. أنت ابن أصول، وأولاد الأصول تتضح عليهم أصولهم. أيا كان خلافك مع الحكام، فأنت لا تفرط فى واجبك، ولا تترك أمن كلابشة ينفجر بهذه المدمرات القاتلة. إلى أين يذهب واحد مثلى، إذا لم يجد حتى فى كلابشة مأمنه؟ أأذهب إلى الآخرة؟ لم يعد بعد كلابشة إلا هذا.

ويصيح الضابط عادل برهان قائلاً:

-وهكذا يعترف عم نخلة بأن كلابشة هى آخر محطة قبل الآخرة !! أتعرف يا رجل. لقد حطمت أعصابى بكلامك عن جمال كلابشة، وهدوء كلابشة، والشعور بالسلام والأمن فى كلابشة. أعرفت لماذا هى كهذا جميلة وهادئة وآمنة؟

لأنها هى المحطة الأخيرة قبل الآخرة: يصفر القطار، فتدرك أن الوقفة القادمة هى الآخرة، ويصبح عليك أن ترتب حقائبك، وتعد زادك للرحلة التى لا يعود منها أحد أبداً. أكان لابد لى من أن أنتزع اعترافك بهذا الأسلوب؟ بالكذب على الناس؟ باختلاف الروايات والقصص؟ باتهام رجل برئ كهذا اتهامات باطلة؟

ويهز نخلة أفندى رأسه، فيهتز مع رأسه طربوشة الأحمر القديم، ويهتز كذلك زر الطربوش الأسود.

ويردد الرجل مع هذه الهزات: آه.. فهمت.. آه.. فهمت.

●●●

أما الشيخ سعد، فإنه يتنهد ويقول:

-مكسين أيها القادم الجديد. لو تعرف ماذا ينتظرك هنا. فستصبح قطعة جامدة لا تتحرك. لا يعرف أحد مكانك.

ويقول له الأستاذ برعى:

-أسمعنا ياسى الشيخ.. إذا.. ماذا بعد إذا ياسى الشيخ؟

ويقول الشيخ سعد:

-إذا المنقولة سئلت، بأى ذنب طردت..

لكن الأستاذ رجب يقول:

-لا تؤاخذنى يا حضرة الناظر. الشيخ يحرف كلام الله عن مواضعه. وينزعج الشيخ سعد انزعاجاً شديداً هو يصيح فيه:

-أتسمع هذا الكلام يا حضرة الناظر؟ وهل تسمح به يا سيدى برعى بك؟ أنا أحرف كلام الله عن مواضعه أنا؟ أنا تعرضت لكلام الله.أساساً؟!

ويقول الأستاذ رجب:

-أتراه قرآنا جديداً إذن؟

وينتقض الشيخ سعد بالثورة، وتهتز عمامته وهو يقول:

-قرآن جديد !! قرآن جديد !! إذا اقتدينا بالقرآن، قال هذا... هذا.. هذا الأفندى إنه قرآن جديد!!! إذا حاولنا أن نقتفى أثر القرآن البلاغى ... قال هذا ... هذا..هذا المدرس... إنه قرآن جديد !! احمنى يا برعى بك من مدرسيك.

ويرد الأستاذ برعى:

- العفو يا سى الشيخ العفو. أنت لست محتاجاً إلى حماية أحد. إنك الخير والبركة وأنت أستاذنا.

ويرد الشيخ سعد قائلاً:

- الله يبارك فيك. الله يحفظك. الله يخليك.

وينظر إلى الأستاذ رجب وهو يقول:

- هكذا الناس الأكابر، تعلم منهم.

ويقول الأستاذ رجب:

- إنى أضحك معك يا مولانا. أو تصدق أنى ألصق بك تهمة كهذه. أيطاوعنى قلبى يا سى الشيخ؟

ويقول الشيخ:

- أنا ناقص تهم؟! ألا يكفى أنى أول شيخ وإمام شيوعى؟!

ويتدخل الضابط عادل برهان فى الحديث، فيقول للشيخ سعد:

- ما اسمك السياسى يا سى الشيخ؟

ويقول الشيخ سعد:

- الله.. اسمى السياسى. أصبح لى اسم سياسى؟ هل الاسم السياسى يختلف عن الاسم الشخصى؟

ويقول الضابط:

- طبعاً يختلف.. تماماً كالاسم الفنى، يختلف عن الاسم الشخصى.

ويسأل الشيخ سعد فى بلاهة:

- الاسم الفنى؟! أنت تتحدث بالألغاز.

ويقول الضابط:

- هل تعرف ممثلة مثلاً اسمها عيوشة.

ويضحك الشيخ سعد طويلاً وهو يقول:

- لا لا. وهل هذا اسم هذا؟ إنه اسم منفر.

ويقول الضابط:

-فإذا أرادت واحدة اسمها عيوشة أن تمثل فإنها تغير اسمها، حتى لا يقال عنها ما قلته أنت الآن، كذلك فى السياسة.

ويعقب الشيخ:

-إذا كان هناك واحد اسمه أبو القمصان مثلاً، وأراد الاشتغال بالسياسة يسمى نفسه.. يسمى نفسه.. يسمى نفسه.. ماذا؟

ويردّ الضابط وبعض أفراد المجموعة فى صوت واحد:

-سعد.

ويضحك الجميع بينما الشيخ سعد يقول:

-سعد ماركس.. سعدنين.

ويقول الضابط:

-هذا هو اسمك السياسى. سعد ماركس. سعدنين. لماذا تتجاهل إذن منذ سألتك؟ إنه اسم جميل، ولو أنى مكانك، لأعلنته فخوراً به.

ويرد الشيخ سعد قائلا: إنه يريد أن ينقلنى إلى المحطة التالية لمحطة كلابشة.. ما هى يا نخلة أفندى؟

-ويقول نخلة أفندى:

-اتركوا نخله فى حالة.. ومع هذا، فالمحطة التى تسأل عنها اسمها "الجنة".

ويقول الشيخ سعد:

-حتى أنت يا نخلة أفندى تريد أن تتخلص منى. اسمها الجنة ! تقول هذا لتغرينى بالجنة ولماذا لا يكون اسمها الجحيم؟ الجحيم يا نخلة.. بك !!

ويرد نخلة أفندى مبتسماً:

-لالا.. اطمئن اسمها الجنة، أنت رجل طيب، اسمها الجنة.

ويصيح الشيخ سعد :

-حلال عليك يا نخلة بك.. حلال عليك الجنة، أما أنا فباقى هنا عند المحطة الأخيرة.. أو المحطة قبل الأخيرة. سأكون آخر واحد يودع عم نخلة إلى ... الجنة !!

ويضج الجميع بالضحك، بينما نخلة أفندى يهز رأسه فيهتز طربوشه ويهتز كذلك الزر الأسود خلف الطربوش فى حركة منتظمة كالألحان.

●●●

وعندما تبدأ تتضح للمستقبلين ملامح وجه القادم الجديد إلى هذه البلاد النائية.

وعندما تقترب الباخرة من الشاطئ.

وعندما تبدأ العيون تتلاقى، فترتسم على الوجوه ابتسامات غامضة.

عندئذ تبدأ محاورة نفسية على الشاطئ، فيتحدث كل من المستقبلين إلى نفسه عن القادم الجديد، وماذا يا ترى سيكون سلوكه مع هذه المجموعة من الناس؟

الضابط عادل برهان يتطلع إلى الرجل ويتحدث مع نفسه عنه هذا الحديث الغريب:

-إن الرجل يبدو طيباً .ترى لماذا أرسلوه؟ أهذا شخص يتمرد أو يشاغب أو سيبب متاعب؟ هذا المسكين يشغل بال السلطات، يؤرق جفون الحكام فينقلونه إلى هذا المكان؟ وهذه حكومة تلك التى تهتز من هذا البسيط المسكين؟

لكن من يدرى ! ربما كانت له قصة كقصة الشيخ سعد. أخذوه هكذا قضاء وقدراً، ولم يحاولوا أن يتعبوا أنفسهم ليتحروا عنه.

-هذا درس لك. عندما تصبح وزيراً للداخلية، فلا تعتمد على تقريرات المباحث والمخبرين، وإلا أوفدت ناساً كالشيخ سعد إلى كلابشة، ليصبح كل همه الحديث عن جهل الحكومة وسوء تصرفها.

- لكن على من أعتمد إذن؟

- على نفسك.

- يا..خى !! أقيم من نفسى مباحث ومخبرين وأجهزة تحريات عن الناس.

- لتضمن أن تكون تصرفاتك عادية.

- وأترك مسئولياتى الأخرى لمن؟

- تقوم بها أيضاً.

- صلى على النبى ودعنا من هذا الآن. إن الرجل العبيط المسكين يضحك ! إنه يحيينا.. والله أمير.. هذا العبيط ! ستصبح كلابشة إذن معتقل السذج المساكين. الشيخ سعد، وهذا القادم الجديد.

- .. ونخلة أفندى. .

لا لا. نخلة أفندى متطوع. نخلة أفندى فدائى. نخلة أفندى بطل.

●●●

أما الأستاذ برعى، فإنه يتأمل الرجل الجديد القادم ويتحدث مع نفسه عنه:

- يا ترى أى صنف يكون؟ لعله يكون إنساناً مسالماً، لا يتاجر فى زملائه كما تاجر الآخرون فيك.

- مسالم وطيب ومستقيم. إذن لماذا جاءوا به إلى هنا؟ لماذا يعاقبونه؟

- ولماذا يعاقبونك أنت؟ ألا أنك لست مسالماً ولست طيباً ولست مستقيماً.

- لا. أنا شئ، وهو شئ آخر. أنا أدفع ضريبة لؤم الآخرين. أنا أدفع ضريبة الغدر والخسة.

– ومع هذا فأنت طيب ومسالم ومستقيم.

-طبعاً.

– إذن لماذا لا يكون هو الآخر كذلك؟

– المهم ألا يأتى إلينا بشرٌ جديد.

– وممَ تخاف؟ أتخاف وأنت فى كلابشة؟ علام؟ وماذا يمكن أن يفعلوه معك، بعد هذا؟

– المسألة ليست مسألة أذى نصاب به هنا. إننا هنا قد وصلنا إلى أقصى درجات الأذى، لكنا لا نريد بعد هذا. أن نعيش تعساء من شعورنا بأن بيننا شخصاً سيئاً.

– يا سيدى. دع الخلق للخالق.

●●●

والشيخ سعد، يمسك ببضع شعرات تتدلى من ذقنه، وهو ينظر إلى الباخرة، ويأخذ ويعطى من نفسه هذا الحوار:

– من يدري. قد يكون يا هذا مظلوماً مثلى !

– وقد يكونون اعتبروك زعيماً شيوعياً مثلى، فى حين لا تعرف هل هذه الشيوعية طعام أو شراب أو مكان !!

– لكنه يبدو كالنمس لئيماً خبيثاً.

- يا راجل استغفر الله وتب إليه. كيف تحكم على الناس هذا الحكم الجائر. انتظر حتى يتبين لك من أمرهم ما تستطيع أن تحكم به عليهم.

- هو مظلوم. هو منقول بالصدفة. مثلى !

- لا بل هو متمرد مخرب يجب أن ينال حظه من التأديب.

- وهب هذا أو ذاك، والنتيجة واحدة.

- لكن هذا غير مستقيم، إنه غير منطقى، كيف يستوى الأعمى والبصير.

- فى كلابشة يستويان.

- من سوء الحكم وفساده، وعفنه كذلك.!

- آه دخلت فى السياسة يا بطل وستتمرد على السلطة وعلى الحكومة، يا سعد ماركس.

- بل يا سعدنين.

●●●

نخلة أفندى وحده، هو الذى أدار مع نفسه حديثاً مختلفاً تماما عن هذه الأحاديث.

- يا ترى لك أولاد شردت نفسك من أجلهم؟

- أم أنها كفارة تدفعها عن إثم ارتكبته؟

- وهل يقدر لك أولادك، هذا العمل العظيم. هل يذكرونه لك؟

- إنهم بطبيعة الحال يذكرونه الآن، وهم طلاب، وهم يدرسون وهم يكافحون فى سبيل العلم.

- فإذا خرجوا إلى الحياة.إذا تخرجوا فى الكليات والمعاهد العليا. بل يوم يجدون الدنيا سهلة تحت أقدامهم. أيذكرونك يومئذ؟

- أم أنهم يتنكرون.

- وقد ينكرون؟

- وفى النكران يتمادون.

- ويسرفون.

- فيغيرون ألقابهم أو يكادون.

- ألا ساء ما يفعلون.

- إنهم فى غىّ يعمهون.

ويتنهد نخلة أفندى، وهو يهز رأسه منكراً أن يحدث هذا من أى ولد. رداً لجميل والد. خاصة إذا كان هذا الجميل سنوات من عمره يقضيها فى بلد مثل كلابشة.

كـذلـك تدور ألوان أخـرى من الحـوار النفـسى بين الموجودين جميعاً. وأساس الحوار دائماً هو القادم الجديد، وأى صنف يكون.

فـإذا رست البـاخـرة، فـإن هذا الحـوار ينقطع، وينزل المنقول الجديد، حـاملاً مـا يستطيع حمله فى حين يكون بعض العساكر والفراشين قد صعدوا إليه يجملون معه بقية ما جاء به من متاع.

وغالباً ما تبدأ مراسم الاستقبال بأن يتقدم حضرة ضابط نقطة بوليس كلابشة، ليصافح المنقول الجديد، ويقدم نفسه إليه، ثم يقدم له الباقين. ناظر المدرسة والمدرسين، وإمام الجامع ووكيل البريد، ثم الصول والشاويش والعساكر والفراشين.

فـإن يكن هناك واحد من الأهالى فى الانتظار فإنه يقدمهم إليه مبتدئاً بطبيعة الحال بالعمدة وشيخ الخفر والخفر وأعيان النجوع.

ثم لا ينسى أن يقدم له الصياد الفتى "مدثر" صاحب أجمل وأشهى سمك تجود به مياه النيل.

ويمد "مدثر" يده فى ثقة وفى سماخة يصافح القادم الجديد مرحباً بمقدمه، ومؤكدا له أنه سيكون دائماً فى خدمته.

وفى الطريق إلى منزل القادم الجديد، أو المنقول الجديد، تبدأ أحاديث متقطعة أغلبها تحيات وسلامات، وتمنيات بأن يكون المكان الجديد، خيراً وبركة على المنقول الجديد، وأن يكون قدوم المنقول الجديد خيراً وبركة على البلدة كلها.

وكلما مرَّ المركب ببيت أو جماعة، تبادل معهم التحية والسلام، حتى يصل إلى منزل المنقول الجديد. وهو عادة منزل بسيط من المنازل التى أقامتها الحكومة لموظفيها، ووضعت فى نوافذ البيت زجاجاً، ومع زجاج طبقة من السلك الرقيق.

ويتعرف المنقول الجديد بمنزله، ويعاونه الباقون على أن يتم هذا التعارف على أكمل الوجوه، فلا ينسى أن بالمنزل حماماً بالقيشانى وحنفيات للماء الساخن أيضاً وعندما يسأل المنقول الجديد عن حكمة وجود هذه الحنفيات، يجيبه زملاؤه بأن الجو هنا صقيع !! وتكون هذه أول جملة فيها بعض المزاح !

ويكون على المنقول الجديد أن يبدأ فى تنظيم حاجاته وتوزيعها على حجرات الدار، لكن الجمع الموجود معه يصر على أن يعاونه فإن كل شئ هنا يتم بالتعاون بين الجميع.

ومـا أن تنتـهى هذه المهـمـة حـتى يكون الطعـام قد أعـد، ووضع بالفعل على المائدة.

ويقول ضابط النقطة:

- لقد دعونا أنفسنا عندك اليوم.

فيرد الرجل:

- بل هذا فضل كبير منكم أنتم.

وبعـد تناول الطعـام يتـرك الجـمع، القـادم الجـديد، ليستريح، على أن يكون اللقاء فى المساء، فى البهو الفرعونى أو مجلس الشورى، أو دار الحكمة، أو الصالون الأخضر.

ويفتح المنقول الجديد عينيه غير مصدق لما يسمع.

لكنهم يشرحون له هذه الأسماء.

البهو الفرعونى هو نقطة البوليس. ومجلس الشورى هو المسجد، ودار الحكمة هى المدرسة، والصالون الأخضر هو مكتب البريد.

- لكن لماذا؟

- لأن نقطة البـوليس هى مكان الحكم هنا، أعظم مـا عندنا من إنشاءات، ثم إن الاستبداد والقسوة قديمة فى طبيعة البشر قدم الحضارة الفرعونية، أو ربما أقدم.

ويضحك ضابطِ البوليس مؤمناً على ما يقولون.

ويمضى الشرح يقول:

- أما المسجد، فهو روح الشورى ومنه تنبعث كل قواعد الديمقراطية السليمة فسمينا مجلسنا فيه أو فى حديقته مجلس الشورى. أما دار الحكمة فهى المدرسة ومنها تصدر كل حكمة.

- والصالون الأخضر.

- إنه مكتب البريد.

ولماذا سميتموه الصالون الأخضر؟..

-... من أجل عم نخلة.

□□□

(8)

ماذا تخفى لك الأيام يا غلاب؟

ماذا تخبئه لك الأقدار يا ولد النوبة العجوز؟

أما يكفيك ما لقيته فى عمرك الطويل من متاعب، وما قابلته من مشاق، وما انطوت عليه نفسك من أحزان؟

لقد ولدت، قبل مطلع هذا القرن بعشر سنوات أو أكثر.

أنت يا ريس لا تدرى على وجه التحديد. لكن الشئ الذى تدريه تماماً، وعلى وجه التحديد، أنك كنت منذ ولدت، مع البؤس والشقاء على ميعاد!!

لقد تعقبك البؤس يا ريس، فلم يدعك تفرح أبداً.

إن أى فرحة فى حياتك، أعقبها دائماً قدر قاس بدَّد الفرحة، وكاد يقلبها مأتماً. وقد نجح فى حالة منها، فقلب الفرحة مأتماً فعلاً، بل جعل منها قرحة فى القلب لا تلتئم أبداً.

إن فرحتك الأولى يا غلاب، وأنت بعد شاب فارع قوى، معتد بنفسك، وبأسرتك وبقوتك. فرحتك الأولى كانت يوم

تزوجت من رحمة، وكانت فتاة حلوة فاتنة بارعة الجمال وكان زواجك منها بعد إعجاب استمر سنين، ونظرات ولهى ملأت شبابينا بالحب الممتع الجميل، ولقاءات عابرة عند الساقية التى بين حقلينا، كانت دائماً كالنور تضئ حياتنا بالأمل، وكالنار تحرق قلبينا بالرغبة.

لكنك لم تكمل فرحة شبابك.

استكثرت عليك الأيام أن تفرح، يا ريس يا مسكين !

فما هى إلا أيام، ثم أعلنت الحكومة أنباء التعلية الأولى للخزان.

متى كان ذلك يا غلاب؟ وفى أى عام؟

هل كان ذلك سنة ١٨٩٠؟ هل كان بعدها بقليل؟ المهم أن هذا النبأ، كان هدية الحكومة إليك بمناسبة زواجك السعيد.

وأنجبت ابنك "حسين" خلال تلك السنوات القلقة.

لكنك على كل حال حمدت الله على ما كان.

لقد قابل أهل النوبة إرتفاع المياه على شواطئهم، بالصبر والرضا، وقالوا سيكفينا القدر الباقى، وسندبر أمورنا على أساس ما عندنا والله معنا.

وسـرت يا غـلاب فى طريقك فـرحـاً بعـروسك وبابنك، تزرع وتقلع، والدنيا كلها تفتح لك ذراعيها.

وأخذ "حسين" ابنك يكبر تحت عينيك. ترقبه وهو يكبر يوماً بيوم فتزداد سعادتك به، بقدر ما يكبر.

ولم تسعك الدنيا عندما أصبح "حسين" فتى قوياً جميلاً تحلم به حسان هذه النجوع. ثم لم تسعك الدنيا عندما أخذ عود الفتى يشتد على الأيام حتى لقد طلب منك ذات يوم أن تترك له أمور الحقل، فكفاك ما بذلته فى عمرك الطويل.

وكـان ردك يا ريس غـلاب على ولدك الوحـيـد، أنك لن توافـقـه على هذا الرأى ما لم يوافـقك هو على أن يـخطب فتاة من فتيات النجع، وأن يتزوجها لتكون له منها ذرية تنعم بها يا ريس غلاب قبل أن تموت.

ولم تسـعك الدنيا مـرة ثالثـة، عندما قـال لك إنه اخـتار طاهرة أجمل فتيات هذه النجوع زوجة له.

على أن قدره كان كقدرك.

فما هى إلا أيام من فرحته، حتى أعلنت الحكومة قرارها بالتعلية الثانية للخزان.

هدية أخرى تقدمها الحكومة للعريس الجديد، بمناسبة زواجه:

وكما قدمت لك الحكومة التعلية الأولى هدية لمناسبة زواجك، فإنها اليوم تقدم التعلية الثانية هدية لابنك بمناسبة زواجه.

إن حظة من حظك يا ريس غلاب.

أتذكر يا ريس غلاب مأساة التعلية الثانية؟

لقد حولت الأرض الصالحة للزراعة إلى شريط طويل يمتد إلى جوار النيل، وحتى هذا الشريط لا يصلح للزراعة إلا بضعة أشهر كل عام، وبعدها ترتفع مياه النيل، فتغرق الزراعات.

لقد كانت هدية الحكومة لابنك أضعاف هديتها لك !

وليتها كانت نصف هديتك !

ولقد كنا على وشك الجوع، لولا أن "حسين " تركنا إلى القاهرة يبحث لنا عن مورد نعيش منه.

وكم كانت فرحتنا به يوم وفق إلى عمله بقصر العينى.

وكم كانت فرحتنا به يوم أرسل لنا جنيهين ونصف جنيه لنعيش عليها شهراً.

وكم كانت فرحتنا به يوم أرسل إلينا يقول إنه لن يحتفظ بنفسه بأكثر من خمسين قرشاً كل شهر. لقد برهن لنا بهذا

على أنه رجل، وأن حـبـه لنـا ولابنه يفـوق حـاجـاته هو الشخصية.

لكن الزمن استكثر عليك هذه الفرحة، كما استكثر عليك كل فرحة سبقت يا ريس غلاب.

استكثر عليك فرحتك بزواجك.

استكثر عليك فرحتك بابنك.

استكثر عليك فرحتك بحفيدك.

وإنه ليـسـتكـثـر عليك الآن أن يكون لك ابن فـيـه هذه الرجولة وهذه الشهامة وهذه التضحية، فماذا يفعل هذا الزمن؟

لقد تبين أنه سيعجز عن تغيير الولد. فأخذ الولد من الوالد !!

وإذا الفرحة بحسين تصبح قرحة ... لن تندمل أبداً.

●●●

على أن سبحانه وتعالى عوَّدك يا ريس غلاب ألا ينساك.

أخذ منك "حسين"، فأعطاك الفتى "مدثر". إنه أجمل فتيان هذه النجوع وأشدهم وأقواهم كما كان أبوه.

وقد حل مدثر محل أبيه.

وكّرر مدثر ما فعله أبوه. ذات يوم طلب منك ألا تخرج للصيد أبداً، وأن تترك له هذه المهمة، فإن ما فعلته للأسرة طول عمرى، يكفيك.

ووفق الله "مدثر"، فأعطاه ما يطلبه من سمك. أعطاه حاجات أسرته وأكثر. ومدثر صياد قنوع لا يهتم كثيراً بالمال، إلا فى حدود ما يكفى أسرته. ومدثر رجل شهم يسرع لمساعدة الناس.

وبقدر ما ستر الله حياتك يا ريس غلاب، بقدر ما أصبحت تخاف من الزمن.

من يدرى؟ قد يعود فيستكثر فرحتك بحفيدك، ويكون له تصرف آخر يزعج حياة الأسرة ويبدد سعادتها.

اللهم لا !! اللهم لا تسمع من أحد، ولا تجب حتى الزمن لهذه الرغبات. اللهم احفظ "مدثر"، لنفسه وآماله، ولك يا ريس غلاب.

●●●

أكان لابد له من أن يجرى وراء هذا التموين؟

لقد عاشت كلابشة عمرها بلا تموين، والتموين لن يغنى

هؤلاء القوم البسطاء. لماذا يا ابنى يا مدثر تتعب نفسك من أجل التموين؟ إن الفتى المسكين لا عمل له الآن، كلما فرغ من صيد السمك، إلا السعى فى سبيل الحصول على تموين لأهل هذه النجوع.

ولكم حاولت يا غلاب أن تثنيه عن عزمه، لكنه أصرّ.

والحقيقة أن منطق الولد سليم.

إنه يقول: يا جدى، إنى أفرغ من صيد السمك كل صباح أو كل ضحى. وأقضى أغلب الأيام بلا عمل. كذلك فإن القارب يضطجع إلى جوار الشاطئ طول اليوم حتى أعود إليه. ماذا يضيرنى، لو أنى أستغل وقت النهار والقارب فى سبيل خدمة أهلى وأصدقائى من ابناء كلابشة؟ ماذا يحدث لو استطعت بغير أن أضحى بقوتى وقوت أسرتى،أن أنتشل أهل كلابشة من المستغلين ولصوص التموين؟ إنى لو لم أفعل لكنت مسئولاً عن ذلك أمام الله والناس، طالما أنى قادر على أن أفعله. يا جدى العزيز اطمئن إلى أنى أفعل ما كنت ستفعله أنت لو أنك فى سنى وفى مكانى، وما كان سيفعله المرحوم والدى لو أنه عاش حتى يرى بعينيه ما يحدث بشأن التموين.

مم تخاف يا ريس غلاب؟ اتركها يا شيخ على الله.

لكن لماذا تأخرت يا مدثر؟ لقد ذهبت مع حضرة الضابط إلى أسوان، وكان مفروضاً أن تعود منذ ساعات. والله لقد أتعبتنى يا ابنى العزيز من كثرة ما استخرجته لك من أوراق وضمانات. على كل حال ربنا معك بقدر ما تضمر من نوايا الخير يا ابنى. على الله تكون عودتك اليوم سعيدة. أريد أن أراك فرحاً مسروراً بما حصلت عليه من مواد التموين. إن هذا هو حلمك الآن يا مدثر، ربنا يحقق لك حلمك. على أنه إن كان سيعقب هذا التموين شئ سيئ فاللهم لا تحقق لمدثر حلمه أبداً. إنى لم أعد قادراً على أن أتحمل بعد الذى تحملته شيئاً.

●●●

كان الريس غلاب جالساً فى نقطة بوليس كلابشة ينتظر عودة حفيدة مدثر فمنذ بدأ مدثر يسعى للحصول على التموين، ليوزعه على أهل كلابشة مرة كل شهر بالسعر الرسمى، وهو مشغول فى نقطة البوليس أغلب ساعات النهار.

لقد اقتنع حضرة الضابط بأن يساعده فى مسعاه، بعد جهد كبير.

وعندما قيل لمدثر إن سنك قد تكون أصغر من السن اللازمة لرجل يتولى هذه المسئولية، أجاب: فى هذه الحالة تعطى المسئولية لجدى الريس غلاب، وأنا الذى سأؤديها عنه.

وعندما قيل لمدثر إن الأمر قد يحتاج إلى تأمين مالى أجاب على الفور: فى هذه الحالة سأقنع جدى بأن يدفع كل ما ادخرته الأسرة لتصل إلى الحصول على التموين.

وعندما قيل لمدثر إن الأمر قد يحتاج إلى ضمان عينى، أو شخصى، أجاب على الفور: فى هذه الحالة، عندكم كل بيوت كلابشة ضمان، وكل رجال كلابشة ونساؤها ضامنون.

لم يقف أمام شئ متردداً.

ولم يثنه شئ عن عزمه.

وكان شديد الثقة فى أن جده الريس غلاب لم يخذله أبداً، كما كان شديد الثقة فى أهل كلابشة جميعاً.

كان يتحدث عنهم كأنهم جزء منه، وكأنه جزء منهم.

وكانت هذه الثقة، كما كان هذا الإيمان، هو الذى أقنع اليوزباشى عادل برهان أن يسعى إلى تحقيق أمله بكل وسيلة يستطيعها، وقابل مدثر هذا الاقتناع من الضابط الشاب بالشكر والامتنان والدعاء.

وبعد أن تمت كل الأوراق المطلوبة، اتفق حضرة الضابط عادل برهان على أن يصحب مدثر إلى أسوان لإنهاء الموضوع مع سلطات التموين.

وحدد هذا اليوم موعداً للرحلة إلى أسوان.

ركبا باخرة البوستة الخديوية فى الفجر، على أن يعودا بها مساء اليوم نفسه، بعد أن يكونا قد أتما كل شئ.

لكنهما تأخرا بينما الريس غلاب ينتظرهما فى نقطة البوليس.

ويعلم الريس غلاب، كما يعلم سواه، أنهما مرتبطان بالباخرة، فإذا تأخرت، فإن عليهما أن ينتظراها. لكنه برغم هذا قد بدأ ينشغل عليهما، أو بالتحديد على حفيده مدثر.

ويتطلع الريس غلاب حوله فلا يجد إلا الشاويش متولى فى حجرة من حجرات النقطة، وقد أخذ يقرأ فى مجلة قديمة، قطعاً للوقت.

لاشك أنه ينتظر حضرة الضابط.

وذهب إليه لينتظره معه، فلا يستبد به القلق على مدثر.

وكان طبيعياً أن يتجاذبا أطراف الحديث:

- يا ترى لماذا تأخرت البوستة السودانية؟

– على كل حـال، إنهـا على وشـك أن تصل، إنى أريد أن أنام.

– أنت متعب. لابد أنك قمت بعمل كثير اليوم.

– تصـور يا ريس كـتـبت أربعـة خطابات لأولادى. أربعـة خطابات !

– ولماذا كتبت أربعة مرة واحدة، وفى يوم واحد.؟

– لتلحق كلها البوستة السودانية. تأخرت عليهم كثيراً.

– إن شاء الله تصل الباخرة، وتذهب لتنام.

– يسمع منك ربنا يا ريس غلاب.

ومضت لحظات صمت، قطعه الريس غلاب بأن قال:

–قل لى يا شاويش متولى. هل يا ترى ينال "مدثر" ابن ابنى مواد التموين كما يريد؟

– إن شاء الله يعود اليوم بما يريد.

– وتعتقد أن هذا شئ طيب.

– والله يا ريس غـلاب إنى لأعـجب لمدثر. لماذا يعـرض نفسه لهذه المشكلات؟! إن الذين يتحملون مشكلات التموين تجار يكسبون فى التموين. وفى سبيل الكسب تهون هذه

المشكلات. أما مدثر، وهو مصر على يوزع التموين بلا أرباح، فلماذا يتعرض لمشكلات لا نتيجة لها، لماذا؟ لماذا لا تنصحه أن يبتعد عن هذه المشكلات؟

- هل للتموين مشكلات يا شاويش متولى؟

- أعوذ بالله. نصف مساجين هذه الأيام مساجين تموين.

- مساجين تموين. هل للتموين مساجين؟

- قلت لك إنهم نصف مساجين هذه الأيام.

وذعر الريس غلاب، وانتابته حالة شديدة من القلق، فأخذ يستوضح الشاويش متولى عن هذا التموين، وعن مشكلاته، وعن المساجين الذين تحدث عنهم.

وانطلق الشاويش متولى يحكى له كل شئ.

إنها فرصة أن يقوم بشئ - أى شئ - بدلا من قراءة مجلة قديمة، قرأها عشرات المرات من قبل، وكاد يحفظها.

قال الشاويش متولى.

- هل تعرف يا ريس غلاب. إننى أنا نفسى، أنا هنا من أجل التموين أنا رجل شاويش لا لى ولا على، يعنى لا يمكن أن أكون هنا من أجل السياسة. ولست كحضرة الضابط ابن

أحد رجال الأحزاب. ولا أنا كالآخرين اتهموا فى عمل له صلة بالسياسة. الحكومات عندى شئ واحد، لايهمنى من يحكم، ولا أى حرب، فكلهم سواء. ومن يتزوج أمى، أقول له يا عمى !! إذن لابد منْ سبب غير السياسة وغير الأحزاب. إنه يا ريس غلاب التموين.

ويكاد الريس غلاب يثب من مكانه انفعالا وتأثراً بما يسمع، فيسأل الشاويش متولى أن يحكى له بالتفصيل كيف أنه أبعد إلى كلابشة بسبب التموين.

قال الشاويش متولى:

- والله يا ريس غلاب، لقد كذبوا على الله وعلىَّ. اتهمونى بأنى أشهد شهادة زور لصالح أحد تجار التموين، ممن يتاجرون فى قوت الناس وقوت عيالهم. والحقيقة أنه أقسم لى أنه قد تاب. أقسم بالله العظيم، أقسم بأولاده، أقسم بالطلاق أنه تاب. تاب توبة نصوحاً. فبعد أن كنت قد ضبطته يبيع بأكثر من التسعيرة، عدت أصحح الموضوع لينجو من العقوبة. لكن شهوداً آخرين أصروا على أنه باع لهم التموين بضعف السعر الرسمى، ولم تؤثر شهادتهم فى الموضوع أمام ما قررته بعد التصحيح الذى اتفقنا عليه. لقد اعتبرنى الدفاع السلطة التى لا تكذب، فصدر الحكم ببراءة التاجر.

- إذن لم تكن هناك مشكلة.

- لا يا ريس غلاب إن الحكومة ليست مغفلة، فقد بثَّت عيونها حولى، حتى اكتشف ما بينى وبين التاجر من علاقة. وكانت والله علاقة مودة وخير. كان يعطينى حاجتى من التموين، وكان يقدم لى بعض الهدايا. هل أرفض الهدايا؟ النبى قبل الهدية.

- وماذا فعلت الحكومة لما اكتشفت هذا؟

- رقتنى إلى رتبة ضابط؟! يا رجل. ألا ترانى هنا فى كلابشة؟ ألا يكفيك هذا؟ لقد نفتنى يا ريس غلاب إلى هذه البلاد. أعلمت ما فعلته الحكومة؟

- وصديقك التاجر؟

- لم يفعل شيئاً. لقد طلبت منه أن يتدخل، فإن له معارف لهم نفوذ كبير. معارف ممن يقبلون هداياه كما فعلت أنا طلبت منه هذا، لكنه رفض.

- هذه ليست رجولة.

- نعم ليست رجولة، لكن الله يمهل، ولا يهمل. هل تعرف ماذا حدث؟

- ماذا حدث؟

- ضبطوه مرة ثانية، ولم يجد فى هذه المرة مغفلا مثلى يخدمه بأقوال ليست صحيحة. لم يجد مغفلا يحلف له أنه تاب فيصدقه ويغير أقواله كما فعلت، لم يجد مغفلا يبيع ذمته ببعض الهدايا.

- وماذا فعلوا به؟

- السجن طبعاً، والغرامة، والفضيحة.

- شئ غريب.

- لماذا يعرض مدثر نفسه لهذه المشكلات؟

●●●

وسكت الريس غلاب.

وشرد الريس غلاب عن الدنيا كلها.

واستقر خيال الريس غلاب عند حفيده الحبيب، فلم يتحول عنه.

بينما كان الشاويش متولى يتحدث عن مشكلات التموين وأسراره.

●●●

إن التموين، يا ريس غلاب، كنز مفتوح لا حدود له. لكنه كنز مفتوح من طريق قوم معينين. وتجار التموين يعرفون

هؤلاء الناس، والذين لا يعرفونهم منهم، يتعرضون لكل ألوان الأذى، ولكل صنوف الاضطهاد. أما من عرف الطريق إلى هؤلاء، أما من عرف الوسطاء إلى هؤلاء، فإنه فى أمان، والثروة له مضمونه، والكسب عنده. بلا حدود.

إن تجارة التموين يا ريس غلاب مضمونة الربح، لا جدال فى هذا هل هناك من يستغنى عن السكر؟ أو الزيت؟ أو الجاز؟ لا يمكن. ومن طريق هذه التجارة، يستطيع التجار أن يروجوا أصنافاً أخرى كما يريدون، بالأسعار التى يحددون.

والذين يريدون أن يحصلوا على التموين بالأسعار الرسمية، ومن غير متاعب، عليهم أن يشتروا البضائع الأخرى من هؤلاء التجار، وإلا فإن عليهم أن يتحملوا متاعب الحصول على مواد التموين.

التجار الكبار. تجار الجملة يفعلون هذا وتجار نصف الجملة ينقلون هذه الأعمال على تجار التجزئة الذين يتعاملون مع الناس. وهؤلاء يضايقون الناس بقدر ما ينالون من سوء معاملة من طبقات التجار التى تتحكم فيهم، وهكذا ينتقل سوء المعاملة من التاجر الكبير إلى التاجر الوسط إلى تاجر التجزئة إلى رجل الشارع العادى، الذى يبحث عن حاجاته ليعيش فى أمان.

وتنتقل الأرباح كذلك مع سوء المعاملة، حتى إذا وصلت البضاعة إلى رجل الشارع وصلت بأسعار مضاعفة. ومن التجار من يقبل المغامرة حتى فى مواد التموين. ولم لا والأمر أمر مصادفات، قد يفلت من الرقابة، فيحقق أرباحاً خيالية، وقد يضبط فيحكم عليه بالسجن بضعة أشهر أو بضع سنوات إلى جوار الغرامات. وقد يهون السجن إذا كان الكسب مغرياً. أين ستذهب الأموال الحرام التى جمعوها؟ إنهم يسجلونها بأسماء أخرى غير أسمائهم. بأسماء زوجاتهم. بأسماء أمهاتهم. بأسماء أولادهم، حتى إذا ما حكم عليهم بالسجن أو الغرامة، لم تتأثر هذه الأموال نتيجة هذا الحكم، ويخرجون بعد فترة معينة، ليجدوا الأموال فى انتظارهم. والتجارة الحرام واستغلال الناس وابتزاز أموالهم والتحكم فى أرزاقهم وأقواتهم، ليجدوا كل ذلك فى انتظارهم أيضاً !

●●●

ويستطرد الشاويش متولى وهو يضحك يروى للريس غلاب حكايات مختلفة عن وسائل تهريب الأموال الحرام التى يتحدث عنها، والتى تدخل جيوب الناس من طرق غير شريفة ومنها التجارة فى مواد التموين.

-أتعـرف ذلك الـرجل الذى اخـتلس مـن أمـوال مـحـافظة مـصـر مـئـات الآلاف من الجنيـهـات ويقـال إن هـذه الآلاف وصلت نصف مليون أو ربع مليون من الجنيهات على الأقل؟

- لا لم أسـمع شـيئـاً من هذا. وأنىَّ لى يـا شاويش متولى أن أسمع عن هذا ونحن هنا بعيدون عن القاهرة؟!

-على كل حـال أنا أروى لك هذه الحكايـة، فإنى أعـرفـهـا تماماً، وسـأقـول لك فـيمـا بعد، كيف اتصلت بهـا. لقـد دخل هذا الرجل السجن، ليقضى فيه سبع سنوات، ثمناً للخطيئة التى ارتكبها، وهى اخـتلاس أموال الدولة. وقـد اتضح أنه لا يملك مما سـرق شـيئـاً. لقـد كتبـه كله باسم زوجتـه. اشـتـرى العمارات باسمها. اشترى الأطيان باسمهـا. أودع الأموال فى البنوك باسمها. أمـا هو فقد وجدوه خالى الوفاض. وعندما دخل السجن يا ريس غلاب، كان يعيش فى السـجن كالملوك تمامـاً. كأنما كـان فى بيتـه. وبين زوجتـه وأولاده !! الطعـام بميعـاد لا يخـتلف. ثم لا تـقدم إليه إلا أصناف مـعينة، من بيتـه، أو من أرقى مطاعم القاهـرة. ثم تقدم إليه فى كياسـة وذوق، كـأنما يجلس فى فندق فـاخـر، يخـدمـه "سـفـرجـيـة" مـدربون. فـإذا فـرغ من الطعام، قدمت له أشـهى الفـاكهـة ثم فنجان القـهـوة المضبـوط. كل ذلك بثمنه. وقـيل لـى يومـاً إنه

يتكلف فى كل شهر تكاليف ثابتة تدفع مرتبات، تبلغ خمسمائة من الجنيهات. وهو الرابح من هذه الصفقة إن هذا المبلغ معناه أن يتكلف ستة آلاف جنيه كل سنة، أى أنه سيتكلف فى السنوات السبع مبلغ اثنين وأربعين ألفاً من الجنيهات. ماذا يعنى هذا المبلغ بالنسبة لربع مليون من الجنيهات على الأقل اختلسها؟ لا شئ، لكنه يؤدى إلى هذه الخدمات وإلى هذه المعاملة الرائعة، التى تجعله فى السجن يحيا كالملوك. تصور أنه فى أغلب الليالى لم يكن ينام فى السجن. كان ينام فى بيته. فإذا نام فى السجن ليلة أعد له مكان خاص يتناسب مع ما يدفعه من مرتبات. أين الحكومة المغفلة التى تدعى العلم بكل شئ؟ إن البيك المسجون بجريمة الاختلاس، أنجب خلال سجنه ثلاثة أولاد، مقيدين فى السجلات الرسمية، باسمه ولهم شهادات ميلاد، تنص على أنهم أولاد فلان، ووظيفته من الأعيان ! إن كان هؤلاء الأولاد أولاده حقيقة، فهذا معناه أنه لم يكن سجيناً ولم يكن يعامل كما يعامل المساجين. فإن لم يكونوا أولاده. فكيف سجلوا على أنهم أولاده، والسلطات تعلم علم اليقين أنه نزيل السجن؟! حكومة من المغفلين. أو المتناقضين !!

ويقول الريس غلاب:

-ربما كانت كل هذه شائعات يا شاويش متولى ! ربما كان الرجل مظلوماً؟

ويرد الشاويش متولى صائحاً:

-مظلوم؟ أنا كنت أعمل فى قوة السجن فترة، وأنا نفسى تقاضيت منه مرتباً قدره خمسة جنيهات لمدة أربعة أشهر كنت خلالها أتولى بعض الورديات فى القسم الذى كان فيه. أنا نفسى قبضت منه مرتباً، ولم أكن وحدى. كلنا كنا نقبض منه مرتبات شهرية، لدرجة أننا كنا نوسط الوسطاء لنعمل قريباً منه. الجميع، على جميع المستويات كانت لهم منه مرتبات شهرية ثابتة. حتى المديرين، حتى وكلاء الوزارة حتى الوزراء !! أقول لك إنه أنجب ثلاث مرات خلال سجنه. أنجب ثلاثة أولاد. هل ينجب الناس الأولاد بالمراسلة؟! هل من طريق التراسل، ينجب الناس الأولاد؟! وهل هناك دليل أقوى من هذا؟! وتقول يا ريس غلاب، ربما كان مظلوماً. لا يا سيدى إنهم يبلعون له هذا، لكن الشاويش متولى، ينفى، لأنه أخذ صفيحة حلاوة يملأ بها بطون الجياع من أولاده، أو كيساً من العدس يوفر به طبخة ليوم آخر. هذه جريمة ينقل مرتكبها إلى كلابشة. أما الذين يتسترون على لص، اختلس أموال الحكومة، ليذهب إلى بيته وينام هناك، فى

حين تثبت التقارير الرسمية أنه فى السجن كأى سجين، فهذا يرقى ... طبعاً يرقى ألم يساعد على زيادة ذرية الأمة بثلاثة أولاد، خلال سبع سنوات؟!

ويقول الريس غلاب:

– يا رجل. يا شاويش متولى. يظهر أنك كنت تكرهه إلى حد كبير.

ويصيح الشاويش متولى:

– أنا؟ أبداً والله. بالعكس. لقد كنت أحبه جداً. كان كريماً، وكانت سنة دائماً بسامة. ولم يكن يلقى الواحد منا إلا ويضع فى كفه بضعة شلنات إلى جوار المرتب الشهرى الذى نتقاضاه بانتظام. إنى أعتبره رجلا ذكراً من ظهر أبيه. كون ثروة له ولأجياله من بعده، من الهواء. ضحك على الحكومة وأعطاها من عمره سبع سنين فى السجن. ها .. ها .. ى، فى النعيم. إجازة مسلية، واسمها بعد هذا سجن. أليس هذا سبعاً؟!

– يعنى أنت تتمنى أن تكون مثله !!

– وهل أستطيع؟ قلت لك إنه رجل ذكر.. سبع.

– وأنت ألست كذلك؟

- نعم ولكن فى حدود، وظروف مختلفة.

- وضميرك يا شاويش متولى. وعين الله ترقبنا جميعاً؟

- يا شيخ !!. والتوبة، هل أغلقت أبوابها؟ من السهل أن يتوب المخطئ، والله يقبل التوبة.

- على كل حال هذه حكاية لا علاقة لها بالتموين.

- إنما تتصل بالفساد، والتموين جزء من الفساد. وعلى كل حال أنا أريدك أن تعرف أن تجار التموين يعملون هذا، أو شيئاً شبيهاً بهذا. يهربون أموالهم، حتى إذا خرجوا من السجن، وجدوا هذه الأموال فى انتظارهم، كما فعل هذا المختلس الكبير.

- شئ غريب.

- وأية غرابة فيه؟ أنا أعرف واحدة لها دكان جزارة. إنها هى التى تديره، لكنها تديره من طريق ثلاثة رجال كل منهم زوج لواحدة من بناتها. هل تعرف أن واحداً منهم لابد أن يكون فى السجن بالدور؟! إنهم يبيعون اللحم بأزيد من التسعيرة علناً، وبلا خوف أو حذر. ماذا يحدث؟ إذا ضبطوا دخلوا السجن فيتسلم السجن عمله واحد آخر من أزواج البنات. وهكذا المحل يبيع اللحم بأسعار أزيد من التسعيرة،

ويمتص أموال الناس بلا وجه حق، ويحقق الربح الذى يريد، ويدفع ثمن ذلك دفعات متعاقبة من المساجين. والأموال موجودة، بأسماء الزوجات، وهم يبنون العمارات ويستثمرون الأموال بطرق كثيرة مختلفة، ومحل الجزارة كما هو يذبح مع الماشية.. الناس ! هذه المرأة أنا أعرفها، وأعرف دكانها، وأعرف بناتها، وأعرف أزواج بناتها أيضاً.

- وهل تعاملت معهم ... بشرفك؟

- طالما القسم بشرفى ... نعم.

- كيف؟!

- وهل هذا سؤال؟ كانت اللحمة ترسل إلى بيتى كل يوم مع مخصوص، حتى ضبطت.

- ومن الذى ضبطها؟

- الصدفة !! القضاء والقدر !!

- شئ طريف هذا. كيف؟

- تركت الشقة التى كنت أسكنها، وكان علىّ إيجار ثلاثة أشهر، رفضت صاحبة البيت أن تتنازل عن شئ منه، فتركت البيت دون أن أدفع لها شيئاً. وكنت قد نسيت أن أخطر الجزارة بالعنوان الجديد فأرسلت اللحمة على العنوان

القديم. فى أول يوم استلمتها الست صاحبة البيت الموتورة. ويظهر أنها اتصلت بالقسم فأرسل المباحث فى اليوم التالى لضبط الواقعة، وانكشف الأمر. أنكرت طبعاً، لكن الحكومة ليست مغفلة دائماً، إنها مغفلة عندما تريد أن تكون مغفلة !

-هيه ... صحيح ظلموك ! كيف ينفونك إلى كلابشة؟

-قوم يقيسون بمقاييس مختلفة. الحلال لغيرك حرام عليك.

-وهل لديك حكايات أخرى كذلك عن هذا الذى يسمونه بالتموين؟!

-حكايات لا تنتهى. لكنى سأكتفى بواحدة أخيرة فإن الباخرة فيما يظهر على وشك الوصول.

●●●

إن مفتشى التموين أيضاً لهم قصص وحكايات.

إنهم أحد ثلاثة إما متساهلون بالثمن ومنه ما هو باهظ جداً. أو سلبيون لا لهم ولا عليهم، يرون ويسمعون، ولا يتحدثون بشئ أبداً، يريدون فقط أن يعيشوا. أو شرفاء، وهؤلاء عمرهم قصير جداً، لايبقون إلا فترات محدودة، وكثيراً ما تدبر لهم المؤامرات، فيخرجون متهمين لا شرفاء.

واحد من الصنف الثالث وقع فى وسط عصابة من زملائه المتخصصين فى الاستغلال. كان شريفاً وكان نشطاً. وأراد أن يقضى على السوق السوداء. تركوه يعمل ما يشاء. شجعوه على كتابة المحاضر للمخالفين. ثم دبروا له مؤامرة انتهت إلى التحقيق معه، فثبت من التحقيق بالمستندات التى قدمها زملاؤه أنه هو سبب كل فساد، وأنه هو صاحب الغرض، وأنه يعادى من لا يدفع له الرشوة التى يطلبها. وتشاء المصادفات أن يكون أحد الوزراء على معرفة وثيقة به، فناداه وقال له: أنا أعرف أنك برئ وأنك شريف وأنك طاهر، لكن المستندات التى أمامى تدينك، فماذا أفعل؟

ولم يكن هناك حل إلا أن يستقيل، فاستقال حتى لا يطرد بتهمة الرشوة والفساد ! وبقى الفاسدون الحقيقيون، ورقى الفاسدون الحقيقيون، لأن تجار التموين فى السوق السوداء أرادوا هذا، فحققوه. المسألة يا ريس غلاب مسألة أموال ونفوذ. ولا تصدق شيئاً غير هذا.

- إذن أنت ترى أن التجارة فى مواد التموين خطرة.

- جداً يا ريس غلاب.

- وتنصحنى بأن يبتعد عنها مدثر.

- هذا أسلم كثيراً لمدثر، إلا إذا كان يريد أن يتاجر فى التموين بهذه الطرق التى وضحتها لك.

-أعوذ بالله.

●●●

وعندما وصل مدثر مع حضرة اليوزباشى عادل برهان، كان يبدو سعيداً مغتبطاً. كانت البهجة تطفح من وجهه ومن عينيه.

وقد وثب عندما رأى جده ينتظره من الفرحة وصاح وهو يقبل يدى جده الريس غلاب: سآخذ التموين يا جدى. سآخذ التموين.

ودمعت عينا الريس غلاب، وأخذ يصيح فيه:

- لا . يا مدثر ... لا .. يا مدثر. إنى خائف يا مدثر. خائف يا مدثر.

وسأل مدثر:

- لم يا جدى، مم تخاف يا جدى؟

قال الجد وهو يبكى:

- من الفرحة يا ابنى ... من الفرحة !!

□□□

(9)

ومرت الأيام ...

وكلما مرت الأيام، كان مدثر يزداد صلة بحياة الناس فى نجوع كلابشة، حتى لقد أصبحت عناصر هذه الحياة الإنسانية هى: النيل، والجبل، والشراع الأبيض يخفق على صفحة النهر، بالأمل، ومدثر يحقق هذا الأمل.

وتحوّلت حياة الصياد الصبى إلى حركة دائمة دءوب. فهو فى الليل صياد، يجوب بقاربه مياه النيل هنا وهناك، مرة عند باب كلابشة، ومرة داخل خور رحمة، ومرة أمام نجع الشيخ عمر، ومرة يذهب إلى ما بعد كلابشة ونجوعها شمالا أو إلى جنوب.

وأنه ليستأنس فى لياليه الطويلة بالقمر وبالنجوم، وبصفحة النيل الصافية، التى تعرفه وتحبه، وتدخر له سمكاً كثيراً شهياً، يوزعه فى اليوم التالى على من يريده من الموظفين، والعساكر والأهالى، ويعرضه كذلك على بواخر

البوستة السودانية، فإن بقى له بعد ذلك شئ، فإنه من نصيب أهل البيت.

ومدثر يتغنى فى لياليه الطويلة بما توارثه عن أهل النوبة من حب هذه البلاد وما كان لها من أمجاد.

كذلك يتغنى بما فى قلبه من حزن دفين مكبوت. إنه لم يَعد يستطيع أن يذكر وجه أبيه. كيف كان، وكيف كان يراه الناس؟ وإنه ليتمنى فيما يغنى، لو أن أباه كان معه، إذن، لشد ساعده وقوى عزيمته، وأعطاه من حبه ومن عطفه ما ينسيه المتاعب والمشاق.

صحيح إن جده يعطيه ما هو فوق الحب، وما هو أكثر من العطف.

لكن ذلك لا يغنيه عما يوفره له حب أبيه.

فإذا ما أصبح الصباح، جمع مدثر حصيلة ليلة الطويل، وهى فى كل صباح، سمك كثير مختلف الأنواع، وفكر، وأمل، ودموع.

●●●

أما السمك، فإنه يمر به أول ما يمر على الموظفين الوافدين إلى كلابشة.

إن مدثر ـ وكل أهالى كلابشة ـ يعتبرونهم ضيوفاً قبل أن يكونوا موظفين، وللضيف حق فى أن يكرم، وأن ينال كل أنواع المساعدة.

ومدثر يعرف إلى جوار هذا، أن لكل منهم ظرفاً خاصاً قضى بوجوده فى كلابشة. إنهم لم يأتوا إلى كلابشة مختارين، ولا ساعين، لكنهم جاءوا مقهورين مضطرين.

حضرة الضابط عادل برهان منقول انتقاماً من أسرته، ومن أبيه.

الأستاذ برعى ناظر المدرسة منقول تأديباً له على عصيان الحكومة.

الأستاذ محروس المدرس بالمدرسة منقول إبعاداً له عن نشاط تنظيمات المعلمين.

الأستاذ رجب المدرس الآخر منقول تحديداً لنشاطه فى حركات الأحزاب والاعتصام.

الشيخ سعد إمام الجامع منقول اتقاء لشره وشر أعوانه الشيوعيين.

حتى نخلة أفندى وكيل البريد منقول إفلاساً منه فى مواجهة مطالب حياته بعد أن كبر أولاده، وأصبحت لهم مطالب لا قبل له بها.

كل منهم إذن له ظروف غير طبيعية وغير عادية ألقت به إلى هذا المكان البغيض. إن مدثر يراه أجمل مكان فى الدنيا. لكنه يدرك أن ما يراه هو جميلا يراه هؤلاء المبعدون المنفيون المقهورون المغلوبون ... يرونه على الأقل منفى وسجناً ومعتقلاً !! وهذا يكفى لأن يكرهوه، وأن يبغضوه، وأن يضيقوا به.

بل إن المفتشين الذين يفدون للتفتيش على هذه البلاد، وعلى هؤلاء الموظفين مبعدون هم الآخرون. نعم مبعدون، فإن إقامة أغلبهم فى أسوان أو قنا أو الأقصر، وكل من هذه البلاد فى نظرهم منفى وسجن ومعتقل. الدكتور مرجان مفتش الصحة. الأستاذ مهدى مهندس الرى. الأستاذ درويش مفتش التعليم. الدكتور فرج مفتش الآثار. الشيخ داود مفتش الأوقاف. كل هؤلاء مبعدون منفيون مقهورون، على قدر ما تحمله مراكزهم. ولابد أن لكل منهم أيضاً قصة قضت بإبعاده إلى هذه البلاد، وإلا لبقى فى القاهرة أو فى بلد آخر قريب.

ومدثر - وكثيرون من أهل كلابشة - يعرفون ظروف الموظفين المغتربين. يعرفون قصة كل منهم، يعرفون أسرته وأين تعيش. يعرفون كم من الأولاد أنجب وكم من الزوجات

تزوج، إذا كان له أكثر من زوجة، من أصهاره، ومن أقاربه.

وأهل كلابشة ـ كأهل النوبة جميعاً ـ فيهم حساسية، وعندهم تقدير شديد للظروف القاسية التى تحيط بحياة الناس. إن أهل النوبة أنفسهم يتعرضون لهذا الاضطهاد، ويقاسون ظروفاً صعبة، تدفعهم إلى الهجرة وإلى الاغتراب.

إن أهل النوبة فى مدن مصر مثلهم، مبعدون منفيون مقهورون !

نعم مبعدون إلى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى !

نعم منفيون إلى هذه المدن، برغم ما فيها من شوارع مرصوفة، وماء يتساقط من الصنابير، وكهرباء تجعل الليل نهاراً !

نعم مقهورون، لأن هذا الإبعاد والنفى يتم برغمهم، تدفعهم إليه مطالب الحياة القاسية التى لا ترحم، بعد أن جَفَّت بلاد النوبة، وغرقت أراضيها، ولم يعد فيها ما يكفى ليسد حاجات الناس !

ومدثر فوق هذا كله، فقد أباه فى معركة الحياة.

هو إذن أكثر الناس تقديراً لظروف هؤلاء الموظفين، وأشد الناس رغبة فى خدمتهم والتخفيف عنهم.

وإنه ليحس أن واجبه نحوهم أن يكونوا هم أول من يختار حاجته من السمك.

وفى الصباح عندما يجمع حصيلته من السمك، يذهب بها أول ما يذهب إلى الضابط عادل برهان، يأخذ منه حاجته، ثم يذهب إلى الموظفين الآخرين: الأستاذ برعى. الشيخ سعد. نخلة أفندى. الأستاذ رجب الأستاذ محروس.

ويشعر هؤلاء المغتربون أن مدثر يؤثرهم على الناس جميعاً، حتى على أهل بيته فيقدرون له هذه الروح، ويتأثرون بما يبديه نحوهم من ود.

وتمر الأيام، فيصبح مدثر فى نظر الموظفين فى كلابشة، واحد منهم، يتحدثون إليه بما فى ضمائرهم، ويأتمنونه على أسرارهم.

ويقابل مدثر هذه الروح بمزيد من الإخلاص لهم، والتفانى فى خدمتهم.

●●●

إن السمك، ليس وحده، حصيلة مدثر بعد ليله الطويل.

لكن حصيلته إلى جوار السمك: فكر وأمل ودموع.

إنه يفكر فى أشياء كثيرة جداً: يجنح إلى بعيد، أحياناً.

ثم يعود يقترب من واقعه، أحياناً أخرى.. قد يمضى فى خيال شرود لا يقف عند حد، أحياناً ثالثة.. ثم يلتزم حدوداً ضيقة جامدة، أحياناً رابعة. وهكذا يفكر فى كل شئ، ولا يحول بينه وبين أفكاره وخياله أى شئ. إنه يطلق لأفكاره العنان. إنه يتجرد من كل القواعد والأحكام. إن أباه يجلس إلى جواره فى قاربه هذا الجميل، وإنه ليطلب منه أن ينام ليستريح، فإنه سيقوم هو بعمله حتى يصحو. وإنه ليغطيه وهو نائم، ليحميه من برد قد يصيبه. وإنه ليناقشه.. ويحدثه.. ويروى له القصص والحكايات.. كيف مات ... فيم كان يفكر فى لحظاته الأخيرة، وكيف كانت صورة مدثر بين جفنيه حين أغمض جفنيه إلى الأبد.

وترتوى عيون مدثر وجفونه وأهدابه جميعاً بدمع من قلبه كالدم.

إنه ليقبل وجنتى أبيه، كما يقبل يديه. لكنه لا يستطيع أن يحول بينه وبين أن يثوب إلى مكانه من الحياة الأخرى.. لكن على وعد بلقاء آخر قريب.

أما عن حديث الأمل فإنه على عكس أفكاره مقيد بحدود.

وأمل مدثر فى دنياه، مأخوذ من ظروفه هذه القاسية، فى الحياة.

إنه لا يريد إلا أن يرضى ربه وأن يرضى جده. إن جده، هو والد أبيه. وأبوه يتحدث معه كل ليلة عن ذكريات جميلة معه، ولكم سأله عنه ! أتحبه إلى هذا الحد؟ لكن مدثر يجد الجواب سريعاً من حبه هو غير المحدود لأبيه، برغم أنه بعيد.. بعيد جداً، حتى ليتعذر الوصول إليه إلا بعد الموت.

ومدثر لا يريد فوق هذا إلا أن يرضى الناس، هؤلاء المساكين من أهل كلابشة، وهؤلاء المساكين، من ضيوف كلابشة، المشردين المنفيين المقهورين.

... ثم لا شئ.

هذا هو كل ما عنده من أمل.

●●●

من أجل هذا كانت فرحته بالحصول على التموين فرحة لا تحد.

لقد ساعده الضابط عادل برهان مساعدة كبيرة جداً.

إنسان والله، هذا الضابط الشهم.

أتذكر يا مدثر الجهد الذى قام به؟ لقد أعطى الأوامر لكل العساكر أن يعملوا ليل نهار، حتى يستكملوا بطاقات

التموين، ويجددوا المفقود منها، وأغلبها كان مفقوداً. ولماذا لا يكون مفقوداً؟ أعدت البطاقات بعد قيام الحرب الكبرى الثانية، لكن هذه البطاقات جمدت، ولم تستعمل فلماذا يحتفظ الناس بها؟ لماذا يضعونها فى بيوتهم؟ إن كان ذلك للذكرى، فهذا شئ إما أن يكون للاستعمال، فإن واحداً منهم لم يستعمل هذه البطاقات من قبل. وفيم يستعملها، إذا كانت مواد التموين، شيئاً عزيزاً لا ينال !!

وقد تحولت نقطة بوليس كلابشة إلى مركز نشاط هائل، لإعداد كل شئ. إن الضابط عادل برهان نفسه كان يعمل معهم بالليل وبالنهار. كل الموظفين فى كلابشة كانوا يعاونون فى هذا العمل الإنسانى. نخلة أفندى كان يكتب بنفسه البطاقات. الشيخ سعد كان يحصى البيوت التى لم يسبق لها أن استخرجت بطاقات، الأستاذ برعى كان يملى على العساكر البيانات اللازمة. الأستاذ رجب والأستاذ محروس كانا يراجعان هذه الأعمال قبل إرسالها.

وأنت يا مدثر. وحدك والريس غلاب، كنتما هناك مع هذه المجموعة من الناس. إنكما كنتما تكتفيان بالشكر والتحية والدعاء. إن جدك الريس غلاب لا يقرأ ولا يكتب. أبوك المرحوم حسين كذلك لم يكن يقرأ أو يكتب. أنت أيضاً

مثلهما لا تقرأ ولا تكتب. يومها فقط أدركت يا مدثر أن القراءة والكتابة ليست شيئاً هيناً لا يستحق الاهتمام. بل إن لها من الأهمية ما يحتم أن يتعلمها الناس. لقد كنت تنظر إلى هذه الأعمال يقوم بها العساكر ويعاونهم الموظفون. كنت تنظر إلى هذه الأعمال، وكأنها أشياء مسحورة، وكأن الذين يقومون بها جن لا ناس عاديون. وعرفت أنها ـ القراءة والكتابة ـ الفرق بين أن تعرف أو لا تعرف. وعرفت كذلك أنها ـ القراءة والكتابة ـ وسيلة كل شئ. أنت تريد التموين لأهلك فى نجوع كلابشة. التموين هذا سكر وزيت وجاز. لكن لابد للزيت والسكر والجاز من الكتابة والقراءة. فإذا لم تكن هناك قراءة وكتابة، فلا.. تموين !! كل شئ. أى شئ وسيلته القراءة والكتابة !!.

وعندما أدركت هذا يا مدثر شعرت أن شيئاً هاماً ينقصك. وهذا الشئ الهام يكون نصف شخصيتك على الأقل يا مدثر. أنت ناقص يا مدثر ! أنت نصف شخص يا مدثر. وستظل كذلك طالما أنك بلا قراءة أو كتابة. نعم ستظل كذلك، بل ربما زادت نقائصك، كلما زادت صلة القراءة والكتابة بالحياة هنا فى نجوع كلابشة.

على أنك أسرفت على نفسك وعلى أهلك يا مدثر عندما بدأت تلقى اللوم الصامت على جدك.

وما ذنب جدك؟

إن الرجل المسكين، وجد نفسه وحيداً بعد رحيل أبيك.

ثم زاد شعوره بالوحدة، بعد موت أبيك.

ثم بدأ يواجه وحده ظروف الحياة، فى بيئة جفت حتى لم تعد تكفى أفواه الناس.

أين من هذه الظروف، المتسع الذى يهيئ التفكير فى مدرسة، أو قراءة وكتابة؟

إن الذنب يا مدثر ليس ذنب أهلك، ولا ذنب جدك، ولكنه ذنب هذه الحياة التى تتعرض لها كلابشة.

أو تذكر حديثك يومها مع الأستاذ محروس؟

●●●

- أهى صعبة هذه القراءة والكتابة؟

- لا، ليست صعبة، ليس هناك شئ صعب يا مدثر، طالما أن من الممكن أن تتعلمه.

- من الممكن !!. لو أنه من الممكن !!

- كل شئ ممكن يا مدثر.

- فى وقت معين. كل شئ رهن بوقته.

- ماذا تقصد بهذا؟

- ما يقصده بهذا؟

- ما يقصده المثل: بعد العيد لا يفتل للكخك.

- لكن العلم يختلف.

- العلم كالكحك، له وقت معين.

- أبداً. العلم بلا وقت ولا وطن.

- صحيح؟.. صحيح يا أستاذ محروس؟

- طبعاً. وقد فهمت ماذا تريده. أنت لا تزال صغيراً وتستطيع أن تتعلم.

- لا أريد أكثر من القراءة والكتابة.

- وهذا سهل جداً.

وتدخل الأستاذ رجب فقال:

- ولماذا لا تحضر إلى المدرسة يا مدثر؟

- يا أستاذ أنا تجاوزت سن التلاميذ. هل أحضر مع الأطفال؟

- إذن تحضر فى وقت نحدده لك، وتتعلم وحدك.

- من يعلمنى؟

- أنا والأستاذ محروس.

- هذا فضل كبير يا أستاذ.

- بل هذا واجب. ثم إنك تخدمنا كل يوم يا مدثر. أنت واحد منا. أنت تستحق كل خير.

- بارك الله فيك يا أستاذ رجب. بارك الله فى الأستاذ محروس. بارك الله فى الأستاذ برعى.

- أجِّل هذا حتى تعرف القراءة والكتابة.

- وكم من الوقت أحتاج لأقرأ وأكتب؟

- هذا يتوقف على استعدادك ونشاطك، وأنت شخص ذكى على كل حال.

●●●

وتم الاتفاق على أن يتلقى مدثر دروساً فى القراءة والكتابة عصر كل يوم، فى الوقت الذى لا يتعارض مع عمله فى صيد السمك، أو توزيع التموين.

على أن مدثر كان محتاجاً، حتى يتعلم القراءة والكتابة، إلى شخص يساعد فى كل ما يتصل القراءة والكتابة.

وقد اكتشف أن كل عمله يحتاج إلى القراءة والكتابة.

وكاد الأمر يستحيل عليه، وكاد هو يتراجع فيما سعى إليه، لولا الضابط عادل برهان.

إنسان والله، هذا الضابط الشهم.

- إنى غير قادر يا حضرة الضابط على هذا.

- إنك أنت الذى طلبت وألححت. ثم أنت تريد أن تخدم أهل كلابشة.

- بدمى أخدم أهل كلابشة. لكنى عاجز عن ذلك، حتى أقرأ وأكتب.

- ماذا تقول؟ ما هذا الشئ الجديد يا مدثر؟

-لقد تبين لى أنى لن أكون صالحاً لهذه الخدمة إلا إذا كنت أعرف كيف أقرأ وأكتب، كل شئ يا حضرة الضابط محتاج إلى هذا. فماذا أنا فاعل إذن وأنا لا أقرأ ولا أكتب.

- سأدبر أنا كل شئ. هل تثق بى؟

- أستغفر الله يا حضرة الضابط.

- أجبنى هل تثق بى؟

- كل الثقة يا سعادة البك. كل الثقة.

- إذن دع لى أنا هذا. أنا سأتولى عنك كل شئ. سأتولى كل الأمور التى تحتاج إلى قراءة وكتابة، ولن يكون عليك إلا أن تختم أو تبصم على الأوراق، ولا شئ.

ووثب مدثر من فرحته، فقد انتشله. الضابط عادل برهان، من مشكلة لم يكن يعرف لها حلا، كما سبق أن انتشله فى إعداد كل الترتيبات الأولية اللازمة للتموين، هو والموظفون جميعاً.

إنسان والله، هذا الضابط الشهم.

وقد بدأت مهمة مدثر فى توزيع التموين تتم على أساس الاعتماد على الضابط عادل برهان فى كل صغيرة وكبيرة واهتمام الضابط بهذه الأمور، إلى درجة ملحوظة حتى لقد كان انشغاله بها موضع كلام فى اجتماعات الموظفين فى كلابشة. فإن غاب الضابط عادل برهان عن بعض هذه الاجتماعات، فإن الكلام فى هذه الاجتماعات يأخذ شكل السخرية والاستغراب.

- الضابط عادل كيروسين تأخر اليوم !

ويضحك بقية المجتمعين لهذا التعريض بالضابط عادل برهان.

- هل تعرفون أن حضرة الضابط لا يصلى إلا بعد ... العصر !!

ويضحك المجتمعون من الموظفين لهذه المقابلة بين وقت العصر وصلاة العصر، والزيت يحتاج إلى العصر !!

- كنت عند حضرة الضابط فقدم لى القهوة بسكر قوالب !

ويضحك المجتمعون لهذه السخرية من السكر وحضرة الضابط.

فإن يكن الضابط عادل برهان حاضراً فإن المجتمعين لا يتركونه بلا تعليق ومزاح:

- إن لك وحشة يا حضرة الضابط. هل ترى أن السكر أخف دماً منا؟

- طبعاً لا ... ولا الجاز ولا الزيت - أى زيت - حتى زيت الخروع !!

- إذن لماذا تتركنا. لماذا تهجرنا ... يا قاسى؟ .

- هل تحبوننى إلى هذا الحد؟

- إننا نذوب فى حبك، أسرع مما يذوب السكر فى الشاى !

- وأنا كذلك، لولا أنه واجب.

- والله إنسان يا عادل بك.

- هل أترك "مدثر" وحده فى هذه الورطة؟

- لا طبعاً لا ... لكن لماذا لا تشركنا معك؟ أى عمل. أى مساعدة أى شئ نحن مستعدون. نساعد "مدثر" معك.

- المسألة لا تحتاج لكل هذه العبقريات ... يا عباقرة. ثم ماذا تعلمون فى المهام الضخمة المنوطة بكم هنا.

- عندك حق. إننا لو تركنا هذه المهام، خربت كلابشة.

- ذكاء غريب. لماذا أعطاكم الله كل هذا الذكاء؟

- يظهر أنهم من أجل هذا نقلونا إلى كلابشة.

-حتى لا تنافسوهم.

-أو حتى لا نكشف أمرهم.

●●●

كان مدثر يعرف كميات التموين، من الضابط عادل برهان. وكان يعرف أسعارها من الضابط عادل برهان. وكان عليه أن يتولى توزيعها على البيوت فى نجوع كلابشة: بل إن الضابط عادل برهان، هو الذى كان يسافر إلى أسوان بين الحين والحين ليرتب كل شئ مع التجار ويتفق معهم على هذه المواد ويحاسبهم، ويتفق مع بواخر البوستة السودانية على أن تنقل البواخر هذه المواد حتى كلابشة، حيث يتسلمها عسكرى من عساكر النقطة.

ومدثر يدفع ما يطلب منه. ويتقاضى من الناس ما يدفع بلا زيادة.

إنه لا يربح من أحد.

إنه يصيد السمك، والله قد عوّده أن يكفيه. وهذا التموين الذى يتولى توزيعه خدمة يقدمها لأهل كلابشة، لا يريد منهم جزاء ولا شكوراً.

إنهم أهله. إنهم ناسه. إنهم منه وله.

ثم هم قوم مساكين، أغلبهم بلا رجل قادر يحمى مصالحهم. الرجال الذين هنا شيوخ متقاعدون، وبقية الذكور صبيان صغار.

ألا يستحق هؤلاء أن يقوم نحوهم بمعروف؟

وهل لابد أن يكون لهذا المعروف ثمن من ربح، مهما يكن الربح حلالاً؟

إن مدثر يأخذ منهم ما يدفعه للضابط، والضابط يتولى بقية الأمور.

إنسان والله، هذا الضابط الشهم.

●●●

ولقد كانت الأيام التى يتولى فيها مدثر توزيع مواد التموين، من أجمل أيام الشهر - كل شهر - فى حياته.

لقد كان يحصر فى ذهنه أسماء كل العائلات والأسر، ثم

يعود يقسمها حسب مواقع هذه النجوع. ثم يأخذ فى توزيع مواد التموين عليها مبتدئاً بنجع أبو عاشة فى الجنوب، إلى نجوع كلدون فى الشمال، ماراً بكل نجع أو خور أو برية.

وكان برنامج عمله فى التوزيع، هو أن ينتهى من صيد السمك وتوزيعه، حتى الضحى. حينئذ يغسل مدثر قاربه غسلاً. إنه لا يجب أن تختلط رائحة السمك بالسكر. إنه يجب أن يوزع السكر على أهل كلابشة نقياً نظيفاً. ثم يملأ القارب بمواد التموين، يتوكل على الله يذهب كل يوم إلى مجموعة من النجوع.على أنه لم ينس أنه يشترى الميزان، وأن يشترى كذلك الأكياس اللازمة لتوزيع السكر والزجاجات الفارغة اللازمة لتوزيع الزيت.

ويتهادى مدثر، ويمتلئ الشراع الأبيض بالهواء، كأنما انتفخت أوداجه زهواً. وبرغم ما يكون بال الصياد الفتى مشغولاً بأسماء الأسر، وحق كل منها فى مواد التموين، والثمن الذى يجب أن يتقاضاه منها. برغم كل هذا، فإنه يبدو سعيداً تملأه النشوة.

إن هذا أمله وقد تحقق. وإنه ليشعر أنه بهذا يؤدى لأهله ولناسه خدمة حقيقية، فإن توفير هذه المواد الضرورية لهم، يعفيهم من عناء كثير كانوا يبذلونه ليحصلوا عليها.

ومن أجل هذا كانت تهون المشاق التى يتحملها، والرحلات الطويلة التى كان يقوم بها بقاربه الصغير بين نجوع كلابشة.

ولقد قابل أهل كلابشة هذا الصنيع من مدثر بالشكر والعرفان بالجميل. لكم دعوا له بالصحة والعافية وطول البقاء. لكم ترحموا على أبيه، عندما كانوا يرونه شهماً كريماً خدوماً مثلما كان أبوه.

على أن مدثر كان يواجه فى كثير من الحالات بتجارب جديدة عليه.

لقد كان يرسو بقاربه عند نقط معينة من شاطئ النيل، اتخذها محطات تتوسط كل منها عدداً من النجوع. وما هى إلا مرة حتى عرفت هذه النقط، وإذا الناس ينتظرون عندها كلما رأوا الشراع الأبيض يقبل متهادياً، فى الأيام التى يتوقعون فيها التموين، ومعهم بطاقاتهم، ليحصلوا على حقوقهم فى التموين.

وكان قلب مدثر يتمزق عندما يجد امرأة عجوزاً كجدته تنظر إليه فى توسل: إنها تريد السكر والزيت، لكنها لا تملك ثمن السكر والزيت.

وكان مدثر يعطيها حاجتها، ولا يأخذ منها عنه ثمناً.

ولكم كان يخفى دموعه وهو يودعها، فإنه كان يسأل نفسه: ومن أين لامرأة عجوز كهذه أن تجد القوت؟!

وفى حالات أخرى، كانت بعض الأسر تقول لمدثر إنها لم تتلق بعد النقود التى تصلها من عائلها. إنه لم يرسل الشهرية بعد.

وتطلب هذه الأسر من مدثر أن يعطيها التموين، وأن يرجئ أخذ الثمن إلى ميسرة.

ولم يكن مدثر يستطيع ـ حتى لو أراد ـ أن يردها عما تريد، أبداً، إنه يؤدى لهذه النجوع خدمة، وعنده أن هذه الخدمة ناقصة، لو لم يكن فيها فسحة من التساهل ستراً للعورات.

ويقول مدثر لجده الريس غلاب:

– أتعرف يا جدى. والله إن حصيلتى بعد ذلك من السمك تأتينى مضاعفة. والله يا جدى إن العطاء لا يضيع عند الله أبداً.

ويرد عليه جده فى صوت متهدج:

– وفقك الله يا بنى إلى مزيد من الخير. إن هذه الأسر يا مدثر كانت مستورة طيلة عمرها. لكن الأيام يا بنى، كفاك

الله شرها وغدرها ألجأتها إلى الطلب، بعد أن كانت كثيرة العطاء.

ويسكت الجد قليلاً ثم يقول لحفيدة:

- على أنى أطلب منك يا مدثر طلباً أرجو أن تلبيه، وهو ألا تبوح بهذه الأسرار لأحد. إن فعل الخير يا بنى يجب أن يكون بينك وبين الله، كالصوم والصلاة.

وهزَّ مدثر رأسه وهو يقول لجده:

- والله يا جدى لولا أنى أخاف أن تسئ الظن بى، وأنت تحاسبنى لما بحت بشئ من هذا، حتى لك.

ويرد الجد:

- هكذا الرجال يا مدثر. رجل من ظهر رجل. من ظهر رجل.

ويضحك مدثر وهو يقول:

- أما كانت تكفى "من ظهر" مرة واحدة؟

ويضحك الجد وهو يمسح على رأس حفيدة.

●●●

ولم يكن توزيع مواد التموين يأخذ من جهد مدثر أكثر من بضعة أيام كل شهر. أيام لا تتعدى أسبوعاً فى

مجموعها. تبدأ خلالها مع الضحى، وتنتهى قبل العصر، حيث يتجه مدثر إلى المدرسة لحضور الدرس مع الأستاذ مخروس أو الأستاذ رجب.

صحيح إن مدثر كان يبذل أول الأمر جهداً مضنياً. كان حصر الأسماء والاحتياجات والأثمان عملاً معقداً بالنسبة له. وكان هذا العمل يستغرق منه جهداً كبيراً، لكنه بمرور الوقت اعتاد هذا العمل فأصبح سهلاً ميسوراً.

بل إن مدثر أصبح يعرف أهل كل النجوع فى كلابشة بيتاً بيتاً وأسرة أسرة. ويكاد يعرف أفراد الأسرة اسماً اسماً. بل ويكاد يعرف حالة كل فرد من نجوع كلابشة. الرجال والنساء والفتيات والصبية والأطفال. حتى الرجال الغائبين، كان يعرف أسماءهم وأعمالهم، والبلاد التى يعملون فيها. وفى كثير من الحالات كان يعرف الأجور التى يتقاضونها، وماذا يرسلون إلى ذويهم وأسرهم من هذه الأجور كل شهر.

إن إنسانية الصياد الأسمر وشهامته كانت تدفع الناس إلى الثقة به، كان الجميع يحبونه، كانوا يحكون له مشكلاتهم، وهم يأخذون منه التموين. كانوا يعرفون أنه يوزع مواد التموين خدمة لهم، بلا ربح يحققه، وبلا أجر. إنه قد تطوع لهذا العمل بجهده وبقاربه، وهو الذى يدفع الثمن مقدماً، ثم

يتقاضاه منهم مجزأ. كل هذا كان يعرفه أهل كلابشة، وكانوا يقدرونه لمدثر، ويتحدثون به فى جلساتهم معجبين داعين.

●●●

وبعد أن استقرت أمور التموين فى نجوع كلابشة.

وبعد أن اعتاد الصياد الشاب مدثر عليها، فلم تعد تشغله إلا بمقدار.

وبعد أن عرف مدثر أهالى النجوع جميعاً، وأصبح جزءاً من حياتهم، لا يستغنون عنه.

عندئذ بدأ بعض الأهالى يتحدثون إلى مدثر باحتياجات أخرى لازمة لهم، ولا يستطيعون الحصول عليها إلا بالجهد وبالصدقة أيضاً.

وتحدث إليه كثيرات من نساء كلابشة بلوازم بيوتهن ومعيشتهن، وكيف لا يجدون حتى ملح الطعام إلا إذا أرسلوا إلى أولادهم أو أزواجهم لإحضاره معهم.

وقالوا لمدثر:

- ماذا يضيرك يا ولدنا مدثر، لو أنك أضفت إلى جميلك هذ جميلا جديداً، هو أن توفر لنا هذه الحاجات الضرورية اللازمة. إنك تشترى التموين، فإذا أضفت إليها

هذه الضرورات، فلن يكلفك هذا كثيراً، ثم إنك تمر على كل النجوع لتوزيع التموين، فإذا كان إلى جوار التموين هذه الحاجات الضرورية، فلن يزيد هذا من جهدك.

وفكر مدثر، وفكر معه جده الريس غلاب.

واستقر رأيهما على أن يحاول مدثر، فإذا لم تكن المحاولة مفيدة، فإنه لا يمضى فيها.

وكان لابد من أن يتم تدبير الأمر بالاتفاق مع الضابط عادل برهان.

قال الضابط:

- هذه فكرة طيبة جداً يا مدثر. وعليك أن تحدد الأصناف اللازمة، وأن تكون أثمانها جاهزة لديك. فإذا تم هذا، فأنا أساعدك.

- يا حضرة الضابط، أنا آسف لأنى ألقى إليك بأعبائنا، لكنك رجلنا، أنت منقذنا، وإننا لا ندرى ماذا كنا نعمل بدونك.

- دعك من هذا يا مدثر، ألم نتفق على أننا واحد، إنى أريد أن أعرف منك يا صديقى، هل ستوزع هذه الأشياء أيضاً بلا أرباح؟

- وهل أربح من ناس كهؤلاء محتاجين؟

- وما ذنبك يا مدثر؟ تبذل كل هذا الجهد، وتدفع ثمن هذه الأشياء، وتستعمل قاربك، فى سبيل لا شئ !! أليس لهذا القارب ثمن؟ إذا فسد أو احتاج إلى إصلاح. إذا أردت أن تجدده بعد حين. هل لا تدفع عن ذلك شيئاً؟ يا مدثر، إن الربح حلال.

- أعرف هذا يا حضرة الضابط. لكن الله يعوضنى عن ذلك والحمد لله. أنا لست محتاجاً لهذا الربح. إن رزقى يأتينى من طريق آخر، فلماذا لا أرضى بما قسمه لى الله ولا أطمع فى المحتاجين من أهلى وناسى.

- وأنت يا مدثر تعمل ما لا يعمله أحد.

- وهل ظروفنا كظروف الناس؟ وهل نحن هنا فى كلابشة كأى أحد؟ يا حضرة الضابط.

- يا مدثر ...

- يا حضرة الضابط؟ ...

●●●

ومع مرور الأيام، أصبح قارب مدثر كالقلب من هذه النجوع النائية. وأصبح الشراع الأبيض يتموج من تأثير

النسيم، خفقات تملؤها الرحمة والحب والوفاء جميعاً.

وأصبح هذا القارب الصغير يحوى كل شئ.

لقد بدأ مدثر بالحاجات الضرورية لحياة الأسر فى هذه الأماكن النائية:

الملح والفلفل والكمون والشطة، والعدس والفول والحلبة.

ثم تطورت احتياجات النجوع وأهلها حتى أصبح قارب مدثر، يحوى كل ما يحتاج إليه الناس، من إبرة الخياطة إلى الأقمشة ذات الألوان. كذلك كان يحوى من المأكولات، من مواد التموين، حتى البطيخ والرمان.

وزادت مشغولية مدثر ومسئولياته.

هو صياد طول الليل، فإذا طلع النهار وزع صيده على الذين يريدونه من الموظفين أو بحارة البواخر.

ومن الضحى حتى العصر، هو دكان متنقل بكل احتياجات النجوع وأهل النجوع بلا ربح.

ومن العصر حتى المغرب هو تلميذ يحاول بكل ما يملك من جهد أن يعرف القراءة والكتابة، ليصبح مفيداً لأهله ومواطنيه. وعليه بعد الدرس أن يذهب إلى الضابط عادل برهان ليتلقى منه التعليمات. فإذا كان المغرب، وفرغت

الصلاة، قضى مدثر فى مجلس جده حتى صلاة العشاء، ثم صلى وتعشى ونام بعض الوقت استعداداً للصيد بقية الليل.

لا فـــراغ، ولا راحـــة. كل وقت مـــدثـر مـــوزع على هـذه الصـورة، والوقت الوحيد الذى يخلو فيه إلى نفسـه، ويغنى فـيه لنفسـه. ويذرف فيـه بعض الدموع، هـو الليل، حـينمـا يسرى فى القارب ذى الشراع الأبيض ... وحده، بلا زيت ولا سكر، ولا بيع ولا شراء.

هذا هو وقـتـه هو. وهـذه هى فـرصـتـه. ولقـد حـاول فى ضوء القمر أن يقرأ فى صحيفة فلم يستطع. كذلك حاول أن يكتب فلم يستطع أن يزيد على ما يأخذه فى دروسه شيئاً.

وفى يعض الأحيان كاد ييأس.

كاد يعود إلى اعتقاده، إنه بعد العيد لا يفتل الكحك، لولا أن الأستاذ محروس والأستاذ رجب يقابلانه فى اليوم التالى مؤكدين له أنه يتقدم فى طريق معرفة القراءة والكتابة أسرع مما يظن.

قال الأستاذ رجب:

- ولماذا تتعجل الأمور يا مدثر؟ لماذا؟ اترك كل شئ يأخذ حقـه، فإن الإسـراع والتسـرع خـاصـة فى أمـور التـعليم ضار جداً.

قال مدثر:

- الحقيقة يا أستاذ رجب أنى خجل من حضرة الضابط عادل برهان. إن الرجل يتولى عنى هذه الأمور. إنه يقرأ لى ويكتب لى. ما ذنبه هو حتى يعمل كل ذلك؟ إنى أؤدى واجباً على نحوٍّ أهلى وناسى، لكن هو، إنى أتعبه معى.

قال الأستاذ رجب:

- لكن لا معنى للإسراع والتسرع فى التعليم يا مدثر، فإذا كنت تخجل من حضرة الضابط عادل برهان، فإنى وكل الموظفين هنا، مستعدون لمعاونتك. نستطيع يا سيدى أن نقتسم العمل، بحيث لا يكون واقعاً على عاتق عادل بك وحده. بهذا يخف ولا تخجل أنت من شئ، حتى تتعلم، ولا تحتاج إلى أحد منا.

- يعنى بدلا من أن يخجلنى واحد منكم فقط، تخجلوننى جميعاً. ما ذنبكم أنتم؟ إن كلابشة ليست بلدكم، وأهل كلابشة ليسوا أهلكم.

- اسمع يا مدثر. أجنبى أولاً. ماذا نعمل نحن هنا؟ أو تظن أننا مزدحمون بأعمال ومسئوليات كثيرة فتصبح مساعدتك فى بعض هذه الأمور البسيطة عبئاً علينا؟ يا

أخى إننا عملاً نشغل به أوقات فراغنا، فإذا أدينا لك هذه الخدمة فأنت الذى تخدمنا، بأن تشغل أوقاتنا.

- هذا كرم منك يا أستاذ.

- ثم اسمع. وما ذنبك أنت؟ الحقيقة نحن ـ مهما فعلنا- لا نقاس بك. أنت الذى فكرت فى هذه الخدمات، وأنت الذى سعيت إليها، وأنت الذى تؤديها، بل وأنت الذى تدفع ثمن الأشياء مقدماً، ومرة واحدة، ثم تأخذها مجزأة.

- إنهم أهلى يا سيدى..

- ونحن. كل الموظفين هنا. ألا يفيدون من خدماتك؟ لقد كنا فيما مضى لا نجد ملح الطعام، ويصبح علينا أن ننتظره. وأنت وفرت كل شئ لنا، وقتما نريده. وأنت لا تتقاضى عن ذلك أى ربح حتى منا. أنت لا تأخذ أجراً عن الجهد الذى تؤديه. إننا نسرقك يا مدثر.

- تسرقوننى؟! أستغفر الله العظيم.

- والله يا مدثر نحن نسرقك.

- كيف هذا يا أستاذ؟ كيف؟

- اسمع. نأخذ منك السمك بأى سعر. عمرك يا رجل ماناقشتنا فى سعر السمك، ونحن ندفع ربع الثمن. ومن يدرى

ربما لا يدفع بعضنا على الإطلاق. ثم نأخذ منك التموين والبقالة والعطارة، وحتى الأقمشة، بسعرها الذى تدفعه أنت، لا ندفع حتى أجرتك. يا شيخ، هذه والله سرقة.

- يا أستاذ رجب إنى أحصل على رزقى. هذا هو رزقى، ولن يستطيع أحد أن يمنع الرزق عن أحد، لا تسم هذا سرقة أبداً، إنها حدود الرزق التى قدرها لى الله.

- على كل حال، إنى سأفاتح إخوانى الموظفين لمعاونتك، فإذا اتفقنا على رأى فإننا سنفاتح فيه حضرة الضابط. بهذا نساعدك، ونزيل عنك الحرج يا ريس مدثر. وبهذا يصبح عليك أن تصبر، حتى تتعلم.

●●●

وفى الصالون الأخضر كانت جلسة الموظفين ذلك المساء. وكان نخلة أفندى قد أعد لهم شراب الحلبة المبرد، على عادة أهل النوبة.

وأخذ نخلة أفندى يروى الحكايات والقصص، ويعدد فوائد الحلبة. فهى تطحن لتخبز مع الذرة، وهى تشرب كالشاى، وهى تنبت لتؤكل وحدها غذاء مفيداً، وهى بعد ذلك تشرب باردة فى البلاد الحارة مثل كلابشة.

وعندما ينتهى نخلة أفندى من رواياته وقصصه يسأله الأستاذ رجب:

- من أين اشتريت هذه الحلبة يا عم نخلة.

ويقول نخلة أفندى:

- وهل هناك سواه؟ من مدثر طبعاً.

وتأتى الفرصة لفتح موضوع مدثر، فيروى الأستاذ رجب ما كان بينه وبين مدثر، وكيف يحس صديقنا الصياد الطيب بالحرج لأن عادل بك يعاونه هذه المعاونة الصادقة، ويبذل من أجله هذا الجهد الكبير. وكيف اقترح الأستاذ رجب على مدثر أن يتعاون كل الموظفين فى خدمته إلى أن يصبح قادراً على القيام بها، فلا تظل عبئاً على عادل بك وحده، ويزول حرج صديقنا مدثر.

ويؤمن الجميع على اقتراح الأستاذ رجب.

الشيخ سعد يقول:

- الحمل إذا وزع خف.

والأستاذ برعى يقول:

- والله مدثر يستحق كل معونة.

والأستاذ محروس يقول:

- ومن الخسارة أن يقف عن التعليم بعد المرحلة التى قطعها. إنه يتقدم بشكل ملحوظ.

ونخلة أفندى يقول:

- ونحن جميعاً بلا عمل. نشغل أنفسنا على أقل تقدير.

●●●

وفى اليوم التالى شهدت القاعة الفرعونية اجتماع الموظفين.

وبعد التحيات المعتادة، وبعد كثير من كلمات المزاح، عرض الأستاذ برعى الأمر على حضرة الضابط عادل برهان.

وتصادف أن كان مدثر هناك، فى حجرة من حجرات النقطة، يتسلم بعض المشتريات التى وصلت أخيراً.

-إن الجهد الذى تقوم به كثير يا عادل بك، ومدثر محرج من كثرة أفضالك. ولدينا جميعاً فراغ يحطم أعصابنا، ولهذا قررنا أن نتولى معك أمور مدثر. نساعده معك فى أعماله إلى أن يستطيع أن يقوم بها وحده.

وما أن سمع الضابط عادل برهان هذا الكلام، حتى امتقع لونه، وتغيرت ملامحه وقطب حاجبيه، ونظر للأستاذ

برعى فى غضب ثم صاح:

- من الذى أغراكم بهذا؟ من؟ إنى أساعد مدثر وحدى وسأستمر أساعده وحدى ولست محتاجاً إلى مساعدة أحد. أسمعتم؟ لست محتاجاً إلى مساعدة أحد. لست محتاجاً إلى مساعدة أحد.

قال الأستاذ برعى:

- لكن لماذا هذا الغضب يا عادل بك؟

وقال الشيخ سعد:

- أنت تتحدث بلهجة ضباط حرس الوزارات، لا ضباط كلابشة.

وقال نخلة أفندى:

- يا عادل بك يا ابنى إن قلبى لا يتحمل هذا الغضب.

وعاد الضابط عادل برهان يصيح فى عصبية:

- أنا لست غضبان. قلت لكم لست غضبان. أنا الذى أرعى مصالح هذا الصياد المسكين. أنا لم أشك إلى أحد منكم. لم أطلب معاونة أحد. لا أريد معاونة أحد. هل تفهموننى.؟

وعاد الأستاذ برعى يقول:

- لكنا جميعاً نحب "مدثر"، ونريد أن نساعده معك.

وصاح عادل برهان فى ثورة:

- تحبون مدثر أم إن وراء ذلك شيئاً آخر؟!

وأقسم الأستاذ برعى أن السبب هو حبهم لمدثر، والرغبة فى التخفيف عن عادل بك برهان.

لكن عادل برهان مضى يصيح:

- إن كنتم تريدون مساعدتى، فأنا لم أطلب هذه المساعدة ولا أريدها. أما مدثر، فإنى لن أسمح لأحد أن يرعى أموره غيرى. إن أموره أمانة فى عنقى، ولن أسلم الأمانة لأحد.

وتبادل الموظفون النظرات، فإن هذه الثورة المفاجئة من الضابط عادل برهان كانت شيئاً غريباً.

أما مدثر فإنه لما سمع عادل بك يعلن تفانيه فى خدمته إلى هذا الحد.

قال فى نفسه:

- والله إنسان، هذا الضابط الشهم.

□□□

(10)

صديقى مدثر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد .

فإنه يؤسفنى يا صديقى أن أخبرك أنى لم أستطع أن أعود كما وعدتك من قبلٍ فى الموعد الذى اتفقنا عليه.

لقد فاجأنى المرض يا مدثر، فاضطررت أن ألازم الفراش، عملاً بنصائح الأطباء ولو أن الأمر بيدى ما تأخرت عنك أبداً . أولاً لأنى أشتقت إليك أيها الصديق، وثانياً لأن أمورك فى التموين والتجارة تشغل بالى، وأخشى إذا تأخرت عليك أن ترتبك.

صديقى مدثر

لعلى لا أثقل عليك إذا طلبت منك مع حامل هذا إليك مبلغ مائتى جنيه، أواجه بها نفقات هذا المرض المفاجئ. وعندما أشفى، وأعود إليك، فإن كل شئ أملكه سيكون دائماً تحت تصرفك.

تحياتى وأشواقى لوالدنا الريس غلاب.

وحتى نعود فنلتقى على خير، لك سلام.

المخلص: عادل برهان

وعندما فرغ الرسول من قراءة الخطاب، كان الصياد الفتى، قد أصابه الاضطراب والقلق، فقد كان يحب الضابط عادل برهان حباً شديداً، ويقدر له معروفه الكبير، فلولاه، ما استطاع أهالى نجوع كلابشة أن يحصلوا على حقهم فى التموين، ولولاه ما استطاع أهالى نجوع كلابشة أن يحصلوا على حاجاتهم اليومية الضرورية.

إن الفضل فى ذلك راجع إلى الضابط عادل برهان، فإنه هو الذى شجعه وأيَّده، بل إنه كذلك تولى عنه مهمة القراءة والكتابة. لقد حمل كل الأعباء، ويسر له كل المهام حتى لقد اقتصر عمل مدثر على أن يحصل على ما يريد، وأن يدفع ما يطلب منه، وأن يوزع البضاعة على الناس، وأن يحصل منهم ما دفع. أما ما عدا هذا من أوراق، وارتباطات، واتفاقات فقد تولاها الضابط عادل برهان، ولم يكن على الصياد مدثر، إلا أن يضع خاتمه على الأوراق التى يقدمها إليه حضرة الضابط ويبصم بأصبعه حيث يطلب إليه حضرة الضابط أن يبصم.

لو أن فى كل مكان من بلاد النوبة واحداً مثله. إذن ما احتاج أهل النوبة إلى شئ !

لهذا فإن خبر مرضه نزل على مدثر كالصاعقة.

صاح فى الرسول القادم بالخطاب:

- أى مرض أصابه؟ قل لى ماذا أصابه؟

- إنه مرض شديد ألزمه الفراش.

- منذ متى؟ لقد غادرنا منذ عشرة أيام. فهل كان مريضاً طول هذه المدة؟

- لا لا يا سيدى. لقد مرض فى اليومين الأخيرين.

- وهل دخل مستشفى أم إنه فى داره؟

- دخل المستشفى.

- ما اسم المستشفى؟

- المستشفى الإيطالى.

- لكن قل لى بالله. هل مرضه خطير؟

- ربنا يتولاه بكرمه وفضله.

- لكم أتمنى لو أستطيع المجئ معك، لأزوره.

- لا لا يا سيدى.إنه رجل عاطفى وحساس، وهو يحبك.

- وأنا أيضاً أحبه، من كل قلبى.

- لهذا فإن زيارتك له قد تسبب له بعض المضايقات.

- لماذا؟. ألا يسره أن يرانى؟

- طبعاً يسره أن يراك، ولكن سروره سيكون مصحوباً بانفعال شديد، وهذا لا يساعد على الشفاء.

- السرور لا يساعد على الشفاء !!

- إن مرضه يا سيدى غريب. المطلوب منه أن يعتدل. لا يحزن حزناً شديداً، ولا يفرح فرحاً شديداً.

- شئ غريب. لم أسمع عن مثل هذا المرض من قبل. على كل حال متى ستعود أنت إليه.

- الآن حالاً.

- وماذا تريد؟ ماذا يطلب هو؟

- مائتين من الجنيهات.

- انتظر. سأعود إليك بعد قليل.

●●●

ودخل مدثر فروى لجده موضوع هذه الرسالة، وحكاية المرض الذى ألزم الضابط عادل برهان الفراش، والمائتى جنيه التى طلبها ليواجه بها مرضه.

وكان مدثر يبكى من التأثر. كان يمسك بيد جده العجوز، ويضغط عليها فى انفعال، إن مدثر يشعر أن قلبه يكاد يتمزق على الضابط المريض.

ولم يكن الريس غلاب ساذجاً حتى يقبل الأمر على علاته.

ولم يكن كذلك قاسياً، حتى يصدم مدثر فى عواطفه.

ولكى يأخذ الريس غلاب الأمر باحتياط قال لمدثر:

- مسكين صديقنا عادل بك. والله إن مرضه ليعز علينا جميعاً. ليتنى يا مدثر أستطيع أن أفديه.

- شكراً يا جدى. أنت الوحيد الذى تقدر هذه المشاعر يا جدى.

- على أنى يا مدثر أخشى أن يكون الرسول كاذباً فيما حمل.

- لقد أعطانى خطاباً مغلقاً، وأنا الذى فتحته، فلما لم أستطع قراءته، طلبت منه أن يقرأه لى.

- وما الدليل على أن الرسالة منه؟ وما الدليل على أن الرسول قرأ ما فى الرسالة قراءة صحيحة؟

- لابد أنه قرأ ما فيها كما هو.

- قـد يكون فى الأمـر سـر يا مـدثر، ومع هذا فـمـاذا سنخسر لو رأى الرسالة أحد أصدقائنا الموظفين، ليتأكد مما جاء بها؟

- مثل من يا جدى؟

- مثل نخلة أفندى أو الأستاذ برعى.

- إذن اذهب بها إلى نخلة أفندى.

- وأنا قادم معك إليه، لأسمع ما فى الرسالة بأذنى.

كانوا مجتمعين فى حديقة المدرسة أو فى دار الحكمة احتفالاً بوجود حضرات المفتشين معهم ولم يكن ينقصهم إلا الضابط عادل برهان.

قال الدكتور مرجان:

- مـتـى يا ترى يعـود حـضـرة اليـوزباشـى، لقـد طالت إجازته.

وقال الأستاذ مهدى:

- ولماذا يعود يا دكتور؟ إن سعادته هناك لا تقدر، ولقد ضحكنا ضحكاً لا أول له ولا آخر، يوم قابلته فى القاهرة.

وسأل الأستاذ برعى:

-لكن متى يا باشمهندس؟ متى قابلته؟

قال الأستاذ مهدى:

- منذ أسبوعين أو أكثر قليلاً.

وعاد الأستاذ برعى يسأل:

- وهل قابلته صدفة، أم بميعاد؟

قال الأستاذ مهدى:

- صدفة والله. كنت فى إجازتى السنوية، وذهبت إلى الأوبرج. ولم لا؟ ألا نستحق هذا بعد شهور العذاب فى الصعيد وهنا؟ وهناك لقيته.

- فى الأوبرج؟!.

- نعم فى الأوبرج.

- وهل كان وحده؟

- لم يكن العفريت وحده. كانت معه واحدة..

- واحدة.. واحدة ست؟

- طبعاً واحدة ست، كالقمر.

وتبادل الموظفون المجتمعون فى دار الحكمة النظرات.

لقد علموا من الرسالة التى وصلت مدثر أنه مريض. وأكد لهم الرسول الذى أرسله إلى مدثر أنه نزيل المستشفى.

ولقد طلب مائتين من الجنيهات ليواجه بها ظروف المرض، وأرسل له مدثر مع الرسول المبلغ الذى طلبه، ليواجه هذا المرض الخطير. وها هو ذا يقع فى الفخ !! إنه مريض جداً، فى الأوبرج ! مريض بالحساسية الشديدة، حتى إن زيارة مدثر له، كان يمكن أن تودى بحياته

قال الشيخ سعد:

-إذن سموه عادل برهانرج، على وزن أوبرج.

-وصاح الأستاذ برعى قائلاً:

-اسكت يا شيخ سعد. المسألة أخطر من هذا.

●●●

وبدأت تتكشف لموظفين فى كلابشة مسائل لم يكونوا يفكرون فيها من قبل. كانوا يأخذونها على أنها مسائل عادية. بل وكانوا يحسنون تفسيرها إذا أرادوا لها تفسيراً. وفجأة يدخل هذا العنصر الجديد، فيلقى على ما ظنوه مسائل عادية ضوءاً جديداً. وإذا هذه المسائل العادية تحتاج إلى تفسير جديد.

لماذا ثار الضابط عادل برهان، عندما عرضوا عليه أن يساعدوه فى رعاية أمور الصياد مدثر؟

لماذا غضب الضابط عادل برهان، وهم يؤكدون له أن الذى دفعهم إلى هذا العرض هو حبهم لمدثر لا غير؟ لماذا غضب، واقترن غضبه بنوبة شك بوليسية؟

لماذا كان يحرص على إبعاد الموظفين عن مدثر وتجارته؟!

... ثم لماذا يكتب إلى مدثر يدعى المرض؟

ولماذا يطلب منه مائتى جنيه ليواجه ظروف المرض؟

لماذا كذب عليه، وهو صحيح معافى؟

لابد أن فى الأمر سراً.

بل لابد.. لابد أن حضرة الضابط كان يستغل الصياد الفتى ... كان يستغل طيبته. كان يستغل حرصه على خدمة مواطنيه. كان يستغل جهله.

لابد أن حضرة الضابط ابن الحسب والنسب ... ماذا؟ وسكت الموظفون !

وعندما سافر المفتشون، فى طريقهم إلى بقية بلاد النوبة، واجتمع الموظفون فى اليوم التالى فى حديقة المسجد أو فى مجلس الشورى، بدأوا يراجعون الأمر.

قال الشيخ سعد:

- لكن اسمحوا لى. لقد خدعنا جميعاً فيه.

قال الأستاذ برعى:

- والآن. هل نترك الأمر هكذا؟

وبينما هم فى شدٍّ وجذب، إذا بمدثر يبدو قادماً نحوهم من بعيد، ومعه جده الريس غلاب.

وسكت الجميع حتى وصلا.

وإذا مدثر يخرج من جيبه ورقة يرجو من الموظفين قراءتها له.

وإذا هى إعلان من المحكمة لحضور جلسة فى أسوان، وسماع الحكم ضده، فى القضية التى رفعها عليه بعض التجار، لعدم قيامه بسداد قيمة البضائع التى اشتراها منهم.

قال الريس غلاب ومدثر معاً:

- بضائع؟ أية بضائع؟

- أصناف مختلفة. بقالة وعطارة وأقمشة.

- بكم هذه البضائع؟

- مجموعها يا سيدى ... مجموعها مائتان من الجنيهات.

- مائتان من الجنيهات.

- نعم مائتان. غير الرسوم ومصاريف المحاماة.

- يعنى أربعمائة ... مجموع ما أخذه سرقة وغضباً وخداعاً، أربعمائة الله يسامحه. الله يسامحه.

ولم يسكت الموظفون فى كلابشة على هذا التصرف من الضابط عادل برهان.

لقد رأوا بأنفسهم أهل كلابشة وكيف واجهوا الموقف متضامنين تضامناً لم يعرفوه فى حياتهم من قبل. إن هؤلاء الفقراء البسطاء المحتاجين، وقفوا مع مدثر وقفة لا نظير لها. كلهم عرفوا أنه مظلوم، وأنه وقع فى حبائل نصَّاب. وكان لابد من أن يحموا "مدثر" من قسوة الموقف، ومن نفسه.

لن يتركوه وحده، بل سيتضامنون فى سداد أى دين عليه.

أما هو فقد بلغ به اليأس مبلغاً شديداً.

كاد يترك كل شئ حتى صيد السمك.

كاد يترك كل نشاط حتى تعلم القراءة والكتابة.

ولولا جده، وما أخذه به من الرفق، ولولا الموظفون وما أظهروه. عليه من عطف، ولولا أهل كلابشة وما أبدوه نحوه من حب.

لولا هذا النهار.

لقد كان يصيد السمك وهو يبكى من شدة الصدمة.

وجاءه صديقاه الصيادان. جاءاه من أسوان، فروى لهما روايته، وما كان من أمره وصاحبه اليوزباشى عادل برهان.

ووقفا معه بدورهما. تدخلا لدى أقاربهما التجار، ووضحا لهم الموقف فتوسط هؤلاء التجار من أقاربهما لدى أصحاب

الديون، فتنازلوا عن القضية فى نظير تقسيط المبلغ. واكتشف مدثر المسكين أن الضابط قد حمله مسئولية الديون، بمستندات تحمل ختمه أو بصمته. أما ما كان يأخذه منه من أموال، فقد دَّسها فى جيبه، مع فوائد أخرى يعلم الله مداها.

والله إنسان هذا الضابط الشهم.!

●●●

وقدم الموظفون عدة شكاوى ضد الضابط عادل برهان فى القاهرة، وقد قال الضابط فى التحقيق إنها شكاوى كيدية، دبرها قوم من الحثالة حانقون ساخطون. ولما سأل المحقق الموظفين، عن صحة ما جاء فى الشكاوى المجهولة، اضطربوا وترددوا ولم يستطيعوا أن يقرروا شيئاً ذا بال. لقد تبينوا من تعليق الضابط على الذين شكوه نوعاً من التهديد، فتراجعوا خشية العاقبة.

لقد خافوا أن يقولوا الحق. من يدرى ماذا سيحدث غداً!

إن أباه عضو مجلس الشيوخ، وهو من أظهر الشيوخ فى حزبه. ماذا لو عاد حزبه إلى الحكم، وأصبح وزيراً؟ وكيف يكون الحال، مع ابن الوزير، إذا قرر موظف شيئاً ضده؟

وضاعت صيحات الأستاذ برعى خلال جلسات الموظفين:

- ماذا يمكن أن يصيبنا أكثر مما نحن فيه؟ هل نحن أحياء؟ لنقل الحق، وأمرنا إلى الله. ألم تسمعوا قوله

سبحانه وتعالى: " ولا تكتموا الشهادة "؟ قولوا فقط ما تعرفون. ألم يحضر إلى هنا رسول من قبله برسالة إلى مدثر يطلب منه فيها مائتين من الجنيهات؟ ألم تقرأها له بنفسك يا نخلة أفندى.

ويرد نخلة أفندى محتداً:

- إياك أن تذكر عنى شيئاً، سأكذبك فى التحقيق، سأكذبك.

وهكذا ضاعت ضيحات الأستاذ برعى فى الهواء.

حتى مدثر وحتى الريس غلاب، لم يقولا شيئاً على الإطلاق.

هكذا كان قرار كل الناس فى كلابشة، ألا يقول مدثر أو جده شيئاً ضدَّ حضرة الضابط، ويكفى ما سيلقاه من عقاب الله.

وعاد المحقق من حيث أتى، بلا دليل واحد يثبت صحة ما جاء فى الشكوى، بل إن مدثر وهو الشخص الوحيد الذى كان يملك الدليل المادى ضدَّ حضرة الضابط، نفى عن حضرة الضابط أى إتهام، تاركاً عقوبته لمن لا ينسى ولا يرحم ولا ينام.

●●●

وعندما اطلع الضابط عادل برهان على التحقيق.

وعندما قرأ ما قاله مدثر عنه، أحس كمَن لسعته أفعى. أن ناراً تتصاعد إلى رأسه فتحطمه تحطيماً. وفقد صوابه وإتزانه فجأة. وصاح:

- كذاب. كذاب مدثر كذاب.

وحاول زملاؤه أن يحملوه على الهدوء، لكنه كان قد فقد كل سيطرة له على أعصابه وعلى تصرفاته، لقد كان يتصور أى شئ. إلا أن يقابل مدثر إساءته بهذه السماحة التى لا حدَّ لها، وأخذ يردد فى عصبية:

- مدثر كذاب. أنا لص. أنا نصاب. مدثر كذّاب.

وبالطبع لم يكن أمام والده من وسيلة، إلا أن يبعدوه تحت الرقابة الطبية، لكن حالته كانت تزداد سوءاً.

وبعد بضعة أسابيع سقطت الوزارة، وجاءت وزارة.

وقوى نفوذ أبيه، فاستصدر أمراً بإعادته إلى حرس الوزارات، ولما ذهب أبوه إليه فى العزبة يحكى له ما حدث، زادت حالته العصبية حدة وأخذ يصيح:

- لا. لا أريد أن أعود إلى حرس الوزارات. لا أريد أن أحرس اللصوص والمنافقين. لا أريد أن أكون فى خدمة هؤلاء. أبداً لن أعود. أعيدونى إلى كلابشة لأكفر هناك عما اقترفته. أعيدونى إلى كلابشة.

وبطبيعة الحال تركوه.

لقد كان المسكين لا يزال مريضاً، ولابد أن يبقى بعيداً، حتى يشفى.

وبعد بضعة أشهر، سقطت الوزارة، وجاءت وزارة.

وعين أبوه وزيراً فى الوزارة الجديدة، فرقى على رتبة الصاغ.

وذهب معالى الوزير والده، يزف إليه البشرى فصاح فيه صيحات جنونية:

-لا أستحق أن أرقى. لا أستحق أن أرقى. لا أريد هذه الترقية. أهكذا أعاقب بالترقية؟! وماذا فعلتم للذين سرقتهم؟ أعيدوا إليهم حقوقهم قبل أن ترقوا اللصوص. أنا لص أنا نصاب. مدثر كذاب. مدثر كذاب.

ومرة أخرى تركوه.

إن حضرة الصاغ عادل برهان، لا يزال مريضاً، ولابد أن يبقى فى العزلة، حتى يشفى.

وبعد بضعة أشهر أخرى، سقطت الوزارة، وجاءت وزارة.

ولم يكن أبوه وزيراً فى هذه الوزارة، فتوقع أصدقاء الضابط عادل برهان أنه ربما واجه ظروفاً قاسية ! من يدرى؟ قد تلغى ترقيته إلى رتبه الصاغ، وقد يبعد عن حرس الوزارات، وقد ينفى إلى كلابشة، كما كان.

ذهبـوا إليـه يطيبـون خـاطره، ويعـدونه لأى اضطهـاد قـد يصيبه.

فلمـا قالـواً له إنه قد ينقـل مرة أخرى إلى كـلابشـة، صـاح فى زمـلائه صـيحـات جنونيـة. كـان قبـلاً يطلـب أن يعـود إلى كلابشة، فلما شعر بأنه قد يعود أخذ يصيح:

- لا ... لن أستطيع أن أواجـه النـاس هناك. كـيف أضع عينى فى عـينـى مـدثر، أو الريس غـلاب، كيف أقـابل الشيخ سـعد، أو الأسـتـاذ برعى، أو عمّ نخلة؟ هـذا مستحيل. اقتلونى قبل أن تعيدونى.

علـى أن الوزارة الجـديدة لم تلبث أن سـقطت، قـبل أن يجف مداد المرسوم الملكى الذى صدر بتشكيلها.

وأعيدت الوزارة السابقة كما كانت.

وأعيد والد عادل وزيراً كما كان.

وبهـذا لم تلغ الترقية ولم يبعـد الضـابط عـادل برهان عن حرس الوزارات ولم ينف إلى كلابشة.

إنما الشئ الجـديد الذى حـدث هو أن كل شـئ قـد انهـار فجأة.

انهارت الوزارة، على رءوس الوزراء.

وإنهار النظام على رأس الملك.

وقضت التحفظات أن يقبض على عدد من السياسيين، كان منهم الوزير السابق، والد الضابط عادل برهان.

وعندما علم عادل وهو فى العزية بالخبر، ضحك ضحكاً عميقاً عالياً صاخباً، وهو يصيح:

-هذا ذنبك يا مدثر. هذا ذنب كل المساكين فى كلابشة. لم تشأ يا مدثر أن تثير الاتهامات ضدى تركت الأمر لله. وها هو ذا ينتقم لك. لو أنك قلت كل شئ، فقد كان من الممكن أن أحاكم. وكان من الممكن أن أسجن. لكنك تركت أمرك، وأمر كل المساكين مثلك لله، فكانت نقمته لك وللملايين المظلومين. إنى أكاد أطير من فرحتى بهذا النصر، لمدثر، وللريس غلاب ولأهل كلابشة، ولكل البسطاء الشرفاء المظلومين فى هذه الأرض. إنى أكاد أطير من فرحتى لأن الله جلت قدرته يثبت للذين قد يفقدون الأمل، فى الظلمات الحالكة، إنه لابد للحق من أن ينتصر، مهما طال الأمد، لأنه الحق، إن الحق يحوى فى ذاته أسباب انتصاره. لا يهم الشهود، ولا يهم الإدعاء، ولا يهم القضاء. الحق يفرض وجوده، بغير أولئك أو هؤلاء. بما فيه من عناصر الشرف والكرامة، وبالكبرياء. وأصحاب البصائر المجلوة ـ كمدثر والريس غلاب، يدركون أن هناك ما هو أقوى من الدليل المادى فى الاتهام، وهناك ما هو أقوى من شهادة الشهود،

وهناك ماهو أقوى من المحققين أو القضاة. هناك شرف الحق فى ذاته، يفرض وجوده مهما تكن براعة المضللين، ومهما تمتد بهم الأيام. هؤلاء من أصحاب البصائر يصمتون ولكنه صمت أقوى من الصياح.

ويضحك الضابط عادل برهان وهو يقول:

- إن أبى فى السجن. معالى الوزير الخطير فى السجن. ليعقد هناك مع زملائه مجلس وزراء، لعلى أنال ترقية أخرى استثنائية ! لقد جاء وقت الحساب يا برهان باشا وجاء وقت الحساب يا أصحاب المعالى. ادفعوا اليوم حسابكم، فقد عشتم حياتكم كلها لا تعرفون معنى دفع الحساب. عرفتم فقط معنى تحصيل الأرباح، وغيركم كان يدفع واليوم ادفعوا ليحصل الآخرون.

لكن الضابط عادل برهان يضع رأسه بين كفيه، ثم يقول فى صوت خافت، كمن أفاق:

- لكنه أبى. صاحب المعالى برهان باشا أبى. نزيل السجن أبى. لقد كان صاحب المعالى وكان باشا، خارج المنزل ... منذ أن كان يغادر المنزل، ويكون أول من يلقاه، العسكرى الذى بالباب، وهو يحييه التحية العسكرية، التى تثير التعالى والغرور. لكنه فى المنزل لم يكن أكثر من والد عطوف حنون، يجرى وراءنا حافى القدمين ويلعب معنا الألعاب المسلية،

فيغلبنا تارة ونغلبة تارة أخرى، وسواء أغلب أم غلب فقد كان يمزح دائماً معنا طول ساعات فراغه.

ويذرف الضابط عادل برهان دموعه وهو يقول:

- مسكين يا أبى. إنك إذا خطبت فى الناس، ظنوك أسداً تفتك بخصومك، لكنهم لا يعلمون أنك لا تحتمل تيار هواء. لا تقوى على طعام دسم. لا تنام إذا كثرت فى وجبة من وجباتك التوابل. مسكين يا أبى. ترى ماذا تفعل الآن فى سجنك، ومن يرعاك هناك.

واشتد الانفعال بالضابط المريض، فأجهش فى البكاء.

ولما أفاق بعث إلى السلطات المسئولة يطلب التصريح له بزيارة والده فى سجنه. وقد قال فى الطلب كلاماً كثيراً عن فساد الحكم، وكيف أضعف الأخلاق، وقضى على القيم، كما روى عن والده أنه بطبعه رجل فاضل، غير أن أسلوب الحكم ومقاييس المجتمع، فرضت عليه هذا اللون من الحياة. فإن قال - كما سيقول كل السياسيين القدامى - إنه كان يعمل للوطن وإنه كان يلبى النداء القومى للتخلص من الاستعمار، فثقوا أنه الكبرياء، والعزة بالإثم، ستحمله وستحمل سواه على هذا الكلام. وأخيراً فقد عرض الضابط عادل برهان عل السلطات المسئولة، أن يعرض على والده أن يعلن اعتزاله السياسة والعمل الحزبى تصفيه وتأكيداً لسلامة نواياه.

ولشد ما كانت دهشة الضابط عادل برهان، عندما تلقى فى اليوم التالى تصريحاً دائماً لزيارة والده فى المعتقل، وتأكيداً بأن اعتقاله مؤقت وأنه مجرد تحفظ اقتضته الضرورة، وأن السلطات تبذل كل ما تستطيعه لتكون إقامته وإقامة زملائه فى المعتقل محتملة. أما عن اعتزاله السياسة أو العمل الحزبى، فذلك شئ متروك له.

وصاح الضابط عادل برهان والفرحة تطفح على قسمات وجهه:

-إنى ذاهب لأبى سأرى أبى حالاً، وسأطلعه على هذا الخطاب، وإنى واثق أنه لن يقبل بعد الذى حدث أن يبقى يوماً واحداً فى الحزب، ولن يتطلع أبى بعد ذلك إلى الحكم. لقد كاد يفقدنا، وكانا نفقده، من تأثير الصراع الحزبى، والتنافس فى سبيل الحكم، عليه وعلينا. والآن سيعيش أبى بقية حياته، بلا صراع، ولا مؤامرات، ولا فتن ولا منافسة يستعمل فيها كل سلاح، مشروعاً كان أو غير مشروع. وسنعيش نحن معه فى أمن ودعة وسلام. أما عن نفسى فسأعيش أؤدى واجبى، بلا استغلال ولا انتهازية ولا رشوة ولا سرقة ولا نصب ولا احتيال.

وغادر الضابط المريض العزبة ولم يعد إليها بعد ذلك أبداً.

أما مدثر فإنه عندما تلقى الصدمة، أصيب فى أعز شئ كان لديه: الثقة بالناس.

ولولا جده، وما خفف به عنه هذه الصدمة، من كلام وحنان.

ولولا أهله: جدته وأمه، وما قامتا به من جهد، لكيلا يذبل مدثر نتيجة هذه الصدمة.

ولولا أهل كلابشة، الرجال والنساء جميعاً، وما قدموه من عون لمدثر، حتى لا تكسره الصدمة وتقضى عليه.

لولا هذا، لانزوى الفتى فى ركن قصى من الدار، حزيناً شارداً، لا يفيق من ذلك أبداً.

لقد قال له جده يخفف عنه:

-هل يقف النيل عن المسير، لأن عابثاً ألقى فيه بقذارته؟ هل تقف الشمس عن الشروق أو الغروب، لأن مستهتراً خلع ثيابه، ليسير عارياً تحت ضوئها يؤذى مشاعر الناس برقاعته؟ لا يا مدثر. أنت لا تملك أن تختفى عن أهل كلابشة، لأن عادل برهان خانك وغدر بك. أنا أعرف حقيقة شعورك، لكن واجبك نحو أهلك ينبغى أن يكون أقوى من هذا الشعور اليائس.

●●●

وأفاق مدثر من غشيته.

ومضى فى قاربه، يشق صفحة النهر، كطائر مهيض الجناح أو مهيض الشراع ! إن الشراع الأبيض الجميل يتموج مع النسيم، لكن فى أنين.

وهناك عند المدرسة، شدّ قاربه إلى الشاطئ، ومضى يتلقى دروس القراءة والكتابة. لقد امتلأ حماسة للقراءة والكتابة، ليصبح أكثر صلاحية لخدمة أهل كلابشة، دون أن يضحك عليه عادل برهان آخر.

وما هى إلا شهور حتى أصبح قادراً على أن يقرأ وأن يكتب، وأن يعرف حساب التموين وأنواع البضائع الأخرى.

وكان مدثر، قد تخطى الأزمة التى عرضت له، وتجاوز المحنة التى كادت تسد عليه الطريق. بل وكان قد خطا فى التجارة خطوات أخرى جديدة، فوفرّ كل احتياجات أهل كلابشة وموظفيها من المؤن.

إنه لا يزال الصياد الذى يبحث عن الرزق فى بطن الماء.

ولا يزال السمك هو رزقه، الذى ينتظره كل مساء.

أما التجارة فى مواد التموين وفى أية بضائع أخرى، فقد فرض عليه أهالى كلابشة أن يتقاضى عنها ربحاً ضئيلاً. إن هذه التجارة كانت مهددة بالتوقف ليعود الناس كما كانوا لا يجدون شيئاً، فبعد حكاية الضابط عادل، لم يكن لدى

الريس غلاب أو مدثر شئ يكفى لسداد الديون، والاستمرار فى الحصول على البضائع. وتدخل أهالى النجوع جميعاً، فجمعوا لمدثر أثمان مواد التموين، وأثمان البضائع الأخرى. لكن الريس غلاب ومدثر حاولا أن يعتذرا، وكفى ما أصابهما من خسائر، ستظل فى عنقهما زمناً طويلاً، حتى يسددها لأصحابها.

قال الريس غلاب:

– ألا تكفى هذه الديون، حتى نحصل على ديون أخرى جديدة؟ ومن أين نسدد ديون أهالى كلابشة؟

قال الأهالى:

– لكن دينك ودين مدثر ديننا جميعاً. ثم إننا لا نعطى وما نعطيه ديناً، بل إنه ثمن لتموينا وبضائعنا ندفعه مقدماً، معونة على مواجهة النكبة.

وعاد مدثر إلى قاربه، يشق به النيل بين نجوع كلابشة وقد امتلأ قاعه بالسكر والزيت، والملح والكبريت، وإبرة الوابور وإبرة الخياطة، والخيار واللوبيا، وملابس الرجال والسيدات أيضاً.. يرفرف فوق ذلك كله الشراع الأبيض غير مهيض.

وكان مدثر قد اكتسب خبرة بالتجارة فى هذه المناطق، واحتياجات الناس فى مختلف شهور السنة، فراجت تجارته

رواجاً كبيراً، حتى لم يعد أهل كلابشة يتصورون كيف تكون الحياة بغير مدثر، وقاربه، وشراعه الأبيض.

وكسب مدثر من الأرباح الضئيلة التى يتقاضاها ومن السمك مامكنه من سداد ديونه كلها، وساعده على شراء أصناف أخرى جديدة يحتاج إليها الناس فى كلابشة.

على أنه كأهل النوبة جميعاً ـ بدأ يزين قاربه الصغير. فاشترى له زينات بسيطة لكنها جميلة؛ ووضع رايات مختلفة حول الشراع الأبيض. ليبدو هذا الشراع كأنه فى إطار، واشترى جهازاً صغيراً للراديو، يسمع منه الموسيقى والأغانى وتلاوة القرآن.

ويقول أهل كلابشة:

إن مدثر أدخل النور إلى القارب.

وكان مدثر قد اشترى عدداً من الفوانيس يضيئها بالشموع، كما اشترى عدداً من الفوانيس تضاء بالبطاريات.

ولكى يحافظ مدثر على نظافة القارب، أضاف إليه قارباً آخر صغيراً بلا شراع، يجمع فيه السمك، فلا تختلط رائحة السمك، بالمأكولات والبضائع الأخرى.

وشعر مدثر، أن الحياة بدأت تضحك له وتسالمه.

أما جده الريس غلاب، فقد كان يمسك قلبه بيديه، خشية أن يكون ذلك التوفيق نذير سوء.

وعندما وصلت إلى بلاد النوبة أنباء سد جديد يقام عند أسوان، يغرق قرى النوبة وزراعاتها، قال الريس غلاب:

- كنت أخاف مما وصلنا إليه من راحة البال. كنت أحسب حساب هذا اليوم، إنه قدرى ألا يهدأ لى أبداً بال إلا وأعقب ذلك مأساة.

لكن الأيام مضت، وأنباء هذا السد الجديد تحطم أعصاب الناس فى بلاد النوبة، فمن قائل إن السد سيقام حالاً، وستغرق هذه البلاد قبل أن يدبر أهلها أمورهم. ومن قائل، وسيكون السد هذه المرة عالياً ليكون ماؤه فى هذه البلاد كالطوفان، ولا ينجو منه حرث ولا زرع.

ومع مضى الأيام، عرف أهل كلابشة أن السد الجديد العالى شئ يغيظ الإنجليز والفرنسيين والأمريكان، ولم يستطيعوا أن يعرفوا لهذا سبباً.

ثم عرف أهل كلابشة ان الحكومة تدبر الأموال اللازمة لهذا السد، وأنها تفاوض الدول الكبرى لتحصل على هذه الأموال.

وبدأ الناس فى كلابشة يسأل بعضهم بعضاً:

- إن هذا كلام لم نسمعه فى المرتين اللتين تمت فيهما تعلية الخزان.

- نعم ولم نسمع أن أحداً يحارب التعلية فى المرتين السابقتين. لا الإنجليز ولا الفرنسيون. ولا الأمريكان.

- إذن لماذا يحاربون هذا السد الجديد؟

- هل لهذا علاقة بجلائهم مضطرين، عن قاعدة قناة السويس؟

- وهل لابد أن يقوموا هم بعمله حتى يوافقوا عليه؟

- أو هل لابد أن يستفيدوا منه هم وإلا عارضوه وحاربوه؟

●●●

على أن أهل كلابشة ـ مع هذا ـ لم يكونوا يشعرون بارتياح، وهم يدركون أن السد الجديد العالى ـ برغم أن الإنجليز والفرنسيين والأمريكان يحاربونه ـ سيؤدى إلى غرق بلادهم. قد يكون هذا السد عملاً عظيماً وكبيراً، وإلا ما حاربه هؤلاء، لكن هذه البلاد ستغرق!

هل لابد أن تكون بلادهم هى الضحية ... دائماً؟

وأخذوا ينتظرون.. لقد عودتهم الأيام على الصبر والقناعة والرضا. ومن يدرى، ربما أتى الغد بشئ جديد.

وجاء مع الغد هذا الشئ الجديد.

رفضت الدول الكبرى تمويل هذا السد الجديد العالى ونجحت محاولات هذه الدول لوقف المشروع.

وشعر أبناء كلابشة بوجوم حزين.

إنهم يحبون كلابشة، لكنهم يحبون مصر أولاً، ثم كلابشة. ونجاح هذه الدول ضد مصر، شئ لا يفرح له أبناء كلابشة، حتى ولو كانت نتيجته ألا تغرق كلابشة، وأن تبقى إلى الأبد.

لقد كانت أمنيتهم أن تقتنع حكومة مصر ببقاء الحالة على ما هى عليه، أما أن يتم ذلك من طريق مؤامرة دولية، فإن أهل كلابشة يؤثرون أن تغرق كلابشة، على أن تهزم مصر.

وعندما أعلنت على مصر الحرب، بعد تأميم قناة السويس، كان أبناء كلابشة أكثر الناس حماسة للقتال ضد القوى الغاشمة التى هاجمت مدن القناة.

وكانت دعوات الريس غلاب تخترق طيات الليل، مبتلهة إلى الله أن ينصر هذه البلاد على أعدائها.

كذلك كانت دعوات كل أهالى كلابشة.

ولقد استجاب الله لهذه الدعوات، فتأكد لهذه الأمة النصر، واستقر فى ضميرها هذا السد الجديد العالى.

●●●

وعرفت كلابشة نوعاً جديداً من الزوار.

أجانب يتكلمون لغة غير لغة البلاد، جاءوا للبحث عن الآثار.

إن أهل كلابشة يرقبونهم وهم يحفرون، وهم يعملون، وهم يدرسون. وقد أقبل معهم عدد من الموظفين المصريين، والعمال والخفراء. وإنهم ليقيمون فى عائمة، وفى بعض الأحيان يتناثر حول العائمة عدد من الخيام.

إنهم يعملون بالليل والنهار، ويهتمون بكل شئ يجدونه فى باطن الأرض. وإن معهم كذلك عدداً من النساء، يعملن معهم، ويرتدين، مثل الرجال البنطلونات.

كذلك شهد أهل كلابشة بعثات أخرى من المصريين، معهم أوراق كبيرة يرسمون عليها أطوال معبد كلابشة، وبيت الوالى، والأجزاء الصغيرة فى كل من المعبدين. وهم كذلك ينقلون الرسوم، المنقوشة على الجدران، بالألوان، وبغير الألوان. ومع هذه البعثات كذلك آلات للتصوير، يعملون بها طول النهار.

لقد أصبح السد الجديد العالى حقيقة.

وفوجئ أهل كلابشة ذات صباح، من عام ١٩٦٢، باستعدادات هائلة.

عـدد كـبـيـر من العـمـال، أوناش، سـيـارات، عـائمـات، جرارات، صنادل.

وكانت صدمة لهم، عندما علموا أن كل هذه الاستعدادات تتخذ، لنقل معبد كلابشة من مكانه الحالى إلى مكان جديد.

وتجمعوا فى المساء، ليسبقوا هؤلاء، وينقلوا حجارة المعبد إلى أى مكان يستطيعون فإذا لم يستطيعوا ذلك، فلا أقل من أن يهدموا هذه المبانى، قبل أن ينقلها هؤلاء الناس.

ورآهم الخفراء، فمنعوهم.

لكنهم عاودوا الكرة فى الليلة التالية.

وخشى رجال البعثة أن يستمر الأمر بينهم وبين الأهالى على هذا الشكل من السباق. وقد يضر هذا السباق أجزاء المعبد.

واستدعى الدكتور فرج، فجاء على عجل. وعندما وقف على الأمر،

قال:

- إن هذا موضوع لا يحله إلا شخص واحد، هو مدثر.

- من هو مدثر؟ أهو صياد السمك؟

- نعم، وهو أيضاً صاحب الدكان العائم، ذى الشراع الأبيض.. ولما شرح الدكتور فرج المسألة لمدثر، هزّ مدثر رأسه وهو يقول:

– على كل حال لا تلوموا هؤلاء الناس. لقد ولدوا وشبوا وهذان المعبدان بين عيونهم. لقد أصبح كل من المعبدين جزءاً من حياة الناس هنا. وإنهم ليستكثرون أن يفتحوا عيونهم ذات يوم، فلا يجدون المعبدين أو أحدهما، حيث اعتادوا أن يجدوها. أتعرفون أن أهالى كلابشة يخرجون إلى ساحة المعبد فى الليالى القمرية حيث يتناولون العشاء، ويسمرون، ويرقصون فى أضواء المشاعل؟! وهم فى رمضان يتناثرون جماعات فى بهو المعبد قبل الإفطار، حتى إذا ما جاء وقت الإفطار، تناولوه فيه. إنه جزء من حياتهم ومن عاداتهم فلا تستكثروا الأمر، إذا هبّوا دفاعاً عنه، على طريقتهم

قال الدكتور فرج:

–ومن أجل الدفاع عنه، يتم نقله على مكانه الجديد.

ووعد مدثر بأن يعمل على تهدئة هذه النفوس الغاضبة.

وأقبل عام ١٩٦٤.

وأصبح حتماً على الناس أن يهاجروا، قبل أن ترتفع مياه النيل، لتلف هذه النجوع بماء لا ينحسر بعد ذلك أبداً.

إن الحكومة لن تتركهم هذه المرة يغرقون. ستنقلهم إلى بعيد، إلى ما بعد الخزان فى مكان آمن، بلا فيضان، ولا غرق، ولا جدب، ولا جفاف.

لكن طعم كلابشة، سيظل فى مذاق أهل كلابشة لا يزول.

كذلك أشكال كلابشة، وألوانها ورائحتها ذات العبير.

كم هى غالية هذه البلاد، حتى الجبال، وما فيها من زواحف.

كم هى عزيزة هذه النجوع، حتى ذبولها، وعجزها عن أن تطعم جوعاً، أو تبلَّ عطشاً.

كل شئ هنا غال ثمين، حتى القحط، حتى الجدب، حتى الجفاف.

على أنه نداء الحياة، تردد فى جبال كلابشة، فتردد فى أسماع أهلها أصداء.

وكان لابد من الرحيل.

وجاء رجال التهجير، وكان على رأسهم ضابط كبير، يحنو على الناس حنواً بالغاً، ويبذل أقصى الجهد لمساعدتهم. وإنه ليحمل بنفسه متاعهم، وقد ترقرقت فى عينيه الدموع.

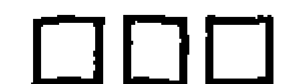
وبعد أن استقر كل فى مكانه من الركب، نظر مدثر وهو فى قاربه غير بعيد، فوجد الضابط الذى على رأس الركب هو عادل برهان نفسه.

ونظر الضابط عادل برهان، فوجد أن الذى فى القارب هو مدثر، واقف كما اعتاد، فى ظل شراعه الأبيض.

وقفز كل منهما إلى الشاطئ وجرى كل منهما نحو أخيه، وتعانقا فى ود وفى صفاء وفى إخاء.

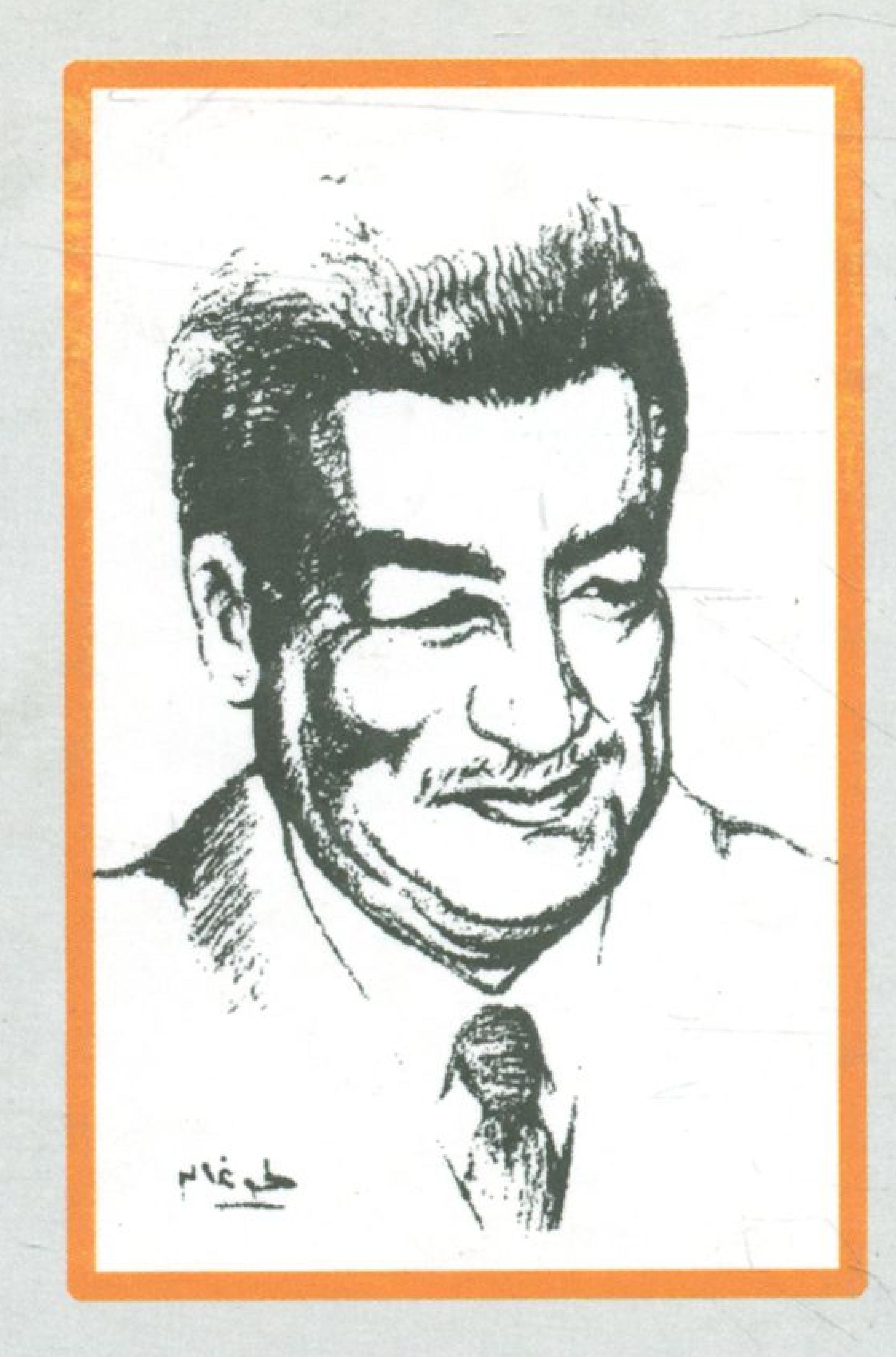
قال عادل: لقد كفرت عن خطيئتى يا مدثر. ولقد تعلمت من النوبة أعظم درس فى الأخلاق. هل تسامحنى؟ هل تغفر لى؟

قال مدثر: يا حضرة الضابط إن الله، غفور رحيم.



ومضيا فى القارب الصغير، خلف قافلة التهجير، إلى عالم جديد، يرفرف فوقهما: شراع أبيض.

□□□



عبد المنعم الصاوى فى سطور

- ولد فى محافظة البحيرة يوم ٢٠ فبراير ١٩١٨
- حصل على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية من جامعة القاهرة .
- عمل بالصحافة وتولى العديد من مناصبها القيادية واختير دورتين متتاليتين نقيباً للصحفيين المصريين.
- أسس أول وكالة أنباء عربية (وكالة أنباء مصر)
- أسس إتحاد الصحفيين الأفارقة وتولى رئاسته حتى رحيله .
- تولى رئاسة مركز مطبوعات اليونسكو.
- أضاف للمكتبة العربية العديد من المؤلفات الروائية والفكرية وفى مقدمتها واحدة من أطول الروايات العربية خماسية الساقية (الضحية - الرحيل - النصيب - التوبة - الحساب الذى لم يمد الله عمره لإكماله)
- تم إنتخابه عضواً بمجلس الشعب عن دائرة الأزبكية والظاهر،ثم وكيلاً للمجلس عن نفس الدورة.
- تولى العديد من المناصب القيادية بوزارة الثقافة.
- تولى وزارتى الثقافة والإعلام معاً فى حكومة السيد ممدوح سالم وفى عهد الرئيس السادات يرحمهم الله جميعاً.
- تم تعيينه عضواً بمجلس الشورى فى أول دوراته .
- تولى رئاسة إتحاد سباحة المسافات الطويلة وساهم بشكل كبير فى دعم الرياضة المصرية على كافة المستويات .
- ظل يناضل من أجل القضايا العربية وفى مقدمتها قضية فلسطين التى ألقى آخر خطبه دفاعاً عنها فى بغداد يوم السابع من ديسمبر عام ١٩٨٤ حين توفاه الله تعالى .

٣ جنيه

الناشر: شركة عالمية لل
محمد عبد المنعم
تليفون : ٧٣٥٩٠٨٧ فاك
بريد إلكترونى : mia.net
طبعة عام ٢٠٠٦

